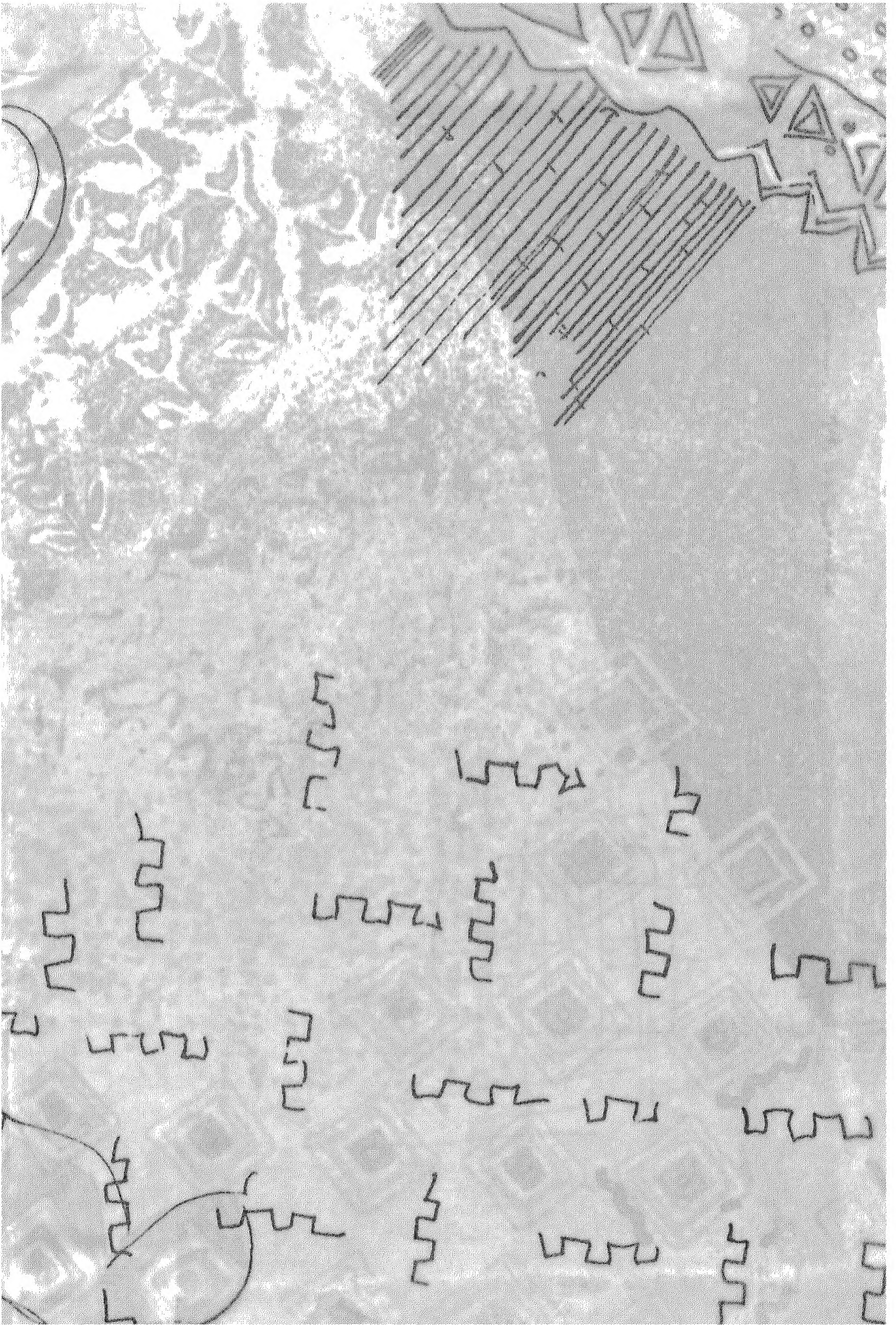


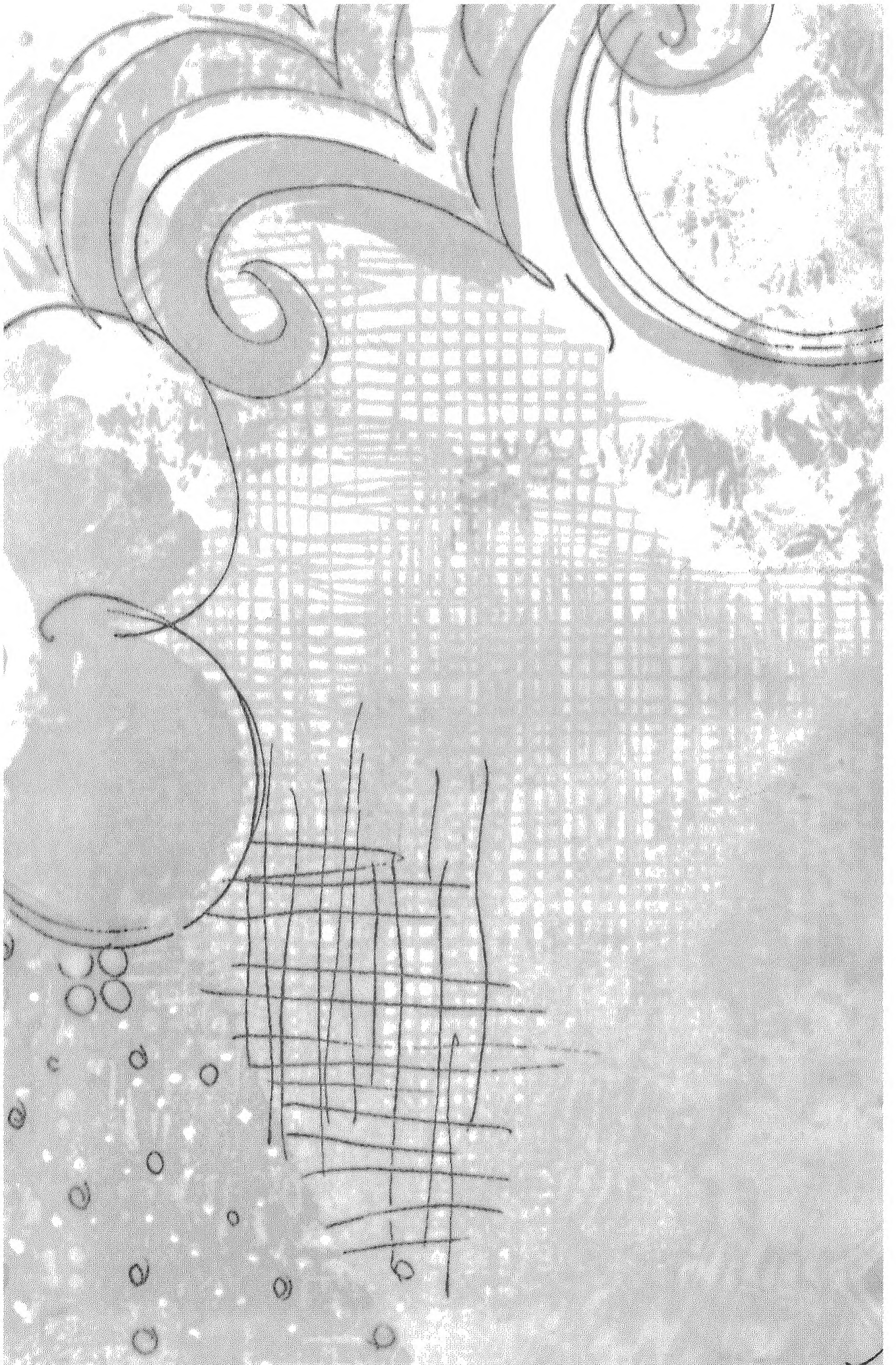


Bibliotheca Alexandrina



0119126





الرَّجُلَةُ الشَّامِيَّةُ

سلسلة التواريخ والحلقات

٣

الرجلة الشامية

تأليف

محمد علي باشا

دار الراءد العربي

ص٦٥٨٥

بيروت - لبنان

حقوق الطبع محفوظة
١٤٠١هـ = ١٩٨١م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى لا يبر الا من بره ولا جود الا من جوده ، الموجود
الأول الذى لا أول لوجوده والمشهود الآخر الذى لا آخر لشهوده
والصلاة والسلام على أفضل رسله الكرام سيدنا ومولانا محمد المرسل
رحمة لجميع الأنام وعلى آله وأصحابه نجوم الهداية ومصابيح الظلام
(وبعد) فهذه رحاى الشامية أقدمها لقراء العربية تحفة مرضية
مستعينا بالله وهو حسبي ونعم الوكيل

المقدمة

قضيت نحو ثلاثين صيفا فى جؤ البلاد الاوربية حيث تربيت
فى مدارسها صغيرا ، ثم تجوّلت فى سياحتها كبيرا ، وتطوّفت حول
حواضرها وقراها كثيرا 'حتى انى بمعونة الله لم أدع شيئا من آثارها
التاريخية 'ومعاهدها العلمية' ومعاملها الصناعية الى غير ذلك مما يهم
السائح أن يتعرّفه فى تلك البلاد إلا زرتة وأخذت منه بالقدر الأوفى
والنصيب الأوفر ، ثم ما من مرة كنت أزور فيها هذه البلاد الا وكنت
أجتمع بملوكها وأمرائها وأعيانها ووجهائها والا كنت أردد النظر
حول رياضها المنتسقة ومناظرها البديعة ، ولقد ساعدنى حسن الحظ

أخيرا على زيارة بلاد اليابان والصين وهناك وضعت رحلتى اليابانية
التي فصلت فيها سياحتي لقراء العربية تفصيلا، وقد كنت إبان هذه
الرحلات العديدة والاسفار المفيدة أذكر بعض البلاد الاسلامية
التي لاتزال حتى اليوم مستقلة في أيدي المسلمين وتحت سيطرتهم ،
فكنت أحن اليها حنين الشارف على ولدها ، وأودّ من صميم قلبي لو أن
يجعل الله لي نصيبا من زيارتها، بل كثيرا ما هممت بمشارفتها ونهضت
لذلك نهوضا لولا أن صعوبة المواصلات وما لعله يكون من بعد الشقة
وعدم توفر وسائل الراحة ووسائل الرفاغة كانت يومئذ عقبة كؤودا
في طريق ، ولولاها ما كان أحوج مسلما يحب المسلمين ويصبو
الى بلادهم أن يشد رحاله الى بغداد مدينة السلام ودمشق عاصمة
الشام كيلا يحرم من مشاهدة مدينتين نخيمتين كانتا أكبر عواصم
الاسلام وأعظمها حضارة، وناهيك بهما في عهدي الدولة الأموية
والعباسية وعلى الخصوص في عهد المأمون عهد الحضارة الشرقية
والنور، يوم كانت بغداد هذه محط رحال العرب ومنبعث أشعة الحكمة
والأدب، على أنى ما لبثت قليلا حتى قيض الله لي نفرا من أصدقائي
الكرام وعِلية القوم في بلاد الشام فطلبوا إليّ أن أزور بلادهم، وقد
كنت لا أزال أنحش من حصول ما عساه يعترض المسافر مما ربما

مس بالصحة أو أساء الى الكرامة، فكاشفت هؤلاء الصَّحْب بما كان يجيش به صدرى من ذلك وغيره لعلى كنت ابلغ من لدنهم عذرا أو أستطيع الى السفر سبيلا، فما زالوا يجهدون أنفسهم فى إقناعى بضد ما كنت أظن حتى لقد حببوا الى الرحلة وأوقعوها من نفسى بحيث صارت عزيزتى اليها أشد منها الى ما سواها خصوصا بعد ما أنهم تكفلوا براحتى فيما كنت أتوقع التعب من ناحيته أكثر من المعتاد فى أسفارى . وما كان ليخامرني ريب فى صدقهم اذ كنت أقرأ على صفحات وجوههم البيضاء آية الاخلاص والوفاء، وحينئذ طويت العزم على ارتياد بلاد سورية وفلسطين والعراق فرحا مسرورا بتحقيق رجائى القديم من زيارة بلاد طالما تاقت نفسى أن تراها وتشاهد فيها أهلها على الأزياء الفطرية والعوائد الشرقية التى لاتزال الى اليوم حافظة ما كانت عليه منذ العصور المتقدمة بفضل ما يُعرف فى أهلها من الغيرة عليها وحرصهم على أن لا تختلط بتقاليد الغربيين وعوائدهم، وقد كنت كلما سمعت الناس يمتدحون طقس هذه البلاد وما وهبها الله من جمال المنظر ونضارة البقعة وبهاء الطبيعة فضلا عن اتساع مساحتها وخصوبة تربتها وعذوبة مياهها وغضارة رياضها يزداد شوقى نحوها ويتأكد عزمى على ارتيادها، وكان يجيئ فى غضون حديث القوم عن

وصف تلك البلاد ذكر الخيل المحكمة الحلقة الكريمة الأصل وأنها في تلك الجهات تمتاز كثيرا عن غيرها بسرعة العدو واعتدال الصورة وكبر القامة، فكان ذلك يزيد في تنشيطى ويقوى من عزيمتى سيما وإنى مولع بالخيل ولى غرام عظيم باقتنائها، كما أتى أميل كل الميل الى الشجاعة والشجعان وأحب ملء قلبى الفروسية والفرسان، وكان فيما سمعته من غير واحد أن بعض الطوائف فى تلك البقاع يحسنون اختيار الخيل ويجيدون ركوبها على أتم ضروب الفروسية وأكمل خواصها وأن أخصهم فى هذا المعنى وأشهرهم به فوارس الدنادشة وأبطال العكاكرة .

(الدنادشة والعكاكرة)

هما قبيلتان يقال ان الأولى منهما أصل جدها من اليمن ونزل حوران منذ ثلاثة قرون ثم هاجروا حوران وسكنوا برج الدنادشة فوق تل كلخ مقرهم الحالى، وكان زعيمهم اذ ذاك يسمى الشيخ اسماعيل ولقبه التركمان جيرانه باسم دندشلى لانه كان يزين خيله بعذبات مرسلة تسمى دنادش، ثم رحل شقيقه مع بعض قبيلته الى حوران وهم الفحيليون الى الآن وزعيمهم مقيم فى تل كلخ، ثم هم مسلمون سنيون ولهم ولع غريب بالفروسية ولهم أيضا عقارات

واسعة في سهل البقيعة، وهناك طائفة من المتاولة تسمى الدنادشة
 أو بنى دندش و يقيمون في عكار وما يجاور الهرمل وحمص، ولعل
 العكاكرة قبيلة من هؤلاء تنسب الى عكار البلد المذكور هذا، وكم
 كنت أشعر بارتياح نفسي وانشرح صدري حينما كنت أذكر مروري
 بين آثار المتقدمين وما عساه أن يكون قد غفلت عنه عين الدهر
 وأخطأته يد الدمار من مخلفات الحروب التي تعاقبت على تلك البلاد
 زمنا طويلا خصوصا من يوم أن فتحها المسلمون الى أن صارت
 في أيدي العثمانيين، نعم ولعل أستطيع حول مواقع الحروب الصليبية
 لأنظر تلك القلاع المتينة، والحصون المكيئة التي لا تزال تتم على فضل
 مؤسسيتها ثم الزجاجية على ما فيها، وهناك تجلي مدينة الشرق أول أمرها
 فيما لا يزال يناطح الدهر الى اليوم بل حتى آخر الزمان من آثار العمالة
 الأولى ومخلفات الرومان، وما بقي يحكي قوة الاشوريين، ويذكر بسلطان
 الفينيقين، وعظمة البيزنطيين، وتبدو حضارة الاسلام فيما جددته بعد
 ذلك غزاته الفاتحون وملوكه السالفون وهو ما به يسطع نور الحجة على
 عظم صولتهم وكبر دولتهم وهمتهم وسعة علمهم وغزارة حكمتهم
 تلك آثارنا تدل علينا ❀ فانظروا بعدنا الى الآثار

وعندئذ ما كان أدعانا أن نحمد الله الى هؤلاء القوم ونشكرهم

سعيهم الجميل بل نحمد الله الذي هدانا لهذا ووفقنا له وما كنا لنهتدى
لولا أن هدانا الله

ونعود بحميد الشاء وجزيل الشكر لسموّ الجنب العالى الخديوى
الذى ما كدت اعرض على سموه الأمر وأتمس اذنه الكريم بالسفر حتى
تفضل حفظه الله فزاد على اذنه بذلك أن أتحفى بمرافقة حضرة
الفاضل احمد بك العريس لمناسبة أن حضرته من أهل الشام وله مكانة
كبيرة من صدور الشاميين فضلاً عن كونه من أصحاب البيوت العتيقة
فى المجد والشرف وعلى علم تام من أخلاق القوم وعوائدهم ، وكذلك
تفضل الجنب العالى حفظه الله فارسل معنا حضرة محمود خيرى افندى ،
أحد ضباط الحرس الخديوى ، ياورا خاصا لنا مدة هذه السياحة ، ثم
انى قبل السفر ببضعة أيام كنت طلبت الى شركة كوك أن تبعث
الىا رسولا من قبلها لتستعلمه عن كيفية السفر وبالأخص عن كيفية
السير الى بغداد من طريق حلب ، فاخبرنا بأن الطريق من حلب الى
بغداد من الطرق التى لم تمسها يد الحضارة الى الآن وأنه بلغ من الطول
بحيث ان المسافر فيه يظل خمسة عشر يوما راجا على متون الدواب
لأنه لا مركب ثمت الا الخيل أو عربات البريد وهذا مركب صعب
شاق خصوصا اذا كان المسافر ممن لم يتعودوا السفر فى غير طريق

السكة الحديدية، وعند ذلك لم يسعني غير أن عدلت خطتي الاولى وتركت زيارة عاصمة العراق الى أن يذلل الله المصاعب ويسهل للمسافر الطريق

السفر من بورسعيد

من حسن الاتفاق أن سفرنا من ميناء بورسعيد كان يوم الجمعة ٢١ ربيع الاول سنة ١٣٢٨ فكان يوما ميمون الطلعة حسن الفأل وكان أول طوالع البر والخير لهذه الرحلة السعيدة، فبعد أن أدينا فريضة الجمعة في الجامع العباسي، وتناولنا طعام الغداء لدى سعادة محافظ المدينة توجهنا على بركة الله الى الباخرة الفرنسية وهي إحدى بواخر شركة (مساجري)، وكان يود عنا نجم غفير من رجال الحكومة وأعيان البلد ومظاهرها يتقدمهم مع حضرات العلماء سعادة المحافظ، وحينما وصلنا الى الباخرة ألفينا رئيس الشركة في انتظارنا من أجل أن يهدينا الى المخدع الذي أعد لنا هناك، ثم ما كدنا نسكن الى مجالسنا من المكان حتى استدعى الرئيس قبطان السفينة وأخذ يلقي عليه من الأوامر والتعليمات اللازمة لراحتنا في هذا السفر ما شاء الله أن يلقي، وكان القبطان يلبي رئيسه الى ذلك طائعاً مسروراً، ولم يمض علينا من وقت وصولنا الى المركب الا نصف الساعة تقريباً حتى بارحنا الميناء مودعين من جناب

المحافظ ومن كان معه بغاية الحفاوة والاكرام، ومازلنا مسافرين والبانحة تنفذ في أبحار البحر وتمزق أحشاء الماء حتى القت مراسيها في وسط ميناء بيروت حيث دخلناها في صباح يوم السبت ٢٢ ربيع الاول وهناك وقع نظرنا لأول مرة على الجهات الشامية الجميلة وحينئذ لاتسل عما كان يتجدد في صدورنا من الانشراح والسرور بمشاهدة تلك البقاع التي لها في تاريخ الاسلام ذلك المكان المعروف خصوصا عند مارأينا جبل لبنان مشرفا على بيروت وضواحيها إشراف الملك على رعيته والقائد على جنده وكأنه لم يكتف بأن يشرف على الدأماء حتى أراد أن يعانق الجوزاء ، ومما نشكر الله له ونحمده عليه أننا مالتقينا من سفرنا هذا نصبا لأن الجوّ كان في غاية الاعتدال وكان البحر بالمصادفة ساكنا هادئا يهدى إلينا في طيات ابراد النسيم تحية ندية وسلاما مزاجه من تسنيم، ولقد لمحنا أثناء وقوفنا مركبا حربية صغيرة من مدرعات الحكومة العثمانية كانت راسية في مياه الميناء الى ناحية من الشاطئ، وكان يلوح لنا من شكلها أنها من ضمن المراكب التابعة لمصلحة خفر السواحل ولما كان من العوائد المتبعة قديما في هذه البلاد أن الوافدين على بيروت من أمراء الحكومة العثمانية وغيرها، يستأجرون زوارقهم من هذه السفينة ويدفعون في أجرة الزورق

الواحد مالا يقل عن عشرة جنيهات وانما كان هذا ليمتاز الامراء عن غيرهم من عامة الناس ولكي تظهر أبعثهم وعظمتهم حيث يوجد في هذه الفلك من النظام والجدد ما ليس يوجد في غيرها مما يشبه الرسميات، وقد كنا نسمع بهذه العادة من قبل وأن أحد أمراء مصر كان قد استأجر زورقا من هذه السفينة حينما زار بعض جهات الشام، رأينا أن نتبع سبيله في ذلك ونجرب على تلك العادة اذ لا مانع منها وهي علينا سهلة يسيرة، وبينما نحن في البانحة ننتظر مجيء الزورق اذ رأينا ما يقارب الخمسة زوارق آتية تتعاقب في البحر بنظامها قاصدة الى موقفنا من الميناء وما اوشكت أن تدنونا حتى رأينا فيها جملة أناس من الموظفين بين ملكيين وعسكريين فما ارتبنا وقتئذ في أن هؤلاء قد أوفدتهم الحكومة المحلية لاستقبالنا في مرسانا، وقد كان ادرك هذه الغاية من مجيء هذا الوفد حضرة عزيزنا احمد بك العريس، فأسرع الى مقابلتهم ثم جاء بهم الينا وأخذ يقدمهم واحدا واحدا، وكان أول من عرفته منهم جناب كاتب أول أسرار الولاية وقومندان الجندرمه، ومندوب الحكومة العثمانية لدى شركة السكك الحديدية، ثم ناموس متصرف جبل لبنان ثم بعض أعيان مدينة بيروت وآخرين من أعضاء المجلس البلدي فيها، وبعد أن استقربهم المجلس وقدمت لهم لفائف

التبغ وتبودلت بيننا وبينهم عبارات التحية والسلام أخبرنا جناب كاتب أسرار الولاية بأن دولة ناظم باشا الوالى وأركان الولاية وأعيانها جاؤا لانتظارنا على المرفأ، وعندئذ لم يسعنا سوى أن نسرع فى الذهاب اليهم حتى لانشق عليهم بطول الانتظار، فنزلنا فى الزوارق بعد ما شكرنا للقبطان تيقظه فى خدمتنا واهتمامه الميزيد براحتنا مدة سفرنا فى البحر غير أننا تركنا متاعنا فى عهدة أتباعنا الذين كانوا لا يزالون فى البانحة ومعهم أحد ضباط الجندرمه الذى كان قد خصص بمساعدتهم فيما عسى أن تستدعيه حاجتهم ويقتضيه ترحالهم، وكانت المسافة من حين نزولنا من البانحة الى حين وصولنا الى الرصيف لا تزيد عن عشر دقائق مررنا فى أثناءها على السفينة الحربية التى أسلفنا أنها للحكومة العثمانية، وقد أدت لنا من أهلها مراسم التجلة وإشارات التعظيم، وعند ما حاذينا المرفأ تقدم إلينا فى أول المتقدمين صاحب الدولة ناظم باشا الوالى فبادرنا بنحية القدوم وحييناه كذلك وشكرنا له معروفه وحسن عنايته، وبعد ذلك شرع يعرّفنا بمن كانوا فى انتظارنا مع دولته من عليّة القوم ويقدمهم لنا واحدا بعد آخر ونحن نستقبل الكل بما يليق بمكانتهم من الاحترام فكان من بينهم جناب قومندان الموقع العسكرى وبعض العلماء يتقدمهم حضرة قاضى المدينة ورئيس المجلس البلدى

وبعض الرؤساء الروحانيين، ثم كان مصطفىا على الرصيف فرقة من
الجند النظامي ومعها موسيقاها، وبعد أن تصالحنا وشكرنا لحضرات
المحتفلين لطفهم وحفاوتهم ركبنا مركبة دولة الوالي الخاصة التي قدمها
الينا دولته وكان هو صاحبنا فيها وكان أمامنا اذ ذاك جنديان من
السوارى ووراءنا أربعة منهم أيضا. وخلف أولئك كانت مركبة عزيزنا
احمد بك العريس ومعه الياور محمود خيري افندى ومركبات أخرى
لبعض المستقبلين، وما زلنا نسير على هذه الهيئة الرسمية حتى وصلنا
الى فندق (أوربا)، وكان الطريق من الرصيف الى ذلك الفندق غاصا
بالأهالى من طبقات عديدة، وقد كان سرنا جدّا من هؤلاء المحتشدين
ما كنا نلاحظه أثناء السير من حفاوتهم بمقدّمنا وسرورهم الحقيقى القلبى
الذى ما كنا لثرتاب فيه وانا لنرى البشر كان يتألق سناه على وجوههم
جميعا فكنت أحييهم كثيرا نظير ما كنت اجده بين حين وآخر من
ترحيبهم وحسن وفادتهم .

(فى الفندق)

دخلنا الفندق وكان ينتظرنا عند مدخله صاحبه ومديره ومندوب
من قبل شركة كوك وهؤلاء أرشدونا أولا الى الحجرات التى خصصت
لأجلنا هناك حيث كما أرسلنا قبل قيامنا من مصر اشارة برقية الى

صاحب هذا الفندق بأعداد الغرف اللازمة لنا فيه. وبعد ذلك دخلنا
اليهو ومعنا دولة الوالي الذي كان لا يزال مرافقا لنا بجلوسنا نتبادل من
الحديث ما كان لا يتجاوز الترحيب منه بنا والشكر مناله، وما لبثنا الا ريثما
تناولنا القهوة مع دولته حتى وفد اليها ثمانية جميع الذين كانوا قد خرجوا
لمقابلتنا في الباحة وعلى رصيف الميناء فاستقبلناهم بغاية الحفاوة شاكرين
لهم تكرار الزيارة معترفين لأصغرهم قبل أكبرهم بذلك الجميل العظيم
 والمعروف الكبير، ثم مكثنا طويلا نتحدث وقد تناول حديثنا أطرافا
عامة كان منها أن سألونا عن المدة التي قدرناها لزيارة مدينتهم وما كدت
أن أخبرهم بأني سأبارحهم ثاني يوم قاصدا الى مدينة دمشق حتى
نهضوا جميعا مستغربين ذلك الخبر وأخذوا يلتمسون منا بالحاح شديد
أن نطيل اقامتنا بينهم؛ وأن أقل ما يرجونه من المكث في ضيافتهم
هو أربعة أيام، واذا وجدت أن هذه المدة كبيرة لا تتفق هي وما كنت
رسمته في خطتي من قبل أسفت كثيرا لأنني لم أستطع اجابتهم على
وفق غرضهم حيث كان الوقت ضيقا وكان السفر أمامنا طويلا، على
أنى وعدتهم بالاقامة في بلدهم يومين عند العودة ان شاء الله اجابة
للمتمسهم ومكافأة لهم على صدق محبتهم لنا وحسن شعورهم وأمياهم
نحونا، ثم استأذنا دولة الوالي في الانصراف فرافقناه الى أن ركب

العربة شاكرين له ما أبداه لنا من العناية والاهتمام. وقد انصرف على أثره حضرات الزائرين أيضا مودعين منا بمزيد الشكر والثناء. كل هذا والخدم لم يزالوا متأخرين وما ندرى وقتئذ اذا كانوا في الطريق أم ما برحوا موجودين في الباحة. وكان يهمننا حضورهم سريعا بالمتاع وفيما نحن ننتظرهم بفروغ الصبر اذ رأيناهم يصعدون على سلم الفندق وبينهم عبد أسود كان يحمل وحده صندوقا كبيرا فعجبنا من قوة ذلك العبد لأن الصندوق كان قد وصل من الثقل الى حيث لم يتصور أن يحمله واحد فقط ولذلك أعجبنا بهذا الأسود القوى اعجابا عظيما. وحينئذ مالت نفسنا أن نخاطبه ببعض كلمات ترتاح اليها نفسه ويأنس بها طبعه على عادتنا مع كل شجاع نشيط حيث إن لنا ميلا خاصا الى الشجعان الأقوياء. فخاطبناه بما دل على أميالنا نحوه على أننا كافأناه وأجزناه فوق اجره بما شرح صدره وسر خاطره .

(رد الزيارة)

وقد كنا طويلا العزم على رد بعض الزيارات في هذا اليوم لمن كانوا قد خفوا لاستقبالنا وزيارتنا مرة بعد أخرى. ورأينا أن نبادر بذلك حتى لا يفوتنا أداء ما استحقه علينا أولئك القوم تلقاء ملاقيناه من حفاوتهم وكرمهم وحتى نتفرغ لمشاهدة ما يهمننا أن نطلع عليه في تلك

المدينة اذ ليست مدة اقامتنا فيها الا ساعات لذلك أو عزنا الى الفندق أن يشعر بعزمنا هذا دولة الوالى الذى استحسننا أن نردّ زيارته فى دار الحكومة ودولة متصرف جبل لبنان الذى كان فى هذا الحين مقبياً فى مدينة بيروت وجناب قومندان العسكر الشاهانية وقد رأينا أيضاً أن نرور هذا الأخير فى مقر سلطته وانما أشعرناهم بذلك لكي يستعدّوا لمقابلتنا فى المواضع التى تخبرنا زيارتهم فيها، ثم انى طلبت الى بعض خدمى احضار الملابس المعتادة فى الزيارات الرسمية فلبستها وكنت قد استوفيت استعدادى كله لهذا الغرض فى مسافة لا تزيد عن ربع الساعة

نزلنا من الفندق وكنا نحسب أننا سنذهب على تلك المركبات العامة التى يستأجرها النزل لمعامله فى ضمن ما يلزمهم ولكنا وجدنا جملة عربات خاصة قد أرسل بها اليها بعض أعيان المدينة الكرام فركبت احداها وكان معى حضرة الفاضل احمد بك العريس وركب عربية ثانية البكباشى خيرى افندى وذلك الضابط الذى أسلفنا أنه مندوب الحكومة لخدمتنا وكانت لنا الكفاية من هاتين العربتين، ولعل السبب فى ارسال تلك العربات أنهم لم يجدوا من مركبات الايجار ما كان يوافق ركبنا فى حفلة حافلة تشخص اليها أبصار المحتشدين على طول الطريق

وعرضه، أما الموكب فكان رسميا منتظما حيث كان يسير خلفنا وأمامنا بعض الجند السوارى على الهيئة التى وصفناها حال حضورنا من الميناء حتى الفندق، وكان طريق مرورنا من وسط شوارع المدينة التى كانت غاصة من الجانين بالأهالى على اختلاف أعمارهم وتفاوت أقدارهم وكان سرورى يتجدد كلما كنت أرى أولئك الناس متشبثين بالعوائد الشرقية و متمسكين بالملابس القديمة والأزياء الفطرية، ثم كنت أشاهد كثيرا من العامة يتخذون مجالسهم من المحال العمومية كالقهاوى والخوانيت التجارية ويتعاطون من المكيفات المباحة ما جرت به عوائد معظم الناس فى جميع الجهات تقريبا، فمنهم من كان يدخن بالانابيب التى تصنع عادة من أغصان الياسمين وتتحلى باسمها غالبا بالكاوم الاصفر الجميل، وهى عين ما كان يستعمله المصريون للتدخين من عهد غير بعيد ويسمى فى متعارف أصحاب الكيوف بالشبك ومنهم من كان يدخن بالنارجيل على نحو ما يشاهد فى القهاوى فى مصر غير أن استعمال هذا النوع فى بلاد الشام أكثر منه فى البلاد المصرية وبعضهم كان يتعاطى القهوة وآخر يشرب الشاي الى غير ذلك مما يشبه أن يكون نسخة طبق الأصل من عوائد المصريين فى بلادهم، ولهذا المناسبة نذكر هنا كلمة عن الاخلاق مما تعرفناه فى تلك الرحلة لعل

القارئ يدرك منها نسبة ما بين العناصر الشرقية بعضها الى بعض على ما بينها من تباعد المواطن وشتات الاماكن وتباين الأسباب والعلل واختلاف الملل والنحل ثم نعود فنذهب في طريقنا ان شاء الله استطراد في الطريق الى بحث أخلاقي

ان ما صادفناه من عوائد أولئك الشاميين في محافلهم ومجالسهم ليس في الغالب مما يختص بالشاميين دون سواهم بل هو يكاد يكون عاما يشاهده الانسان في جهات كثيرة ويعرفه في عوائد أكثر الآدميين الشهيرة. غير أن الناقد الذي يتبين فاضل الاشياء من مفضو لها ويميز أجناسها من فصوصها ويرجع بفروعها الى أصولها عند ما يعنى بالتنسيب ويقايس بين اخلاق أهل الشام وبين اخلاق أهل مصر لا يجد من مسافة الفرق بينهما بعد ما يجده من غيرهما ولا نستغرب أن نجد أن مجموعة العوائد والأخلاق في الشام تشبه من معظم الوجوه مجموعتها في مصر اذ كان الشرق أبا القبيلين ومريهما معا، على أن علة اكتساب الأخلاق والصفات لابد أن ترجع الى اختلاط الناس وامتزاجهم بعضهم ببعض مهما اختلفت مطالع الشمس وتباينت منازع النفوس وانه كما قد تتقوى العبلات وتتوثق الروابط بين الناس وتتضاءل وتضعف على نسبة ما يكون من المعاشرة ويقع من الاختلاط قوة

وضعفا وكثرة وقلة كذلك يكون الحال في تشابه أخلاق الناس وعاداتهم سواء في ذلك ما كان من التشابه بين الآحاد والأفراد وما كان منه بين الأمم والجماعات. ومن أجل هذا نشاهد أن كثيرا من الغربيين قد أكسبهم طول العشرة لأهل الشرق خلقا غير خلقهم وعادة خلاف عاداتهم حتى تراهم فلا تكاد تفرق بينهم وبين الشرقيين الا في قليل مما قويت فيه ملكاتهم وفطرت عليه غرائزهم كما أنا نرى مثل ذلك في كثير من أبناء الشرق وما كان يكون هذا أصلا لولا شدة الاختلاط وطول المعاشرة، وإن كنا لا ننسى أيضا أن من المراجع القوية والأسباب المهمة في ذلك عشق العادة والميل الى تقليدها في الغير كما يشاهد في كثير من المقلدين الذين بالغوا في تقليد الأجني الى حد أنهم عادوا عوائدهم وكرهوا تقاليدهم على أنه كثيرا ما ينطبع في بعض الناس خلق غيره ويقوى فيه الى درجة أن يصير منه بمنزلة طبعه وسجيته وعدوى الطبائع معروفة كعدوى الأدوية سريعة الانتقال صعبة الزوال، ومن ثم كان ينبغي أن يحتاط الانسان ما أمكنه من مجالسة ذوى النفوس الخبيثة والاخلاق الرديئة وأن يتخير أصحابه وذوى مجلسه دائما من الحكماء والأدباء وأرباب النظر البعيد والرأى السديد، فانه ما أخلق صاحب هؤلاء أن يستفيد دون أن يخسر وأجدر جليس

الجهال والسفهاء أن يخسروا أن يستفيدوا، وفي هذا المعنى يقول الشاعر العربي:

مجالسة السفهاء سفاه رأى ❁ ومن عقل مجالسة الحكيم
فانك والقرين معاسواء ❁ كما قد الأديم من الأديم
ويقول آخر:

لا تصحب الكسلان في حالاته ❁ كم صالح بفساد آخر يفسد
عدوى البليد الى الجليلد سريعة ❁ والجر يوضع في الرماد فيخمد
وبالجملة فان الانسان من حيث هو انسان له من أصل فطرته
استعداد تام لقبول كل ما يدخل عليه من خير أو شر فمثله كمثل المرأة
تنطبع فيها صورة ما يعرض عليها من حسن أو قبيح، لذلك هو يستطيع
أن يتحول كيف شاء متى شاء، فالشرقي الذي نبت في صميم الشرق
وتربى على مبادئه يمكنه أن يكون وقتا ماضاهيا لأبناء الغرب حتى
كأنه رضع مع ابن الغربية من ثدى واحد، وما كنا لنسغرب أن نرى
أبناء الشام يشبهون أبناء مصر في تقاليدهم وعوائدهم ونحن ندرك ما بين
الشعبين من كثرة الاجتماع وشدة الاختلاط لأسباب ووجوه متعددة
منها تبادل التجارات الشرقية واتحاد اللغة وقرب الحوار ذلك فضلا
عن كونها من الحكومة العثمانية بمثابة عضوين من جسم واحد.

عود الى بدء

هذا وقد كنت أرى قطرات من الخيل تمر في طرق المدينة مثقلةً بالاحمال كما تسير قطرات الابل في بلاد العرب فاستأنس بهذا المنظر الشرقى وأرتاح له ارتياح الظمان عند رؤية الماء حتى اذا نحن وصلنا الى سراى الولاية التي كانت واقعة في وسط المدينة (وقد ألفيناها من الخارج كبيرة الحجم ضخمة البناء الا أنها كانت بسيطة المنظر لا يرى عليها من الوشى والزخرف ولا من جمال الزينة ما تتحلى به عادة قصور الحكام وبيوت الأمراء) أشرنا الى من كان معنا من الجند بانتظارنا لدى الباب الذى دخلنا منه حيث هناك كان القراه قول يؤدى لنا مراسم التحية والاحلال وما أوشكنا أن نصعد على سلم السراى حتى كان قد استشعر دولة الوالى بقدمونا فخرج لاستقبالنا فى الحال وسار بنا الى البهو الكبير حيث جلسنا هناك وقتنا نتحدث بعد أن قدم لنا دولة الباشا الوالى جملة من كبار الموظفين فى دائرة الحكومة وقد تناول حديثنا مع دولته عدة مواضع اذكر أنى سألته فى خلالها عما اذا كان يحسن بمثل أن يطوف على بعض جهات المدينة ليرى آثارها ومعائبها، وأن يختلط فى هذه البلاد ببعض القوم اذا هو أراد أن يجاملهم برّد زيارة أو اجابة دعوة أو ما يشبه ذلك مما قد يحصل عادة بين الضيف

والمحلى، على أنى ما قصدت من رحلتى الى بلاد سوريا سوى تبديل
الهواء والتنزه طلبا للصحة والوقوف على آثار الشام وغرائبها لكى أضم
مأعرفه منها الى ما سبق لى أن عرفته من البلاد الأخرى، وانى أخشى
إذا أنا فعلت شيئا مما ذكرته أن تنشوش الحكومة العثمانية منه أو أن
ينالنا من قبلها شئ، وقد بادرنى دولته بانى أكون مطلق السبيل
فى سياحتى وأن ليس على حرج أن أزور من الناس من أحب. وأن
أتمجول من جهات المدينة وضواحيها فيما أريد، وحينئذ تبادلنا عبارات
الشكر والثناء، أما دولة ناظم باشا فقد رأينا منه فى ذلك المجلس الصغير
رجلا رشيد السياسة سديد الرأى غاية فى الذكاء والفطنة وديع النفس
لين العريكة لا يشك محدثه فى أنه تربى فى حجر الفضيلة تربية صحيحة
واستفاد من احتكاكه بسياسة الشعوب وتقلبه الكثير فى أرقى
مناصب الحكومة خبرة واسعة وعلما غزيرا، وبالجملة فإنه من أعظم
رجال الحكومة العثمانية كفاءةً واستعداداً لإدارة شؤون البلاد وسياسة
الرعية، ثم اننا وجدنا فى تلك السراى من كثرة المستخدمين والزائرين
ما كان يدل على شدة الحركة وتواصل العمل

(زيارة متصرف جبل لبنان)

بعد ما انقضت زيارتنا لدولة الوالى توجهنا مودعين من دولته بكل

حفاوة الى دار صاحب الدولة يوسف باشا متصرف لبنان، وهي مكان
جميل المنظر قائم على مرتفع من الارض في بقعة من بيروت تعرف
بالروميلي، وهناك توجد أيضا مساكن قناصل الدول وكراسة المسيحيين
وأعيانهم ثمَّ استقبلنا عند مدخل السراي بفرقة من العساكر ومعها
موسيقاها، وقد أعجبت كثيرا بارتداء هؤلاء الجنود السلط والسراويل
وبأنهم رجال ضخام الاجسام طوال القامة تبدو عليهم علامة القوة
والشجاعة حتى لا يرتاب رأيهم في أنهم من نخبة الشجعان وصفوة
الفرسان، وكان أول من استقبلنا عند الدخول دولة المتصرف وكاتب
أسراره حيث دخلوا بنا في ردهة الاستقبال، واذ ذاك عرف الينا قرينته
على عادة الغربيين في التعارف، أما هذه السيدة المصونة فكانت ذات
جمال نادر وذكاء باهر وبين جنبها نفس مهذبة وأخلاق كريمة
وأما دولة الباشا فقد كان يزيد على اللطف والوداعة محبة وإخلاصا
لنا ولعائلتنا مما استوجب شكرى لها وامتنانى منهما، وكان دولته يود كثيرا
أن تطول اقامتنا في جبل لبنان ليكرم وفادتنا ويحسن ضيافتنا هناك
فسررت منه جدا خصوصا عند ما عرفت منه رجلا فاضلا محنكا قد
اكتسب بالتجارب الكثيرة والثقلب في خدمات الحكومة خبرة تامة
وسياسة رشيدة كما أنه قد استفاد من التربية الصحيحة والتعليم العالي

لطفًا وأدبا غير أن الظروف كانت لا تسمح لي بأكثر من إجابته إلى تناول طعام الغداء عند دولته في ظهر اليوم الثاني ثم بارحنا دارهم حيث كانت تحيينا الجنود في الوداع بمثل ما كانت حيثنا به عند الاستقبال مودعين من لدن دولة المتصرف وجميع من كان معه بغاية الحفاوة والاحترام .

(زيارة القومندان)

ومن هناك ذهبنا إلى القشلاق حيث فيه مركز جناب قومندان الموقع العسكري في حكومة بيروت، وهو بناء نفخ جميل واقع على ربوة . وحينما وصلنا إلى هذه الثكنة حيثنا الجنود عند مدخلها وأدت لنا مراسم التعظيم كالعادة وقد أخذنا مجالسنا في البهو الكبير منها وهناك رأينا ساعة كبيرة تدق للساعات العربية والفرنكية ووجدنا أيضا صورة امبراطور الالمانيين ملونة بالزيت على جرمها الطبيعي يحيط بها إطار يقرب طوله من ثلاثة أمتار وعرضه من مترين ونصف . فاستغربت جدا أن أرى في هذا المكان صورة امبراطور المانيا ولا أرى صورة ملك البلاد وسلطانها وليس موضع الغرابة من هذا إلا أن القوم مسلمون من حكومة سلطانها مسلم، وهم مع ذلك يحتفلون بصورة غير سلطانهم ويعلقونها على جدار ذلك القشلاق فلم يسعني حينئذ

غير أن أسأل جناب القومندان لماذا وجدت هنا هذه الصورة دون صورة السلطان. فقال ان جلالة الامبراطور حينما سآح سياحته في البلاد الشامية وجاء الى بيروت تخير منزله في تلك الثكنة حيث أعدله مكان خاص أقام فيه مدة وجوده في هذه المدينة وقد منح جلالته المكان هذه الصورة لتكون تذكارا له في ذلك القشلاق هذا وأقول لعل جلالة الامبراطور قد راق لعينه ضخامة المحل ونخامة شأنه فلم يشأ أن يبارحه بذاته ويفارقه بجسمه حتى يحل فيه بصورته ورسمه ثم بارحنا جناب القومندان بعد أن ودّعنا منه ومن رجاله بمثل ما قبلنا به حيث قصدنا الى الفندق وقد كان جاء ميعاد الغداء الذي ما كدنا نستريح بعده حتى وفد الينا جمهور كبير من المسافرين بقصد زيارتنا

(حديث مع بعض التلاميذ)

وكان بين أولئك الوافدين بعض طلبة المصريين في كلية الامريكان ومدرسة اليسوعيين فاستقبلناهم بما يليق بهم من الحفاوة والاكرام وقد مكثوا في مجلسنا زمنا غير قليل كان حديثنا في أثنائه يدور غالبا على نظام التدريس والتعليم في المدارس والكليات النظامية، وكنت أشجعهم على طلب العلم وأحثهم على المثابرة والجد في تحصيل الواجبات المدرسية على شريطة أن يقرنوا خطاهم في سبيل تلك الغاية

الشريفة بالنية الصحيحة والفكرة الصالحة وهنا قلت لهم: ان طلب العلم وان كان في حد ذاته هو أسنى مطالب الانسان وأسمى رغائبه في تلك الحياة بل العلم هو وحده الأساس الذي لا اعتماد للسعادة إلا عليه والأصل الذي لا استناد للفضيلة الا اليه غير أنه لما كانت منافعه متعددة وفوائده متفاوتة كانت نوايا الناس اليه مختلفة ومقاصدهم نحوه متباينة، فمن فريق يطمح الى تحصيل الأعراض الزائلة والأغراض السافلة، ومن فريق آخر يطمح في تكميل عقله وتثقيف فكره الى غير ذلك من المطالب الكثيرة، فمثل العلم كمثل الشجرة العظيمة اذ يقصد اليها جماعة من الناس وكل له منها مقصد معين فواحد يريد ظلها وآخر يتغنى أغصانها وآخر يطلب ثمرها ولقد يصدق على الجميع أنهم يطلبون الشجرة، ولكن شتان ما بين طالب الظل منها وبين طالب الثمرة، فأنا أنصح لكم معشر التلاميذ النجباء أن تصرفوا كل هممكم الآن في تحصيل المعارف والعلوم التي حبستم عليها شبابكم والتي من أجلها هجرتم أوطانكم وتركتم أهلكم وأخوانكم، وأن لا يبرح عن فكركم أبداً أن لأممكم عليكم حقوقا يجب أن تجعلوها دائماً نصب أعينكم وأن تجتهدوا ما استطعتم لأدائها عند ما تطلب منكم، وأن لا تجعلوا لزخارف الدنيا وأعراضها سلطاناً على أنفسكم فتملككم وتغلبكم على أمركم، وأن تشغلوا بالعلم

قصدا اليه نفسه وحبّاله لذاته لا لأن يكون وسيلة الى غاية منحة ولا مقدمة الى نتيجة فاسدة فانكم أفطن من أن أفتكم الى أن العلم ليس مفيدا حيثما كان بل قد يكون مضرا في بعض الأحيان وكثيرا ما يتجاوز ضرره صاحبه الى غيره، وأتم أيضا فوق أن تنبهوا الى ما كان من علماء الغرب الذين ظهرت فوائد عليهم الغزيرة وثمراته الكثيرة في الاقتراحات العديدة والاختراعات المفيدة التي نحن الآن متمتعون بها في كثير من أمور حياتنا الفردية والاجتماعية، مما جعل هؤلاء العلماء تفتخر بهم بلادهم وتشتهر بأسمائهم جهاتهم حتى استحقوا أن يحمداوا ويشكروا من كل من عرف قيمة الحياة وأدرك سر الاستعمار، ثم قات لهم انه يسوءني كثيرا أن أرى أناسا يضيعون زهرة شبابهم في التعليم على قصد أن يكونوا يوما ما مستخدمين في الحكومة، أو من أهل الثروة واليسار في البلاد، أو ممن يطمعون في الامتيازات العرضية كالرتب والنياشين والألقاب، نعم يسوءني ذلك لأنني أجد القسم الاول لم يستعمل فكره ومواهبه الا فيما تقتضيه منه شؤون الحكومة فتتضاءل مداركه وتتعطل مواهبه ثم لا يلبث أن تنحصر معلوماته الواسعة في دائرة أضيق من صدر الأحق، وأما القسم الثاني والثالث فقد أرادوا غاية دون ما كان ينبغي أن يطلب بالعلم ويذهب اليه من طريقه اذ أن الرتبة

مثلا اذا لم تكن عنوان ما في نفس صاحبها وشعارا للتربية النافعة والتعليم الصحيح، فلا قيمة لها حتى ولا بين قومه وعشيرته، أما الذي يضمن للرجل عزه في كل مكان ويستوجب احترامه من كل انسان ويجعله دائما في الصف الاول، ومن العز في المحل الأرفع والمكان الذي لا يتحول فانما هو العلم الصحيح، أقول الصحيح لأن كثيرا من العلماء لم ينفعهم علمهم في تحصيل ما قد أرادوه من سبيله فاتخذوا منه مطية الى الشقاء وسبيلا الى الضلال، ومن أمثال هؤلاء تستنبط الحيل وتدبر المكائد التي بها تفشو المضار وتكثر المفسد، وأنه لا غرابة أن يكون العلم سببا من أسباب الشقاء وهو بعينه أصل السعادة وطريقها مادامت تختلف عليه نوايا العاملين وتتفاوت في طلبه مقاصد العاملين، وإنى لأحدثكم بالذم من عيش العالم العاشق للعلم فلقد تمر عليه الحوادث والعاديات فيطلع عليها وهي لا تنال منه الا ريثما تنال الصور المتحركة والخيالات العادية عن الحقائق، فمثل هذا يعيش ما قدر له أن يعيشه في هذه الدنيا مرتاح القلب مطمئن النفس لا يفرح بشئ يأتيه كما لا يأسف على شئ يفوته، لأن ثروته كلها في العلم فهو به في غناء عن كل ماعداه وهكذا كنت أبث نصائحي للتلاميذ كلما دخلت مدرسة من مدارس الشام وقد كنت ألفتهم الى ما كان للشرق في التاريخ

الأول من المجد والعز وسعة نطاق المعارف وكثرة الصنائع والحرف
 مبينا لهم أن بناء الشرق الشاغل وشرفه الباذخ لم يكن قائما الا على أساطين
 الحكمة وعماد الفضيلة فاذا كنا نحس الآن بنقص عظيم في علومنا الحيوية
 وحاجتنا الضرورية فانما ذلك لأن الشرق ما زال لم يعوض ما كان
 فقده من علمائه وحكمائه الذين أخلصوا في خدمته وتفانوا في العمل على
 سعادته الى أن قلت لهم إذا يجب عليكم بوصف أنكم رجال المستقبل
 أن تستصحبوا دائما في عملكم نية أن تكونوا أول العاملين على رقي
 البلاد واعلاء شأنها وأن تستدوا منها هذا الفراغ العظيم وتكملوا فيها
 ذلك النقص الكبير وما ذلك على هممكم ونشاطكم بعزير، هذا خلاصة
 ما دار بيننا وبين الطلبة من الحديث، وقد سرني منهم كثيرا أني كنت
 أجدهم مصغين غاية الاصغاء لما أقول وان نصائحى نالت من
 نفوسهم غاية الاستحسان والقبول، وقد زادنى إعجابا بهذه النشأة الطيبة
 ما أظهره لنا من المبالغة في حب عزيزهم أمير البلاد وتعلقهم الشديد
 بعرشه السامي واخلاصهم الكبير لذاته الكريمة كما هو الواجب على كل
 شعب لأمره وحاكمه نعم وكما هو الواجب الذي ينبغى أن تتربى عليه
 النفوس من صغرها حتى ينتقش فيها ذلك فلا تحته الدسائس ولا تحته
 الوسوس، ثم انهم عند ما هموا بالانصراف قدّموا اليّنا قانون جمعيتهم

معنونا بقانون جمعية التلاميذ المصريين في طية الأمريكان ومصدرا
 بصورة سمو الجناح العالى الخديوى، وسند كران شاء الله هذا القانون
 بنصه فى خاتمة الرحلة ليعرف منه حضرات القراء أسماء أعضاء الجمعية
 وما اشتمل عليه من المواد وقد قابلت منهم ذلك الاهداء الجميل بالشاء
 العاطر والشكر الجزيل، ودعوت لهم الله أن يكمل مشروعهم بالنجاح
 ويتوج عملهم بالفلاح، وبعد ذلك خرجوا من عندنا جاذلين مسرورين
 على أن سرورنا أذ رأينا أديهم ونشاطهم كان فى وزن فرحهم أو هو
 يزيد كيف لا، وإن أقل ما كان يقتضى أن أسرحينشد أنى قابلت
 شبيهة بلادى تجاهد فى سبيل العلم مجاهدة الابطال رانها لقد تركت
 وراءها من أجل استحصاله كل مرتخص وغال، ورجوت أن يكون ما
 تظاهر به أولئك الطلبة النبهاء من محبة مولاهم ومحبتنا غير مشوبة
 بشائبة النفاق والرياء، وأن يكون ليس من نوع المحبة العارضة بسبب
 البعد والاغتراب ولا من قبيل ذلك النسب الذى انحله امرؤ القيس
 فى قوله وقد أناخ بعسيب

أجارتنا ان الخطوب تنوب❀ وانى مقيم ما أقام عسيب
 أجارتنا إنا مقيات هاهنا❀ وكل غريب للغريب نسيب

(زيارة المدرسة الحربية)

توجهنا في شباب يوم الاحد ٢٣ ربيع الاول سنة ١٣٢٨ الى زيارة المدرسة العسكرية الابتدائية وكان موقعها من المدينة في قسم الباشورة وهي تحتوى على سبعين تلميذا تقريبا يبلغ سن الواحد منهم من سبع سنين الى اربع عشرة سنة، وقد طفت على كل فصول هذه المدرسة ودوائرها وكان المعلمون يختبرون التلاميذ أمامنا فيما يتدارسونه من العلوم الجغرافية والهندسية والتاريخية وغيرها جريا على العادة فسرنا من نجابة التلاميذ واستحضارهم ثم تعهدنا غرف النوم ومواضع الأكل والطبخ أيضا فسرنا اختيارها ونظافتها سرورا بليغا ولذلك أثنت حميد الثناء على القائمين بشؤون هذه المدرسة عموما خصوصا الاساتذة الذين ظهر لى حسن عنايتهم بتربية الطلبة وتعليمهم مما كنت أراه من اجابتهم السارة على أسئلة أولئك المعلمين، غير أنى لاحظت شيئا واحدا هناك وهو عدم تمرين التلاميذ على حمل السلاح وتعويدهم عليه فى صغرهم وشباب عمرهم مع أن المدرسة حربية وكان يجب أن يوجد ذلك فيها بل أن يكون من أول دروسها وأهم حصصها وقد سألتهم عن سبب هذا النقص المحسوس، فأجابونى بما كان لا يلاقى اعتراضى عليهم قالوا إن المدرسة ابتدائية وأن التلاميذ أحداث صغار،

وقلت ان المدارس الحربية الإعدادية في الجهات الأخرى تعطى أبناءها السلاح في ضمن ما يتعاطونه وهم صغار لينشؤا على حبه ويتمرنوا على حمله ولكي تتربى فيهم من حال الصغر ملكة الشجاعة وتغرز في سجاياهم القوة والجرأة ومن ذلك يستشعر التلميذ من نفسه بالشهامة والاقدام نعم لانكر أن الجيش العثماني من أقوى الجيوش وأشجعهم قلبا وأشدهم بأسا اشتهر ذلك عن هذا الجيش حتى إنه لا يوجد على ظهر المسكونة أحد يجهله أو يرتاب فيه، غير أن الواجب انما هو البلوغ بالإنسان الى الحد الأكمل من كل فضيلة، وبذل ما ان يقال الجندی العثماني شجاع والجندی الفلاني أشجع منه يقال على العكس من ذلك، وما العمل لتحصيل هذا بالامر المستحيل ولا هو بالصعب أيضا .

(المدرسة الملكية)

ومن هناك ذهبنا الى المدرسة الملكية حيث كانت الساعة ١١ افرنجية فاستقبلنا على مدخلها جناب ناظر المدرسة وأساتذتها وبعض متخرجيها وفريق من علية القوم، واذ ذاك صدحت الموسيقى المدرسية بالسلام والنشيد الوطني أما نحن فدخلنا ردهة الاستقبال بينما كانت التلاميذ يحيوننا ويهتفون لنا بالدعاء. وما كدنا نستقر في مجالسنا حتى قام أحد التلاميذ ورحب بنا بخطاب تركي ثم نهض بعده الاستاذ يوسف

افندى حرفوش فتكلم بالنيابة عن الأساتذة والمعلمين بمآلم يخرج عن
تهنئتنا بالسلامة عقب السفر والترحيب بزيارتنا لتلك المدرسة غير أن
خطابه كان باللغة الفرنسية ثم أعقبه على الفور جناب بشير افندى
قصار وألقى مقالة بليغة استهلها بقصيدة غراء قال في مطلعها :
ته فخارا يا معهد العلم واسمو ❀ بأ مير الأخلاق خير الوفود
بأ مير الصفات وابن أمير ❀ بكريم الآباء بعد الحدود
ومنها ،

قد أتى معهدا يزور بنيه ❀ فتبدوا منه بعزم جديد
معهدا قدمضت عليه سنين ❀ سائرا في سبيله المحمود
معهدا أشربت قلوب بنيه ❀ أن تنادى في العلم هل من مزيد
ومنها وهو ختامها

ان يوما قد زرت ذا الربيع فيه ❀ هو لاشك عندنا خير عيد
وقد تكلم في خطابه عن المدرسة ومسيرها مدة ستة عشر عاما منذ
افتتاحها وهي متبعة سُنَّة النمو والارتقاء التدريجي، وما أوشك أن
ينتهي من ذلك حتى نهض أحد التلاميذ بالنيابة عن الجمعية العلمية
فأهل بنا ورحب وذكّر خطة الجمعية وبين غاية ما تسعى اليه ثم قدم
لنا رسمها تذكارا لزيارتنا لها وحينئذ قمنا فصالحنا حضرات الخطباء وشكرنا

لجناب الدكتور صاحب القصيدة معروفة وأدبه وحسن خطابه
وقلت لهم لست أشكركم لمدحك اياي ولكن لذلك الفكر الصائب الذي
أبديته من وجوب تنشيط المعاهد العلمية ثم أخذنا ندور على دوائر
المدرسة ونتعهد فصولها وقد زرنا القسم الاستعدادي واختبرنا بعض
صغار التلاميذ فيه فسررنا جدا من نجاحهم واستعدادهم ثم عدنا ثانية
الى قاعة الاستقبال حيث كانوا ينتظروننا بالمرطبات وهنا لك أثينا على
رقى هذا المعهد العلمى وقلنا لرئيس المدرسة الاستاذ الشيخ احمد
افندى عباس: ان الواجب الاول فى التعليم هو الاعتناء بتربية
الأخلاق الكريمة فى نفوس التلاميذ وحضهم دائما على الاشتغال
بالعلم للعلم نفسه حتى لا يتجهوا فى طريق التعليم الى غاية أخرى. وقد
أجابنا حضرته بما معناه ان هذه الرغبة الحميدة هى عين الغاية التى
تسعى اليها المدرسة منذ نشأتها ثم بارحناهم شاكرين لهم ما لاقيناه
من عنايتهم ومعروفهم

(نزهة فى الضواحي)

ذهبنا ومعنا عزيزنا الفاضل احمد بك العريس لنقضى وقت العصر
فى التنزه ببعض الجهات التى كالم نشاهدها فقررنا بعربتنا فى ضواحي
المدينة وكأثناء السير نرى من مناظر الطبيعة مالا نقدر حسنه خصوصا

عند الرجوع فان سبيلنا اذ ذاك كان من الطريق القديم الموصل ما بين بيروت ودمشق، وقد صادفنا ونحن سائرون غابة كبيرة من شجر الصنوبر كان قد أمر بغرسها جدنا المرحوم ابراهيم باشا الا كبر وسبب ذلك على ما علمناه من حديث القوم هنالك أنه قبل أن توجد هذه الغابة كان مرض الحمى متفشيا في المدينة يفتك بأهلها فتكا ذريعا فتوجهت هممة المرحوم ابراهيم باشا الى مطاردة هذا الداء الخبيث بذلك الغرس الجميل الذي من خواصه تطهير الهواء وامتصاص المواد العفنة التي كان يتسبب عنها هذا الداء وقد تم له بسبب ذلك ما أراد، وقد وجدنا في طول هذه الغابة وعرضها طرقا منتظمة جميلة المنظر يقال ان الذي أنشأها هو المرحوم اسماعيل بك كمال (الذي اشتغل كثيرا في مسألة استقلال الالبانيين) حينما كان واليا في ولاية بيروت، وقد مررنا أيضا بجملة حدائق بهيجة كان أكثر غرسها من شجر البرتقال والليمون والتوت، وفي أثناء الطريق وجدنا مقابر عدة بعضها لليهود وبعضها للمسيحيين حتى اذا كنا على مقربة من حديقة افرنكو باشا رأينا قبر المرحوم الشيخ احمد فارس ذلك العالم المشهور الذي يقال انه اعتنق الدين الاسلامي أخيرا ومات عليه بعد أن اعتنق جملة أديان وتقلب على عدة مذاهب، وهو صاحب مجلة الجوائب المعروفة وله

غيرها كثير من التأليف النافعة منها الجاسوس على القاموس في فن اللغة وكتاب الساق على الساق فيما هو الفاريان وهو كتاب جميل ضخيم في علم الادب، ثم قصدنا الى الفندق من داخل البلد حيث كنا في وقت الغروب وعلى ذلك انقضت سحابة اليوم وفي صبيحة اليوم الثاني جاء الينا جماعة من أهل بيروت ومعهم خيل اختاروها بقصد أن يطلعونا عليها على أمل أن نبتاعها منهم حيث كانوا قد سمعوا من قبل بميلى الى اقتناء جياد الخيل وقد كنت أود أن أجد منها ما يعجبني فأشترته ولكنها مع مزيد الاسف كانت عادية لا تمتاز عن غيرها بحال فضلا عن كونها مجهولة الاصل ولذلك لم يرق في نظري شئ منها على خلاف ما كنت أحسب .

وكان على بعض زيارات لعلية القوم في المدينة فأرسلت أحد الحاشية وأرسلت معه جملة من بطاقات الزيارة لينوب عني في ذلك اذ كان لا يمكنني أن أؤدي هذا الواجب، وقد حضر لزيارتنا في الفندق حين ذاك عدد جم من أهل الشام وكان من بينهم جملة من حضرات الرؤساء الروحانيين ثم حضر أيضا أحد أصحابنا (البلوني المسكوفي كونت برانتيسبيسكى) أحد عظماء بلاد روسيا وأغنيائها وأشهر غواة الخيل العربية فيها وكان قد جاء الى الاقطار الشامية هذه المرة لغرضين أحدهما

زيارة بيت المقدس والثاني البحث عن الخيل العربية الاصيله، وقد
أخبرني جنابه في ضمن حديثه أنه لم يجد من بين الخيل الشاميه والعربيّه
التي اطلع عليها في تلك السياحه ما كان يستوجب العناية أو يستحق
الشراء، ولذلك عدل عن الغرض الاخير الذي وفقت الصدفة بيننا
وبينه فيه، وقد كنت مسرورا من حديث هذا الشيخ الكبير ومجلسه
وليست هذه أول مرة اجتمعت فيها بجنابه لاني كنت عرفته قبل
هذه الزيارة في مصر وآنست منه نفسا عالية وطبعاً رقيقاً وكلاماً وأدباً
وما أجدر الشيخ الهرم أن يكون متحلياً بالآداب ومتجملاً بالفضائل
وان صاحبنا هذا كان قد طالع الثمانين وولاهها ذنباً ثم انه قضى معظم
هذا العمر الطويل في سياحه الممالك والبلاد طولا وعرضا فاستفاد
معرفة كثير من الامراء والعظماء كما استفاد خبرة واسعة بمعرفة الاخلاق
والعوائد القومية المختلفة وكان قد زار مصر مع والده على عهد المرحوم
محمد علي باشا الكبير واصطادا تمساحاً من بركة الازبكية قبل أن يصل
اليها بالطبع هذا العمار الباهر ثم هو لا يزال يتردد على القاهرة في كل
شتاء، واننا نشكر الصدفة الجميلة التي جمعتنا بهذا الشيخ الجليل
في فندق من فنادق الشام على غير موعد

(غريسة في بيروت)

وانه بينما كنت أنقب عن الخيل الاصيله وأبحث عنها في المدينة وغيرها لأشتري ما يعجبني منها اذ أخبرت أن شابا انجليزى التبعة يدعى أنه يعرف البلاد ويتعشق الخيل ويقتنيها يريد أن يقابلنى فأذنت له وكانت هيئته وحركاته فى سلامه وكلامه تدل على أنه رجل عاقل مهذب ظريف ثم اتى افتتحت حديثى معه بشأن الخيل التى توجد فى جهات الضواحي وسألته أى الجهات التى تعرف فيها وجود الخيل الكريمة وأى الناس أعظم شهرة باقتنائها من العرب وغيرهم؟ فقال ان لى أصحابا كثيرين من دروز حوران وعرب رولة الذين يقطنون بالقرب من مدينة دمشق وهؤلاء أعرف الناس بالخيل وأبعدهم صيتا فى حيازتها ثم دار ببنى وبينه من الكلام والبحث ما عرفت منه أن هذا الشاب لم حقيقة بموضوعنا وله معرفة تامة بحسن الخيل وقبيحها وجيدها ورديتها. فقلت فى نفسى الآن وقعت على خير عارف وسأبلغ ان شاء الله بواسطة هذا الشاب النشيط ماربى من خيل الشام ثم عدنا الى الحديث مستطردين الى ذكر بعض أمور عامة تتناول الموضوع الذى جاءنا بصدده وغيره فكان منها أنه غزا فى وقائع كثيرة وأنه مرة كان يكون مع الدروز وأخرى يكون فى صف العرب وأنه يجيد النطق

باللغة العربية ويحسنها حتى كأنها لغته الى غير ذلك ثم انى سألته عن غايته من مجيئه الينا ومقابلتنا وأنه لم يسبق لى به معرفة ولا كلام فقال بكل رزانة وأدب: انه لم يبعثنى على التشرف بمقابلة دولتكم سوى أن أتشرف بخدمتكم فيما عسى أن ترغبوا شراءه من خيل تلك البلاد أو غيرها. وأن لدىّ خيلا لبعض الناس أريد أن أطلع دولتكم عليها لعلمكم تجدون منها ما يطابق غرضكم ويوافق رغبتكم. فقلت له: وأين توجد هذه الخيل؟ واننا بحثنا كثيرا فلم نجد ما كان يروق لنا شراؤه فقال: انى أعرف من تلك الخيل حصانين فى حوران، فقلت: كان بوذى أن أراهما ولكن مع الاسف ليس عندى الآن من الوقت مايسع أن انتظر ريثما تجيء الخيل من جهة بعيدة عن بيروت أو ضواحيها لاني عازم على زيارة دمشق ولم يبق الا ساعات قليلة، فقال: اذا كان لا بد من السفر فان أماننا حصانين آخرين فى بعض الجهات القريبة من دمشق ومن البهل جدا أن أسافر واستحضرهما لدولتكم عند ما تشرفون هذه المدينة. وان هذين الحصانين لا يقلان حسنا وشهرة عن الحصانين الاولين، ولما لم يكن ثمت مانع من ذلك تفاوضنا معه فيما ندفعه أجرا له على سعيه وتعبه واتهينا على أن يتقاضى منا جنيتها واحدا فى كل يوم حيث يكون منه أيضا أكله وشربه ومصاريف سياحته

سفرا واقامة حتى تتم مأموريته التي أنطناه بها وقد كان علم أن سفرنا من بيروت سيكون في صباح اليوم الثاني فأراد أن يزج بنفسه في حاشيتنا ويسافر معنا ومن أجل ذلك سألنا هل ترون من اللازم أن أستبدل ملابسي بزيّ عربيّ أو لبوس عاديّ لكي أحظى بشرف السفر في معية دولتكم في القطر الذي تسافرون فيه ؟ فأجبت به بأن سفرنا في هذه السّياحة ربما لا يسمح لنا بمرافقة عدد أكثر ممن سيسافرون معنا وربما لاتبّح الحكومة العثمانية أن ترى في ضمن رفاقنا أحد رجال الانجليز على أننا لا نرى هناك من ضرورة لأن تكون في هذا السفر من جملة حاشيتنا وأنت تعرف أن القطار غير خاص بنا وأن في عرباته الكثيرة سعة لك ولغيرك من المسافرين فانزل منه في أيّ عربة تريد ثم اذا جئت دمشق فانزل منها أيضا في أيّ فندق تحب وتختار وعلى ذلك انصرف الرجل ونحن لا نعرف من أمره سوى أنه عاقل نبيه ووادع مؤدب وسنذكر بقية قصته في فندق دمشق ان شاء الله

(الى متصرف لبنان)

ما كادت تتوسّط الغزاة حتى كما أخذنا زينتنا وأعدّنا عدّتنا للذهاب الى سراي صاحب الدولة يوسف باشا فرانكو متصرف لبنان السابع، فركبنا من باب الفندق ومعنا رفاقنا ماوسعنا من المركبات حيث

قصدنا توًّا الى السَّراي وكان في انتظارنا عند بابها من العسكر والموسيقى في هذه المرة ما كان لا يقلُّ عنه عددا ونظاما في المرة الاولى، وكان أول من استقبلنا حال الدخول دولة المتصرف فرادنا الى ردهة الاستقبال التي دخلناها وكانت وقتئذ حافلة بحضرات المدعوين من كبار القوم وكراة المسيحيين وأعيانهم وقد وجدنا فيما بين أظهرهم بعض أسرة سرسق وأسرة بسترس وهاتان الاسرتان من أشهر الأسر في بلاد الشام وهما من طائفة الروم الارتدكس وأصلهما غالبا من لبنان ويسكان الآن في مدينة بيروت ولهما هناك شهرة كبيرة وصيت ذائع حتى يقال انهما أعظم أهل بيروت ثراء وأكثرهم مالا ثم كان من المدعوين أيضا حضرة الفاضل سليم بك ثابت ولعلَّ القارئ يلاحظ على أني أفردت هذا الشخص بالذكر وعينته بالاسم دون ماسواه من المحتفلين وما أدراه أن سليم بك ثابت هذا جدير أن يبلغ من أنفسنا تلك المكانة وأن يفسح له في رحلتنا بقدر ما يسع ذكر مروءته وكرم أخلاقه وحسن تربيته وما نريد من ذلك الا أن يعرف القراء له ما عرفناه من الكرم والمعروف، أما هو فانه سليل أسرة مسيحية محترمة في تلك البلاد وما كان يلفتنا اليه ويجعله متآ في تلك المنزلة أنه ثريّ وجيه ولا أنه عزيز في قومه وان الناس في هذا الباب كثيرون

مزدحمون وانما رأيت في الرجل همّة عالية ونشاطا كبيرا وبديهة حاضرة لا يملّ مجلسه ولا تسأم معاشرته لانه جميل المحاضرة ظريف المسامرة يهتم كثيرا براحة المسافرين في بلده ويسعى الى خدمتهم ما استطاع كأن الشام بيته والمسافرين اليها ضيوفه مما دلنا على أن فيه غيرة على بلده وحرصا غريبا على أن لا يقع نظر السائح منها الا على ما يحب ويستحسن وقد عجبنا جدا من أنه قادر على نفسه غالب لها على ارادتها اذ لم يمنعه تحيزه لدينه وتعصبه لمذهبه أن يقسط بين الناس في لطفه ومودته يستوى عنده في ذلك المسيحي والمسلم واليهودي وغيرهم من أيّ ملة أو نحلة ثم هو لا يألو جهدا في مساعدة الانسان متى قصده وطلب معونته، وانه بلحدير بمن تجتمع له هذه الخلال الطيبة والشائكل المحموده أن ينال من قلوب الناس محبة تامة ومن ألسنتهم ثناء جميلا ولذلك قلما ينعقد مجلس سرور أو تتألف حفلة أنس أو تتسق جمعية مفيدة حتى يكون من أهم مروجيها وأصحاب القدح المعلى فيها، وبعد ما جلسنا برهة نتحدث مع هؤلاء المدعوين الكرام دعينا الى غرفة الطعام وهناك تعاطينا من المآكل الشهية اللذيذة ما حمدنا الله على اساعته وقد كانت الموسيقى في هذه الأثناء تصدح بألحانها المطربة ثم عدنا الى قاعة الاستقبال فشربنا القهوة وبعد ذلك شكرنا لدولة المتصرف وجناب

قرينته المصونة ومن كان معهما في هذه الحفلة الشائقة ما أظهروه من العناية في اكرامنا والاحتياط بجميع الوسائل لراحتنا مما جعلنا لانسى لهم جميعا هذا اللطف والمعروف أبدا. وقد خرجنا من عندهم مودعين بغاية الحفاوة والاحترام

(زيارة المجلس البلدى)

ومن هنا لك ذهبنا حيث كانت الساعة أربعة بعد الظهر قاصدين الى رأس النبا اجابة لدعوة رئيسى البلدية فى مدينة بيروت وقد كانا أعدائنا مأدبة شاي جميلة فى حديقة الحرية وهى فى باب سراي الحكومة وكانت تسمى بالحديقة الحميدية منذ عشرين سنة ثم هى حديقة عامة واقعة فى وسط المدينة وتشبه حديقة الازبكية من حيث يقصد الناس اليها للترؤض والفسحة وقد زحرفها المجلس وزينها من أجل الاحتفال بنا زينة بديعة وأقام فى وسطها كشكا فسيحا لجلوس المدعوين وسرادقا جميلا جعل فيه خوانا عليه من ألوان الطعام وأنواع الشراب مالد وطاب، وحينما وصلنا الى هذه الحديقة وجدنا جما غفيرا من أهالى البلد مجتمعين حول الروض من الخارج وفى طرقاته من الداخل وما كاد يقع علينا نظرهم حتى طفقوا عن بكرة أبيهم يحيوننا تحية فائقة ويصفقون لقدومنا تصفيقا، وقد كان فى أول المستقبلين

لنا حضرتا رئيسى البلدية وذهبا بنا توا الى ذلك البهوين تصدية
المحتشدين وهتافهم الشديد وقد وجدنا فى انتظارنا هناك عددا كبيرا
من رجال الحكومة وثرأة المدينة وأعيانها يتقدم الجميع صاحباً الدولة
ناظم باشا والى ويوسف باشا المتصرف فحيناهم جميعاً وما لبثنا نجاس
الا قليلاً ثم قام جناب الرئيس الاول الحاج منيح افندى رمضان
وارتجل فى وسط هذا المجتمع الحافل خطابة كانت على طولها غاية
فى الرقة والرشاقة افتتحها بعبارات الشكر لنا والثناء علينا ثم انتقل الى
شرح السرور البليغ الذى كان يخامر أفئدة أهل الشام وعموما وأهل
بيروت خصوصاً من زيارتنا لبلادهم ثم أخذ يطيل ماشاء الله فى وصف
الاعجاب بوجود أمير من أمراء الشرق ومن ذرية المرحوم محمد على
باشا الكبير فى تلك البلاد التى طالما عطشت الى وجوده واشتأقت
للتمتع بطلمعه بينما تكررت فيها زيارة الاجانب من الأمراء الغربيين
وغيرهم وشرع بعد ذلك يذكر مآثر المغفور له مؤسس الاسرة الخديوية
وأصل الدوحة العلوية قائلاً ان التاريخ لم يسجل عليه محاربته للدولة
العلية حتى ملأ صفحاته البيضاء بذكر ما كان له رحمة الله عليه من
الاصلاحات الكبيرة والخيرات الكثيرة فى جميع البلاد التى تمتعت
بعده وسعدت بحكمه أعواماً طوالاً. وأشار فى أثناء ذلك الى تلك

الغابة التي أسلفنا أنها عُرسَت بأمر المرحوم ابراهيم باشا الكبير وهنا
أطنب اطنابا في بيان ماهذه الغابة الصنوبرية من الفوائد الجمّة والمزايا
المهمة مفيضا في شرح منافعها المحسوسة من الوجهة الصحية وكيف
أنّها كانت حجازا مكينا وحصنا حصينا بين سكّان المدينة وبين ذلك
الأسد المغتال والمرض القتّال الذي طالما كانت تكثر زيارته وتثقل
ضيافته فيعبث بالمهج العالية والارواح الغالية وهكذا حتى اذا انتهى
ذلك الخطيب المصقع من خطابه البليغة أخذ جميع الحاضرين
يصفقون تصفيقا حادا اظهارا لمكان الخطبة من نفوسهم بينما كانت
الموسيقى تعزف بألحانها الشجية ونغماتها المطربة فكان لها مع تصفيق
القوم وضوضائهم مجموعة رنات اخترق تأثيرها الشديد أعماق القلوب
ثم قام حضرة الفاضل الشيخ احمد طباره وألقى كذلك خطبة أخذت
بجماع القلوب وكان قد ابتدأ الكلام فيها باطراء الاسرة الخديوية
وبيان مآثرهم في البلاد المصرية والشامية ثم أخذ يذكر روابط الوداد
وعلائق الاتحاد بين الشعبين المصري والشامي وأفاض في بيان الأسباب
الكثيرة لاتفاقهما وتآخيهما التي ذكر منها أنهما متحدان في اللغة
الاصلية وأنهما متجاوران وأن تجارة الشام في مصر من أكثر التجارات
وأعظمها رواجا وان كثيرا من أبناء الشام هاجروا الى مصر واستفادوا

منها ماديًا وأدبياً فوائد جمة فمنهم من اشتغل بالتجارة ومنهم من استخدم في وظائف الحكومة ومصالحها وغير الحكومة أيضاً مما لا يسعنا معه سوى الاعتراف بفضل مصر على الشاميين حيث رحبت بهم وفتحت أبوابها في وجوههم فما زالوا يمرحون في بحبوحة كرمها ونعمتها إلى غير ذلك مما كان صريحاً في أقرارهم بمعروف مصر وفضلها عليهم وعند ما انتهى ذلك الخطيب الفاضل هممت بأن أقوم بينهم خطيباً وأن أبدأ خطبتي لهم بشكرهم على ما صادفته من سماحة نفوسهم وكرم أخلاقهم ثم أئين مقدار ما انطوت عليه قلوب المصريين الكرماء من محبة العرب والشاميين غير أنني لاحظت أن الظروف وقتئذ كانت لا تسمح لي أن أقوم فأقول شيئاً من هذا في حفلة كبيرة مجموع لها الناس مخافة أن الحكومة العثمانية الحديدية ربما تتشوش من الخطبة أو تتأولها بما لعله يخالف غرض الخطيب ويتعد عن قصده ومراميه، وبعد ذلك قمنا متوجهين نحو السراشق لتناول ما كان أعد لنا من الشاي وغيره ثم قصدنا إلى الفندق وكان طريق مرورنا من وسط الحديقة حتى الباب غاصاً بالاهالي وعند ذلك ودعنا من حضرتي الرئيسين ومن كان معهما بمثل ما استقبلنا به من الاكرام والحنفاة فشكرناهم وركبنا العربات حيث وصلنا إلى فندقنا قبل الغروب، واذ ذاك حضر لزيارتنا بعض أعيان

المدينة وبقارها وكان من بينهم المفتش العثماني في شركة السكة الحديدية الفرنسية فقابلناهم جميعا شاكرين لهم حفاواتهم الكبيرة وزياراتهم الكثيرة وقد بلغني في هذا المجلس أن الشركة أعدت لسفرتنا صالونا خاصا بقطر الصباح حيث كما اعتزمنا مع مشيئة الله تعالى على الرحلة في ذلك القطر الى مدينة دمشق .

(كلمة عن بيروت)

وهنا رأيت أنه لا بد لي قبل مبارحتي لهذا البلد من ذكر كلمة مختصرة عنها ملحقة بما تقدم من كلامنا فيها على الرغم من أن هذه المدينة من المراسى الشهيرة والمدن التجارية الكبيرة التي قد عني بشأنها قديما وحديثا أرباب المحابر من الكتاب وعلماء التاريخ فأفاضوا في الوصف وأطنبوا في بيان ما يتعلق بها من الجهات المهمة والأغراض المفيدة. لأنني انما أريد أن أذكر في رحلتي هذه جميع ما كنت أشاهده بعيني وأقف عليه بنفسى ولعلني ان أتيت في خلال ذلك من الآراء والملاحظات على حياة القوم الاجتماعية وبعض الأمور الداخلية بما عساه أن يمر على بعض الناس فيغمضوا فيه اغماضا أو يتركوه وراءهم ظهريا دون أن يعيروه ما يستحقه من الالتفات والعناية أكون قد وافيت القراء بما لعلهم يجهلونه في تلك البلاد

وأرشدتهم ثمت الى ماربما تقصر عنده السنة المحذثين أو تجف
دونه أقلام الكاتين، على أنه لا يذهب على عاقل أن تاريخ البلاد من
جهة سياستها وعمارتها وحالة سكانها المعاشية والتجارية مما لا يلزم
بالضرورة حالة واحدة أو يقف عند حد محدود مادامت تتعاقب عليها
حوادث الأيام والليال ويلحقها كسائر العالم وصف التغير من حال
الى حال .

بيروت مدينة قديمة التاريخ من أشهر وأهم مدن سوريا التجارية
واقعة على شاطئ بحر الروم وهى أكبر ميناء فى بلاد الشام ومركزها
الطبيعى غاية فى الجمال وعدد سكانها يبلغ الآن نحو ١٥٠ ألف نسمة
أغلبهم من الطوائف المسيحية وعدد العسكر فيها يقرب من ١١٠٠
جندى منهم ٨٠٠ من البيادة والطوبجية ونحو ٣٠٠ من السوارى
وأكثر مناظرها الطبيعية كانت فى باب الجمال مما قل أن يتناوله
النظر فى غيرها من البلاد الأخرى .

(وصف منظر)

نعم وهل رأى الوافدون على بيروت فيما كانوا شاهدوه أحسن
وأشهى وأخصب وأينع وأجمل وأبدع من منظر هناك واقع بين
البحر المتوسط وجبل لبنان قد امتلأ من كل الجهات بالزروع المزهرة

والأشجار المثمرة تراه وقد اتشح على طوله الطويل وعرضه الجميل
 بوشاح بهيّ ورداء سندس يملأ عين مبصره بهجة ورواء وحسنا
 وبهاء كما يملأ قلبه طربا وحبورا وفرحا وسرورا هذا لعمر ك منظر
 السفح بينما تنظر الى سكون الجبل وثباته واضطراب البحر ووثباته
 كأنهما وقد حاصراه بينهما عاشقان يتجاذبان حبه ويتنازعان وصله
 وقربه وما أبرّه بعاشقيه وأوفاه بعهد صاحبيه، فلقد كان في موقعه
 أحسن ما يكون مطلوب بين طالين ومعشوق أراد ارضاء العاشقين
 غير أن الماء قد غلبته غيرته وأخذته غريته وملكته أثرته فلم يزل متهيجا
 لا يهدأ له بال ومتحركا لا يستقر على حال، وكأن الجبل وهو ساكن
 سكونه محب قد امتلأ ثقة بمحبوبه أو غالب ظفر من مغلوبه بمطلوبه،
 هذا وقد كان أكثر ما رأيناه من الحداثق والبساتين في المدينة وضواحيها
 مغروسا بشجر التوت والبرتقال الذي كان يرسل مع عليل النسيم غير
 زهره فيشفي الجسم السقيم وإنه لا يكاد الانسان يصرف النظر عن
 هذا السهل وما فيه من الحداثق والحنان حتى يرفعه الى جبال لبنان
 فيرى جبلى صنين وكنيسة متلازمين تلازم الفرقدين وظاهرين من
 بين الجبال ظهور النيرين، ذلك لما امتازا به من زيادة العلو والطول
 حتى كأنهما وقد شمخا بأنفهما الى السماء يطمعان أن يسكنا حيث

حيث تسكن الأفلاك وحتى ترى السحاب على ارتفاع شأنه وبعد مكانه لا يمر عليهم الا فرقاً مذكوراً وخائفاً مقهوراً على أنهما لا يسمحان له بالمرور الا اذا ترك على قمتيهما من ذلك الثلج الطبيعي ما يشبه العمامة البيضاء على رأس الشيخ الوقور

يحسبه الجاهل ما لم يعلمها ❁ شيخاً على كرسية معهما

أما هواء بيروت فانه معتدل جداً في زمان الشتاء وحر شديد في فصل الصيف، ولكن يقال ان اتصال البلد بالبحر يلطف كثيراً من هوائها في مدة الحر على أنه يقال ان معظم السكان من طبقة المتوسطين في هذه المدينة يصعدون الى لبنان لقضاء فصل الصيف هناك لما قد امتاز به هذا الجبل من جودة الهواء وعذوبة الماء وجمال المنظر وأما مياه المدينة فقد بلغت من بعض القوم أنها كانت في الزمن السابق غير صالحة للشرب اذ كانت عفنة رديئة وكان ينشأ عنها بهذا السبب أمراض كثيرة وأوبئة شتى وقد عنت الحكومة العثمانية بتلافي ذلك الخطر الخطير منذ خمس وثلاثين سنة فخلبت اليها ماء الشرب من نهري الكلب وبيروت اللذين ينبجسان من السفوح الغربي من لبنان حتى أصبح أهل المدينة وضواحيها يتمتعون بشرب الماء النقي الطاهر.

وأما مدارس المدينة فكثيرة اذ تبلغ نحو مائة مدرسة للمسيحيين منها سبعون مدرسة أربعون للبنين وثلاثون للبنات والمسلمين ثلاثون مدرسة خمس وعشرون للذكور وخمس فقط للإناث ومن ثم كان التفاوت عظيما بين المتعلمين من أبناء الطائفتين ذكورا وإناثا وقد نجد مثل هذا الفرق بين المعابد أيضا حيث ان للمسيحيين ماربما يزيد عن الأربعين كنيسة بينما مساجد المسلمين لا تربو على خمس وعشرين مسجدا

ذكرنا قبل هذا أن العدد الأكبر من سكان بيروت إنما هو من الطوائف المسيحية حيث المسلمون هناك لا يزيد عددهم عن أربعين ألف نسمة على حين أن المسيحيين يبلغ عددهم نحو مائة ألف أو هم يزيدون ولكننا رأينا مع ذلك أن الطائفة الإسلامية أظهر كلمة وأقوى جانبا وربما كانت هي صاحبة السيادة والأبهة في البلد وإن كان يلاحظ مع هذا أن مسافة الفرق بين ثراء الأمتين عظيمة جدًا وقد يدرك الانسان ذلك مما يراه من الفرق المحسوس بين مدارس المسيحيين ومدارس المسلمين. فان الأولى مع كثرتها وكفايتها حسنة العمارة نضرة البقعة وافية بكل أغراض الطلبة ومنها الكليات التي لا تقل في نظاماتها عن الكليات المعروفة في البلاد الراقية. وأما الثانية

فإنها مع قلة عددها كما عرفت وعدم كفايتها بالطبع لأبناء هذه الطائفة لاتزال تحتاج الى الشئ الكثير من مال الأغنياء وآراء المفكرين وعلى الجملة فإن التعليم في مدينة بيروت مما يسر أنصار العلم وعشاق المعارف ومحبي التقدم والرقى، ولهذا كنت أرى معظم الأهالي يجيدون القراءة والكتابة وقلما وجدت مدينة أهلها كذلك في كل بلاد الشام .

وأما مطابعها فإنها ليست أقل أهمية من مدارسها، وأقدمها مطبعة الامريكان ثم اليسوعيين ثم مطبعة حديقة الاخبار الى غير ذلك من المطابع الكثيرة، وقد سمعت أن ما يطبع في تلك المطابع من الكتب العلمية والفنية شئ فوق الحصر كما أنه يطبع فيها عدة جرائد يومية وأسبوعية وشهرية سياسية وتجارية وطبية ومما امتازت به هذه المدينة عن سائر مدن الشام أنها تصدر كثيرا من مطبوعاتها الى البلاد الشامية وغيرها من البلاد الأجنبية. وأما لغة التخاطب العامة بين المسيحيين والأجانب فهي اللغة الفرنسية ويقال انه في الزمن السابق كان التخاطب جاريا بينهما باللغة الطليانية بدلا من اللغة المذكورة وعلى كل حال فإن لغة البلاد الأصلية والتي يتخاطبون بها فيما بينهم هي اللغة العربية .

وأما تجارتها فتدور في الغالب على مزروعاتها ومصنوعاتها التي أكثرها من الحرير وزيت الزيتون والصابون، وفي المدينة عدة معامل لحل الحرير الافرنكي وللصابون والدباغة والفخار، ثم ان تجار الشام المسيحيين غاية في النشاط والمهارة واقبال الناس عليهم في محالهم عظيم جداء، ولذلك لم يكن للتاجر الأجنبي مطمع في وقت من الأوقات أن ينال من أهل البلد مثل ثقتهم بتاجرهم مهما حاول واحتال، وقد رأيت هناك حالة تستدعي الأسف .

معلوم أن جبل لبنان قطعة من الشام وهو جملة بلاد واسعة يسكنها ما يقرب عدده من ٤٠٠ ألف نفس منهم حوالي ٢٣٠ ألفا من الموارنة و ٥٥ ألفا من الروم الارثوذكس و ٤٥ ألفا من الدروز و ٣٥ ألفا من الروم الكاثوليك، و ١٧ ألفا من المتأولة و ١٤ ألفا من المسلمين وثمانمائة من البروتستانت و ١٥٠ من اللاتين وقليل من الطوائف الأخرى. وكانت هذه البلاد تابعة لولاية بيروت قبل حدوث التعديلات التي وقعت سنة ١٨٦٠ في دمشق ووادي التيم ولبنان ولكنها انسحبت عن بيروت وانفصلت عن حكومتها وقتما كان احتلالها العساكر الفرنسيون مع معتمدى الدول لدفع هذه العاديات، وجعلت من هذا الحين متصرفية مستقلة متعلقة بالباب العالي رأسا .

ولذلك كنت أجد تمام الانفصال بين الحكومتين كما كنت أرى تخالف الأزياء العسكرية فيهما وإن العلاقات بين حكومة الجبل وولاية بيروت صارت قاصرة على مجرد العلاقات التجارية والمودة الجوارية ولقد كنت أسفت أشد الأسف على مرافق الدولة ومصالحها كما يأسف كل غيور عندما يجد سكان هذا الجبل معتمدين على نفوذ الدول الأجنبية وحمايتهم غير خاضعين بالمرّة لقوانين الحكومة العثمانية ونظاماتها الشرعية حتى كأنهم ليسوا من ضمن رعاياها وحتى أن أثر هذا الاستقلال الممنوح لهم من جهة السلطة الخارجية واضح مثل فلق الصبح في الفرق العظيم والبنون الشاسع بين أحد أهالي لبنان وبين غيره من سكان المدينة أو أي بلد من بلاد الولاية حيث الأول مترعرع ذو قوة وشمم تعرف في وجهه نضرة النعيم والترف بينما الآخر على العكس من ذلك لا يتعدى حدود السلطة ولا يتجاوز مواقف النظام مع أنهما موجودان تحت سماء واحدة ويتنفسان معا في جو واحد على أنه يقال أن عددا عظيما من أهل لبنان وبعضا من السوريين يهاجرون إلى الولايات المتحدة وإلى جمهوريات أمريكا الجنوبية والوسطى وأستراليا وبعض الجزائر بقصد التجارة وغيرها لتوسيع المال وتحصيل الثروة الطائلة ويقدر بعضهم عدد المهاجرين إلى سنة ١٩٠٦ بنحو ٢٥٠ ألفا متفرقين

في الجهات المذكورة واللبنانيون من هؤلاء يبلغون نحو ستين ألفا ما بين
ذكور واثاث وليس هذا شاهدنا مما أردنا ايراده في ذلك الموضوع وانما
نريد أن ابن لبنان اذا ما انقضى أربه وتم له ما يريد من الهجرة الى
البلاد البعيدة عاد ثانية الى وطنه ويفضل أن يأوى الى بيت في الجبل
دون أن يسكن بيتا في مدن الولاية وبلادها مع أن مميزات رفاخته
وأسباب ترفه وكليات معيشته قد لا تيسر له الا في المدينة لا سيما
وان بعض أرض الجبل صخرى لا يصلح للاستنبات والزراعة وعلى
ذلك يؤثر اللبناني العاشق للزراعة أن يعيش في ذلك البلد ناقص الحاجة
أو أن يجشم مشاق كثيرة ويتكبد متاعب جمّة بجلب الطين من بيروت
وغيرها لا صلاح الصخر واعداده للزراع كل هذا لانه يرى أن سكنى
الجبل خير له من أن يسكن بلدا من بلاد الولاية ويعيش تحت سيطرة
الحكام خاضعا للنظامات والقوانين ومعروف كيف كان يجري تنفيذها
أرباب الشون ليت شعري كيف يملك الانسان نفسه عند ما يجد
ذلك اللبناني قد ترك فضل ما بين المدينة المتحضرة وبين الجبل مهما
كانت حاله لأن يعيش متمتعا بسرور الأمن ولذة الراحة مطمئن
النفس على ماله وعياله على حين أنه يرى غيره من أبناء الأمة في دائرة
الولاية وتحت سلطة الحكومة كاسف البال منكود الحظ وضع

الكؤوس مما كان يتمنى المسافر معه طول الإقامة تحت سماء هذا المراح
 الغضير والمناخ النضير الذى يحس عنده الانسان بانتعاش الجسم
 وخفة الروح ويدرك فيه سعادة الحياة ولذادة العيش ويجد منه بعد
 الضعف قوة وبعد الكسل نشاطا كأنما كان مسجوناً أفرج عنه
 أو مغمى عليه أفاق من غشيته وما أحسن قول الشاعر فى هذا المعنى
 نسيم الصبا النجدى مالك كلما ❀ تدانيت منا زاد شرك طيبا
 كأن سليمانى أخبرت بسقا منا ❀ فأعطتك رياها بخت طيبا
 وقد كان يكون الشعر أحسن من هذا وأوفق بالمعنى وأوفى بالمراد
 لو أن الشاعر أبدل من لفظ النجدى لفظ الشامى فانه شتان ما نسيم
 النجود والقفار وشتان ريح المهاد المخصبة والبحار التى وصفها مادح
 الشام فى قوله .

يا حسن واديهما وطيب شميمة ❀ قد فاح عرف الزهر فيه وعبقا
 وtrasلت أطيّاره بين الربى ❀ سحرا فهيجت الفؤاد الشيقا
 كيف اتجهت يخرنحوك مأوه ❀ واليك يركع كل غصن أوراقا
 وما برح القطار فى اتجاهه حتى رسا على محطة الحدث حيث منها
 كان مبدأ الصعود الى جبال لبنان وفيما كان القطار يعالج هذا الصعود
 علاجا ويتدرج فيه تدريجا اذ وقف على محطة يقال لها بعبدده وهى

على مسافة تسعة كيلو مترات من محطة الحدث وفي هذا البلد قصر عظيم كان يسكنه قديما أحد الأمراء السالفين والآن يسكنه في فصل الشتاء متصرف جبال لبنان وعند ما يشرف الانسان من هذه الجهة على مدينة بيروت وخليج القديس جورج يشاهد منظرا جميلا وشكلا بهيجا ثم يقف القطار على محطة جمهور وهي تبعد عن بعده بمسافة ١٢ كيلومترا وعند هذه المحطة يقترب سير القطار من طريق دمشق القديم ثم يقف على موقف عرية بعد أن يقطع مسافرا مسافة ١٧ كيلومترا من محطة جمهور ومن تلك المحطة يمر القطار في نفق صغير واذا ذاك تحتجب الطبيعة وتتوارى معالمها عن عيون المسافرين ريثما يجتاز القطار ذلك النفق ثم ينكشف الحقو كما كان في جلبابه الأبيض الناصع ونجلى معالم الطبيعة ثانية وقد بلغت في الحسن حيث تعرفها في جبال لبنان .

نجلى لك الطبيعة آنا ❀ ثم آنا بحسنا تتوارى

وقد كان من أجمل المناظر التي يشاهدها المسافر ما كان يرى من تلك البقعة على وادي شهرور . وبعد أن يسير القطار مسافة ٢١ كيلو مترا من عرية يكون قد وصل الى محطة عليية وقد استقبلنا على افريز تلك المحطة جناب وكيل دولة المتصرف حاملا الينا سلام دولته وكان

معه ثلة من العساكر وبعض الأعيان وبعض الرؤساء الروحانيين فشكرنا لحضراتهم هذا الاحتفال بعد أن شكرنا من صميم القلب دولة حاكم الجبال الذي كان شديد العناية بسفرنا عاملاً كل ما في وسعه لراحتنا وسرورنا فضلاً عن أنه كان عظيم الحرص على اجراء الرسميات والمظاهرات لمقدمنا في كل مقام ومكان في دائرة حكومته اذما كنا نقف على محطة في طريق سيرنا حتى نجد في استقبالنا استعداداً تاماً من رجال الحكومة وأعيان البلاد فيستقبلوننا بمزيد الحفاوة وكبير الاحترام وكما نشاهد من البشر الذي يتلأأ على وجوههم ما نستدل منه على صفاء سرائرهم وحسن طوياتهم، وما زال يمر بنا القطار في وسط الجبل حيث كانت تستقبلنا الطبيعة بمناظرها البديعة حتى وصلنا الى عين صوفر، ويقال ان هذا البلد أحسن بلاد الجبل هواء وأعذب ماء وأكثرها ازدهاراً بالمصطافين من أعيان مصر وغيرها ولهذا السبب يوجد فيها فندق كبير من أحسن وأكبر الفنادق في بلاد الشام كما أنه يوجد فيها منازل كثيرة للايجار مدة مصيف الناس، وقد كان في استقبالنا على تلك المحطة قومندان الهندرة ومعه بعض العساكر فشكرناهم وكنا نرى أثناء المسير مناظر الأشجار الكبيرة والبلدان الجميلة تتصاغر أمام أعيننا كلما ازددنا صعوداً الى الجبل ممّا كان يدل على زيادة العاق خصوصاً وأن من

عين صوفر يتبدئ شعور المسافر بالصعود المحسوس ثم يجتاز القطار بعد ذلك بطن الجبل فيمرّ هناك من نفقين كبيرين يبلغ طول الأول نحو ٢٨٠ متراً والثاني نحو ٣٦٠ متراً ويسمى هذا خات مراد أو بيدار ثم يصل الى محطة بعيضان وهي أعلى نقطة في هذه الجهة حيث يبلغ ارتفاعها عن سطح البحر نحو ١٥٠٠ متراً ومن عندها يتحدّر القطار الى جهة الشرق مسافة ٤٤ كيلومتراً حتى يصل الى المريجات حيث هناك تنكشف المناظر الجميلة ذات اليمين على جبل بروق وذات الشمال على جبل كنيسة وبعد ذلك يرسو القطار على موقف المعلقة وهي تبعد عن مدينة بيروت بنحو ٥٦ كيلومتراً وتلك البلدة هي الحد الفاصل بين ولاية سورية وحكومة لبنان ويوجد فيها كفر كبير اسلامي تابع لبلاد الشام وفيها أيضاً بعثة انجليزية ومدرسة لليسوعيين ثم ان هذه البلدة قريبة من قرية تسمى زحلة من البلاد التابعة لحكومة الجبل ويبلغ عدد سكانها نحو ١٥٠٠ نسمة وهم عن بكرة أبيهم مسيحيون كما أنهم جميعاً يعنون بزراعة العنب ولهم به عناية زائدة ولديهم نهر يسمى البردوني ويوجد في تلك البلدة دير ومدرسة لليسوعيين أيضاً ومما يحفظه التاريخ لاهل زحلة والمعلقة أنهم كانوا أعظم الناس مصاباً وشقاء عند حدوث العاديات التي كانت وقعت

في بلاد الشام من الدروز سنة ١٨٦٠. وبعد أن يفارق القطار محطة المعلقة يمرّ هناك في وسط أرض واسعة وسهل فسيح بين لبنان والجبل الشرقى وهو يمتد من الشمال الشرقى الى الجنوب الغربى ٢٢, ٤٠, ٣٤ من العرض وطوله نحو ٧٠ ميلا وعرضه يختلف بين ٣ و ٧ أميال وهذا السهل غاية في الخصب تكثر فيه الزروع وفيه أكثر من ١٠٠ قرية عامرة وتجري اليه ينابيع غزيرة من الجبال فتشقه في أنحاء شتى ويسمى هذا السهل ببقاع العزيز نسبة فيما قيل الى الملك العزيز بن السلطان صلاح الدين الأيوبي وهو غير البقاع التي تعرف ببقاع كلب وهي أرض واسعة بين بعلبك وحمص ودمشق فيها قرى كثيرة ومياه غزيرة وأكثر شرب هذه الضياع من عين تخرج من جبل يقال لها عين الحجر وهي المعروفة اليوم بعنجر وفي هذه البقاع يوجد قبر النبي الياس عليه السلام، وهكذا يستمر القطار في سيره الى أن يصل الى رياق وهي محطة تبعد عن مدينة بيروت بمسافة ٦٦ كيلو مترا وعندها ينتظر القطار نحو نصف الساعة وفي تلك المدة يتناول من شاء من المسافرين طعام الغذاء في مطعم هناك تابع لأكبر فندق في دمشق يعرف بفندق الشرق الأكبر، ويمتد من هذه المحطة فرع آخر من خطوط السكة الحديدية يوصل الى بعلبك وحمص وحماة

وحلب . ولما أن اتهينا من تناول الغذاء في ذلك المكان شكرنا المندوب الذي كان يرافقنا في هذا السفر من قبل الحكومة حيث كان هذا الموضع هو آخر مشواره معنا ونزلنا في القطار الذي ما برح يتابع السير بنا في طريق دمشق وهو يطوى الارض بأقدامه الحديدية طيا حتى رسا عند وادى يعقوف وهو واد خصب جميل مغروس بالنباتات والحدائق في كل جهاته وعند هذه المحطة يأخذ القطار في الصعود الى الجبل الشرقى وقد مررنا من هذا الطريق على قنطرة تعرف بجسر الرمانة وهي قنطرة عالية ترتفع عن سطح البحر بنحو ١٣٢٠ مترا حتى يصل القطار الى محطة سرغاية التي كانت تعلو عن منسوب البحر بمقدار ١٤٠٠ متر وهنا لا يستطيع المسافر أن يعبر عما كان يتداخله من الارتفاع ويستخفه من الطرب عند ما يشرف من تلك الجهة على البقاع وجبال لبنان فيرى منظر الطبيعة فوق ما يوصف جمالا ويعرف حسنا ورواء وأي نفس لم تعد بعد الخمول ناهية وبعد الذبول ناضرة وهي تتقلب مرات كثيرة على أبهج المناظر والطف الاشكال ثم هي لا تلبث أن تستقر في جهة تظن أن عندها منتهى الحسن واليها قد استتمت ضروب الجمال والظرف حتى تفاجئها جهة أخرى فتأخذها منها روعة جديدة وهزة شديدة وترى أنه كان قليلا في غيرها

ما استكثر وصغيرا في نظرها ما استعظم واستكبر. ومن تلك المحطة سافرنا الى محطة الزبداني وهي مركز قضاء تابع لحكومة لبنان وعدد سكانها يقدر بنحو ٦٥٠٠ نسمة نصفهم من المسيحيين والنصف الآخر من طوائف شتى. ومركز هذه البلدة الطبيعي غاية في البهاء والحسن. اذ تخطيط بها المزارع الياقة والحدائق الواسعة من جميع جهاتها احاطة الاكام بالثمر والهالة بالقمر ومما قدامتازت به عن غيرها من البلاد زيادة عن طيب مناخها أن جميع الفواكه المشهورة توجد فيها وأشهر ما فيها من أنواع تلك الفاكهة العنب والتفاح حتى قيل ان التفاح الزبداني لا يماثله أى تفاح كان في بلاد الدنيا. وفي ذلك الوادى الزبداني يمر نهر بردى ذلك النهر الجميل المشهور في هذه الجهات بجمال موقعه وصفاء مائه وبرودته وعدوبته وبعد اجتياز النهر المذكور والمرور من محطة التكية يمتد خط الحديد نفقا صغيرا فيصل الى سوق وادى بردى والمسافة من مدينة بيروت حتى هذا الوادى تبلغ نحو ١١٥ كيلومترا وكان فى الطريق بين سوق بردى ومحطة التكية قرية اشتهرت بكثرة الفاكهة وجودتها ويقال ان جميع الفواكه المشهورة فى بلاد الشام من أولها الى آخرها توجد فى حدائق هذه القرية أما سوق بردى ففيه عدة مغائر وكهوف يذكرونها كانت تسكنها

الناس قديما حتى زعم بعض المؤرخين أن هذه البلدة هي التي كانت فيها حادثة قتل هابيل لأخيه قابيل، ولعل هذا الزعم نشأ للمؤرخ من أن هذا البلد واقع على مكان المدينة القديمة التي كانت تسمى في عهد البطالسة أبيلة، ثم تمر السكة الحديدية من بعد هذه المحطة على دير قانون حتى تصل الى عين الفيحة وهي ذات مجرى جميل يصب في نهر بردى ومرکزها الطبيعي بين المزارع والأشجار مما يسر الأفتدة ويهيج الأنظار وهناك يسير القطار على شاطئ نهر بردى تكتنفه الزروع وتحيط به من الجانبين بساتين نضيرة وأشجار غزيرة حتى يصل الى محطة الحديدية وهذه الجهة لا تبلغ في العلو عن سطح البحر مبلغ الجهات قبلها، ثم يبارحها القطار متجها الى محطة الحامى وعندئذ تتصل السكة الحديدية بطريق دمشق القديم الذى أسلفنا أنه كان لمرور العربات قبل وضع الخطوط الحديدية على أرض تلك البلاد، ثم يرسو عند محطة دمر وهي واقعة على مسافة ١٣٧ كيلومترا من بيروت ثم هي بلدة صغيرة ولكنها من المتزهات الصيفية وتعمر كثيرا في مدة الخرج حيث ان أعيان الشام وأسره الكبيرة يقصدون اليها ليقضوا فيها فصل الصيف ولهم فيها من أجل ذلك عدة مساكن وبساتين جميلة ومن هناك تظهر مآذن دمشق وتبدو طلائعها مبشرة بقربها ويرى المسافر

على يمينها جبل قسيون وعلى يسارها تلول كلبات المزة وإلى هنا ينتهى طريق السير من بيروت إلى مدينة دمشق ويفارق المسافر جبال لبنان ومناظرها التى كانت على طول هذا الطريق تختلف طربا وتتفاوت حسنا وعجبا وينبغى أننا لا نودّع هذا الجبل حتى نذكر بعض معلوماتنا فيه تتيما للرحلة وقد كانت فى طريقه طويلة جميلة .

(موقع الجبل — ل)

تمتد سلسلة جبل لبنان من الشمال الشرقى فى أواسط سورية إلى الجنوب الغربى وطولها ١٤٥ كيلومترا وعرضها ٤٥ ومساحة الجبل كله تبلغ ٦٥٠٠ كيلومترا مربعا، وأما حدوده فمن الشمال متصرفية طرابلس ومن الشرق أقضية بعلبك وراشيا وحاصبيا ومن الجنوب قضاء صيدا ومن الغرب بيروت وشاطئ البحر، أما سكّانه فقد ذكرنا عددهم فيما تقدم. وفى لبنان أنهار وجداول كثيرة من أشهرها نهر قديسا ينبع من قرية بشرى وهو يمرّ على مقربة من اهدن وزغزته فى قضاء البترون ويدخل مدينة طرابلس حيث يسمى عند أهل هذه المدينة بأبى على، ويروون من مائه البساتين وهو يصبّ فى البحر عند طرابلس وطوله ٣٨ كيلومترا .

(حاصلات لبنان)

وأما حاصلاته فقليلة لأن أرض الجبل في بعض جهاته صخرية غير معدة للغرس ولا مهيئة للزراعة، وقد تعب الأهالي كثيرا في اعداد أرضه للزراعة بقطع الصخور العظيمة ليزرعوا تحتها وقد حاولوا أيضا غرس شجر السنوبر تحت نفس الصخور في عدة مواضع منه، ومن محاصيله المهمة القمح والحمص والشعير والعدس، وكل الأهالي تقريبا يشتغلون بالحرير ويقال انه يوجد في ذلك الجبل نحو ١٤٧ معملا لذلك ولهذا هم يكثر من غرس التوت حيث ان دود القز يتغذى من ورقه، ومن محاصيله المشهورة أيضا التين والعنب ويقال ان التين اللبناني أحلى مذاقا وألذ طعما من كل أنواع التين سواء في الشام وغيره.

(هواء لبنان)

أما هواءه فانه لم يبق لي موضع لأن أصفه بالطبع بعد ما شهد له الأطباء الشرقيون والغربيون قديمهم وحديثهم وعلى الجملة فان السائح الذي يريد أن يكتسب صحته وعافيته ويمتع نفسه بمنظر العيون والحدادول والينابيع والأحراش لا يجد مصيفا طبيعيا خيرا من لبنان. ويقال ان أحسن بلاده موقعا وهواء وأكثرها جمالا وثروة البلد المسمى زحلة.

(صناعات لبنان)

وأما صناعاته فيقال ان فيه صناعات قديمة مثل عمل الأقمشة والنجارة والحدادة الى غير ذلك وتجارته تدور على صنائعه ومحاصيله ثم ان من أهم موارد الثروة في الجبل موسم المصطافين لأن الجبل في الصيف يزدهم بالناس ازدحاما عظيما التماسا للصحة وطلبا للشفاء والبرء من السقام وأكثر هؤلاء من المصريين الأغنياء ويقال ان بعضهم قدر عدد السياح في ذلك الجبل بنحو ١٨ ألف نسمة وأظن أنهم يصرفون من مالهم في تلك السياحة الجميلة شيئا لا يستهان به .

(دمشق)

هي أكبر مدن سورية وفلسطين وموقعها في أواسط سورية حيث الطول الشرقي ٣٠-٣٦ والعرض الشمالي ٢٠-٣٣ وهي الى الشرق بانحراف الى الجنوب من مدينة بيروت تبعد عنها ١٤٥ كيلومترا ، وتبعد عن جنوبي حمص ٤ مراحل وتعلو عن سطح البحر ٢٤٠٠ قدم ، ومحيطها ٩ أميال ونيف وهي قديمة التاريخ مضى على بنائها نحو ٣١٤٥ سنة وكانت تسمى بآرم ذات العباد اذ يقال ان الذي كان بناها جبرون بن سعد بن عاد بن آرم بن سام بن نوح ، وقد وصفها بعضهم بأنها جنة الدنيا لأنها تشتمل على بساتين كثيرة ومياه تجري

في قنواتها في كل مكان. وقد قيل في وصفها كثير من النثر والشعر من ذلك قول بعضهم .

سقى الله أرض الغوطين وأهلها ❀ فلي بجنوب الغوطين شجون
وما ذقت طعم الماء الا استخفنى ❀ الى بردى والنيرين حنين
وغوطة دمشق مشهورة وهى من أجمل المناظر والمتزهات
ولآخر

أما دمشق فقد أبدت محاسنها ❀ وقد وفى لك مطربها بما وعدا
إذا أردت ملأت العين من بلد ❀ مستحسن وزمان يشبه البلدا
يمسى السحاب على أجبالها فرقا ❀ ويصبح النبت في صحرائها بددا
فلمست تبصر الا واكفا خضلا ❀ ويانعا خضرا وطائرا غردا
كأنما القيظ ولى بعد جيئته ❀ أو الربيع دنا من بعد ما بعدا
ولنا بعد هذا كلام فيما يتعلق بهذه المدينة من الأمور والملاحظات
التي لم نر بدا من تسطيرها في تلك الرحلة ان شاء الله تعالى .

وصلنا مع سلامة الله ورعايته الى محطة دمشق وعندئذ أخبرنى
قومسارى القطار بأن والى الشام وناسامعه واقفون ينتظرون قدومنا على
افريز المحطة فاسعنى حين ذاك سوى أن أسرعت بالنزول من
الصبالون واذا بفتى حديث السن ممتلى خفة ونشاطا كان هو أول من

استقبلني من بين الحاضرين، فعرفني بنفسه ووظيفته وأنه حضر لاستقبالنا من قبل الوالي قائلاً ان دولة الوالي يعتذر عن عدم حضوره بذاته الى المحطة لانتظار دولتكم واستقبالكم بأن سفر دولتكم الى الشام غير رسمي ثم طلب اليّنا أن نركب عربة خاصة كان جاء بها لهذا الغرض وقد عرفنا بعد أن هذه العربة مملوكة لأحد اصدقاء الوالي كما عرفنا أن المرسلين لانتظارنا من قبله أربعة أشخاص أحدهم نحر الدين بك، مدير الأمور الأجنبية وهو ذلك الذي بلغنا اعتذار الوالي، والثاني روي بك مدير البوليس، والثالث حسني بك قومندان الدرك، والرابع أحمد افندي الحسيني وكيل رئيس البلدية، وهؤلاء هم جملة المستقبليين. أما أنا فقد سمعت ذلك العذر العجيب صممت على أن آخذ مركبي من غير تلك العربة المستعارة لذلك لم أجبه الى طلبه وقلت له، انه ليجدر بمن لم يكن سفره رسمياً أن لا يتعاطى شيئاً من الرسميات مطلقاً ومن ثم لا أخالف تلك المحطة وأركب عربة تجعل لي تلك الصفة في بلدكم، وقد كنت وأنا أحدثه ألاحظ أن حركته ولهجته في الكلام أشبه بحركات ولهجات الغربيين منها بالشرقيين وأنه لا يعلم الا الله مقدار استغرابي وعجبي مما وجدته في استقبال ذلك الشاب عند ماصالحني مصالحة النظائر والأنداد وخاطبني وهو يهز يدي بما كان لا يقل عن خطاب كبير.

من الكبراء وأمير من الأمراء الى غير ذلك مما كان لا يجهل بالمعاملة ولا يتفق هو والتقاليد التي تقتضيها حالة الشرق وتستدعيها عادة البلاد، وكيف لا أعجب عجباً شديداً ولم يسبق لي أن أرى مثل هذه المقابلة من أحد حتى ولا من نفس الأمراء والعظماء في البلاد المتقدمة التي يزعم الناس أنها بلاد الحرية والمساواة، ولولا أن ذلك الناشئ بادرنا بشرح وظيفته وتعريف نفسه ما كنا شككنا أن الذي كان يستقبلنا ويهزئ بنا هذا هو حاكم الشام نفسه على أن جميع الناس الذين قابلناهم قبل هذا فيما تركناه وراءنا من البلاد الشامية كانوا غاية في اللطف والأدب عارفين وزن أنفسهم ثم هم لا يزالون محتفظين بتقاليد الشرق وأخلاقه .

نخرجنا من المحطة فركبنا من العربات ما كان لنا منه الكفاية وقصدنا توالى فندق فكتوريا الذي اخترناه لنزولنا مدة إقامتنا في دمشق حيث هو أجمل فندق في تلك المدينة . ولم يكن ليصادفنا في الطريق الذي كنا نمرّ منه ما كان يلفت نظر السائح نحوه غير تكية للولوية وذلك النهر العظيم نهر بردى الذي يمرّ في وسط المدينة أشبه بنهر السين في وسط باريس وأنه لقد سرّني كثيراً منظره الجميل وحسن موقعه بين المزارع والبساتين وكانت المسافة منذ ركبنا العربات حتى وصلنا

الى النزل لا تتجاوز الدقائق الى الساعات، وهناك وجدنا عند مدخل الفندق صاحبه الذى كان ينتظرنا ليهدينا الى الحجرات التى نخصصت لنا فيه ولم يمض على جلوسنا هناك أكثر من ربع الساعة حتى شرفنا الوالى بزيارته مرتديا اذ ذاك لباسا عسكريا فاستقبلناه وجلسنا نتحدث فأفهمنا فى غضون حديثه أنه كان لا يستطيع اعمال شئ فيما يتعلق باستقبالنا عند موقف القطار أكثر مما حصل حيث لم يكن حضورنا الى ذلك البلد مصبوغا بصبغة رسمية، أما نحن فبعد أن شكرنا له هذه الزيارة التى تبرع بها من عنده قلنا له اننا حقيقة لم نجئ الى بلدكم بصيغة رسمية وكذلك كان غير رسمى كل سفرنا فى جميع البلاد التى قصدنا اليها فى هذه الرحلة على أنه ليس لنا أن نساغر الى دمشق أو غيرها سفرا رسميا، وانه لا يجهل كلانا أن الأسفار الرسمية انما تكون للاجانب أولمن كانت تنفذه الحكومة من قبلها لمباشرة أعمالها ومصالحها كما أننا نعرف تماما أن كل الذى كان يعمل من أجلنا فى الاستقبالات من الاجتماعات والمظاهرات فى الجهات الأخرى انما كان من محض تبرعات الحكام وأعيان البلاد أما نحن فلم نأسف لأن استقبلنا منكم كان بسيطا الى الحد الذى لا يجهله وانه اذا كان هناك شئ يستدعى أسفنا فليس الا أنه لم يرسل لاستقبالنا على المحطة من كان يناسب

حالنا ويلتئم مع تبعتنا ولقد كان يرضينا ويسرنا أيضا أن نجد في انتظارنا ولو أحد الضباط بدلا من ذلك الذى قابلنا وكانت وظيفته مدير الأمور الأجنبية إذ أنى لست أجنبيا من تلك البلاد اذهى بلاد الشرق وأنا شرقى محض وقد كنت أحسب أنى عثمانى تابع لدولة العثمانيين هذا كان خلاصة حديثنا مع الوالى وقد شرب القهوة وقام، أما نحن فما لبثنا بعده الا قليلا ريثما ارتدينا ملابسنا المعتادة فى الزيارات ثم ذهبنا لائلوى على شئ حتى وصلنا الى سراى الحكومة حيث نرد للوالى زيارته وسلامه وقد رأينا السراى جميلة المنظر جدا وربما كانت أحسن مبانى المدينة عمارة وأنضرها بقعة لأنها واقعة بجوار نهر بردى وكنا نظرن أنه يوجد فى تلك السراى مثل ما يوجد فى سرايات الحكومات من الناس والمستخدمين، ولكننا مذ دخلنا فيها لم نقابل سوى ثلاثة عساكر فسألناهم: هل هنا دولة الوالى فقالوا: دولة الوالى ليس موجودا هنا، فقلنا أليس أحد من كبار المستخدمين أو السكرتارية هنا أيضا؟ فأجابونا ليس أحدٌ هنا من هؤلاء جميعاً فبدأنا أن نترك مع أحدهم بطاقة الزيارة ليعرف الوالى أننا رددنا تحيته وهناك ذهبت منّا التفاتة الى سلم السراى فرأينا عليه انسانا عرفنا بعد أنه من أعيان البلد وأصحاب الجرائد فيها وقد قرأنا فى وجهه آية الأسف الشديد مما

كان رآه من حال الاستقبال والوداع في دار الحكومة عند مداخلناها
ونخرجنا منها وحينما سألنا العسكر سؤالنا وأجابونا جوابهم ولهذا خف
الرجل اليناخفة الطائر وسألنا عما اذا كنا نستحسن أن نكتب في جريدته
شكايتنا وانتقادنا تلك الحالة الغريبة التي استنكر حصولها هذا الرجل
فشكرنا له معروفه وأجبناه بأنه ليس لنا شكاية من شيء ولا نريد أيضا
أن ننتقد عمل الحكومة على كل حال وحسبنا من كل ما نطلب منكم
ما وجدناه من محبتكم لنا وشعوركم الجميل نحونا ثم بارحنا تلك السراى
قافلين الى الفندق فلما وصلنا اليه رأينا علما عثمانيا مرفوعا في داخله
على السلم الضيق فسألت صاحبه (وهو الخواجا بيترو وكان رجلا كبير
السن يميل كثيرا الى مصر حيث كان يتاجر فيها حينما كان شابا) لماذا
رفع هنا هذا العلم العثماني؟ فأجبنى بأن العادة المتبعة في جميع جهات
الدنيا أنه عند ما ينزل ضيف كريم في أى فندق من الفنادق يرفع له
علم الحكومة التابع هو لها اجلالا له واحتفالا بقدمه فقلت له: هذا
العلم يرفع عادة على باب الفندق من الخارج فلماذا كان مرفوعا من
الداخل فقال نعم كان يجب رفع العلم خارج الفندق غير أن أصحاب
الأمر والنهى في البلد قد أبوا على ذلك ومنعوني منه فما أمكن لى أن
أؤدى ذلك الواجب الا برفعه حيث ترون وانى لشديد الأسف من

تلك الظروف التي عا كستنى حتى لم أتمكّن من نصب العلم على باب
الفندق اشعارا بوجود مثل دولتكم فيه

لعل القارئ يأخذ على شىء من الملاحظات على بعض رجال الحكم
والادارة في حكومة الشام ولست أنكر أن ذلك يكاد يكون بارزا يلمس
باليد من خلال سطور بعض المقالات في رحلة دمشق ولكنه ما جاء
مقصودا ولا مرادا به أى شىء وإنما جاء عفوا فيما تستدعيه الرحلة
من ذكر كل ما يرى الراحل ضرورة ذكره وإذا كان من الضرورى أن
أبين كيف كان استقبالى في كل مدينة أو بلد أنزل فيها أو أمر بها
لاجرم كان وصف استقبالى في أكبر مدن الشام وأعظم عواصمها منتظرا
في رحلتى قبل كل شىء كما أنه ضرورى على كل حال خصوصا بعد
ما تحدّث به المتحدّثون وكتب فيه الكتّابون

قد ذكرت في غضون هذه الرحلة ما كنت لاقيته من أولئك الكرام
المساميح أهل بيروت وأهل الجبل حكاما وغير حكام وما كان من
لطفهم وأدبهم واعتنائهم بضيوفهم ممّا مرّ على القارئ بيانه من وقت
أن كنا في ميناء بيروت الى أن نزلنا في محطة دمشق وأنه ما فاتنا والحمد
لله أن نشكر لهم معاملتهم لنا وحسن صنيعهم بنا عدّة مرات كما أننا
كتبنا كل ذلك مفصّلا في رحلتنا هذه لبقى معروفهم مسطرا على

صفحات الكتاب مثل ما كان مطبوعا من قبل في طويات الألباب .
وقد كان بوذى لو أنه يسطر بمداد من نور على صفحات خدود الحور .
واذا رأى القارئ فيما رأى أنى لم أنس ذلك لأحد منهم حتى ولا
لأصغر القوم سنا وأقلهم شأنا واحتراما عرف من مبدئى فى الأمور
الاعلان بالصدق والصراحة فى الحق كائننا ما كان وبالغا ما بلغ .

(زيارة فى الفندق)

عدنا الى الفندق وبعد قليل من الزمن حضر الينا صاحب الجريدة
الذى كان قابلنا فى دار الولاية وقد ارتحت كثيرا لمجلس هذا الرجل
الظريف لما سبق لى من مروءته ومعروفه على غير معرفة سابقة
وكان حديثنا معه قاصرا على وصف بلاد الشام وذكر مواهب الله فيها
من خصوبة الأرض وجودة الهواء وعذوبة الماء وصفاء الجو الى
غير ذلك ، وما كدنا نتم حديثنا معه فيما كان يقتضى سرورنا من مناظر
تلك البلاد وأشكالها الطبيعية الساحرة حتى جاءنا عدة رجال من أعيان
المدينة مظهرين لنا شدة استيائهم من أننا لم نخبرهم بوقت حضورنا
الى دمشق اذ كان ذلك سببا فى فوات أكبر فرصة كانوا ينتهزونها
لتأدية الواجب نحونا من الاحتفاء بنا والاحتفال باستقبالنا لدى المحطة
فشكرنا لهم جميعا هذا الشعور العالى والاحساس الجميل ثم جاء بعدئذ

الأمير على بن الأمير عبد القادر الجزائري فقابلناه بما يليق بمقامه
الكريم من الحفاوة والتعظيم أما حضرته فكان وقورا بشوشا سمح
الوجه ظريف المحادثة لا يشك من يراه أنه من بيوت المجد والامارة
وقد أظهر لنا في فاتحة حديثه ما انطوت عليه نفسه الطاهرة من الميل
والاخلاص للأسرة العلوية ثم أخذنا نتبادل أطراف الحديث وكان
أكثر ما يدور عليه كلامه هو امتداح المغفور له جدنا الأكبر محمد على
باشا وبيان مآثره النافعة في بلاد الشرق وكان يسرني ما كنت أسمعه
من ذلك الحديث الحسن الصحيح سرورا جتما ليس ذلك لأن الأمير
كان يطرب جدنا ويذكر من أعماله وآثاره ما كان يذكر فان الآثار
والأعمال نفسها تعرب عن قدر صاحبها واستحقاقه شكر الناس له
اعرابا صحيحا لا شك فيه ولا خلاف عليه ولكن ذلك لأنني رأيت
مثل هذا الاعتراف الجميل يصدر عن انسان لا انسان آخر على خلاف
المألوف في طبائع أغلب الناس خصوصا في هذا الزمان فانه قلما
يعترف واحد لغيره بفضل أو ميزة اللهم الا اذا كان نفاقا أو رياء وقد
يدفع الحق ببعض الناس الى أن يزيدوا على نكران المعروف ونسيان
الجميل والمروعة أن يتلتمسوا لصاحبهم مواضع العيب والنقص من أعماله
وينشروها ليظهروا به في المحافل والمجالس شهيرا وان أعجب ما في

الانسان أن تراه شديد العداوة والبغضاء لأخيه عظيم النفور منه ومع ذلك فانه شديد الحاجة اليه عظيم الرغبة فيه فبينما تجده يكره منه أن يزاحمه على خير أو يشاركه في فضل أو يستأثر بدونه بعلم أو عمل ويمقتة ويزدرية ويؤذ لو أنه يستأصل من هذا الوجود فلا يبقى له أثر فيه اذا هو لا يستطيع أن يعيش بدونه ولا أن ينهض بغيره لا يرى معونته الا منه ولا سلطانه الا به ولا عزه الا في بقائه فقضية الانسان في تلك الحياة متناقضة معكوسة وقل مع هذا أن يملك الواحد نفسه وينصف صاحبه ويعطيه قسطه من المدح وحقه من الثناء والشكر وحينئذ لا بدع اذا كان يسرنى جدًا أن أرى انسانا مثل هذا نظيف القلب مغسول الصدر من أدران الحقد والحسد واني بعد أن شكرته جزيل الشكر وأثنيت عليه جميل الثناء قلت له اذا كان للمرحوم جدًانا محمد علي باشا في الشرق من تلك الآثار الواضحة والأعمال الخطيرة النافعة ما يستوجب شكر الناس له فأننا معشر الشرقيين لانسى أن لأبيكم في الغرب من الإصلاحات الكثيرة والمنافع الجمة الحليلة ما ليس يقل عن ذلك شيئاً وعلى هذا انتهى حديثنا وكان من ضمن الزائرين لنا في مساء هذا اليوم حضرة عبد الحميد بك غالب نجل المرحوم عثمان غالب باشا وقد استغربت اذ ذاك وجوده في دمشق فسألته

ماذا جاء بك الى هنا فقال: ان لي عثما في هذه المدينة وقد كان المرحوم والدنا اشترى بيتا كبيرا حوله حديقة في ضواحي دمشق ثم انه مازال جالسا معنا حتى جاء وقت الغروب فاستأذنتنا مودعا بالحفاوة مشكورا على تلك الزيارة .

(سـياحة في المدينة)

في صباح اليوم الثاني عولنا على الخطة التي كنا رسمناها للسياحة في هياض ذلك اليوم وكان منها زيارة بعض وجهاء المدينة وساداتها الذين كانوا جاؤا لزيارتنا في فندق فيكتوريا ومنها أيضا مشاهدة ما كان لابد للسائح أن يطلع عليه في دمشق من المناظر والآثار

(الانجليزى في دمشق)

وفيما نحن نعد أنفسنا للخروج جاءنا صاحب الفندق يخبرنا أن الشاب الانجليزى (ومعروف للقارئ من هو) مصاب في عقله وأنه كثيرا ما تعتريه نوبات جنون شديدة فيتشوش دماغه ويضطرب فكره وعند ذلك يتهيج وربما يتلون في الملابس والأزياء ويتداخل فيما لا يعنيه من شؤون الناس ولا يبالي أن يزعج بنفسه في أخطر الوقائع وأصعب الفظائع وقد تعددت جنayaته وجرائمه في بلاد الشام حتى صار يعرفه كل الناس تقريبا وأن له أبا رجلا طبيبا من سكان لبنان ومن محترمي

الانجليز أيضا، وقد تعب كثيرا هذا الوالد المسكين يحاول اصلاح شأن ولده ويعالجه بكل أنواع العلاج رجاء أن يثوب الى ثباته ويعود الى رشده ومع ذلك لم يفده الاصلاح الا فسادا، ولم يزد به العلاج الا جنونا، لما أن يئس والده المسكين من جهته ووجد أن نسبة ابنه اليه وارتباطه به على هذه الحال السيئة ربما يلحق به أذى وضرا من جرّاء الجنايات التي يقتربها ذلك الولد بخبله وجنونه اضطرّ أن يعلن على الملأ انفصاله عنه وبرأته من كل ما يحصل منه، أما أنا فقد أدهشني جدّا هذا الخبر الفجائي الغريب، ولكنني كنت أسأت الظن بالمخبر حتى أتيت صحة خبره، فسألت عن حقيقة ذلك الانجليزى بعض من يعرفه من سكان دمشق فأجابوني بما أكد عندي حكاية صاحب النزل وحققها تحقيقا، وعندئذ لم يسعني غير أن أوعزت الى حضرة الفاضل احمد بك العريس أن يخليه من مأموريتنا ويبعده عنا بدعوى أننا لا حاجة لنا برؤية الخيل ولا شرائها، وقد وصلناه بمكافأة مالية ترضيه، فانصرف بها الى حال سبيله، أما نحن فقد اعتبرنا ما ذكره لنا الخواجه بيترو نصيحة جميلة وشكرناها له في نفسنا، وبعد ذلك ركبنا عربة من باب الفندق وذهبنا جاعلين وجهتنا في أول الأمر زدّ الزيارات، فابتدأنا بزيارة سعادة محمد باشا العظم في داره التي كانت

واقعة في داخل البلد الأصلية من ضمن العماير القديمة وهي من البيوت
الأثرية النفيسة شرقية الشكل فيها ساحة من حولها الغرف وفي الساحة
أشجار وأغراس وبركة ماء وقد تكون البرك في داخل الغرف أيضا
والأرض كلها مبلطة بالرخام المرمر الجميل وبعض السقوف والجدران
مذهبة أو مزخرفة بفانح الفسيفساء وقد كان أكثر البيوت التي زرنا
فيها أصحابها من هذا القبيل وإن كانت تتفاوت بالطبع في سعة المساحة
وضخامة البناء وبالجملة فإن بيوت دمشق التاريخية تشبه كل شبه البيوت
القديمة في جميع بلاد الشرق . ومثل تلك البيوت في مصر بيوت الغز
والسادات . وحقيقة كانت بيوت دمشق التي زرناها جميلة المنظر
دقيقة الصنع يطالع فيها المتأمل درسا طويلا من أهم دروس التاريخ
الأثري ومنها يعلم كيف كان غرام المتقدمين وولعهم بالفنون البديعة
والصنائع الدقيقة نعم ويعرف أيضا إلى أي درجة بلغت عنايتهم
بمخرفة بيوتهم بالرسوم الفانحة والأوضاع المحكمة وقد كنت أدركت
شيئا من الفرق بين تلك الصناعة في بيوت الشام وبينها في بيوت مصر .
فهى في الأخيرة أدق وأتقن منها في الأولى وأظن أن هذا الفرق
يمكن أن يدركه كل من زاول هذه الصناعة واطلع عليها في المدينتين .
ولكنى مع مزيد الأسف أقول ان الصناعات القديمة والآثار التاريخية

ليس لها مكان من قلوب المصريين ولا نصيب من استحسانهم مثل ما لها من قلوب غيرهم، لأن معظم عنايتهم أو كلها منصرفة دائماً الى التقاليد الغربية والأنماط الافرنكية وبالأخص في العمارات التي غيرت بالكلية هيئة البلد وخرجت بها عن الشكل الشرقي بالمرّة وانه اذا كان بقي من ذلك البناء القديم بقية الى اليوم فان ذلك من النادر القليل. وكم كنت جذلاً مسروراً من أن أهل الشام لا يزالون الى اليوم محافظين على آثار أسلافهم وتاريخ عماثرهم اذ أن أكثرهم ما فتى يسكن البيوت العتيقة ولا سبب لهذا فيما نعلم الا أن العوائد الأوربيّة لم تتغلب عليهم ولم تنل منهم ريثما نالت من سواهم فهم شرقيون بآرون بالشرق محتفظون بمخلفات الأصول وآثار الحدود. وبعد أن انتهينا من الزيارات ومشاهدة أنحر البيوتات ذهبنا الى أسواق المدينة .

(أسواق المدينة)

في هذه المدينة أسواق كثيرة تسمى بأسماء مختلفة وفي الغالب يسمى كل سوق منها باسم ما يصنع أو يباع فيه على نحو ما يعرف في المدن الكبيرة وهذه الأسواق على نوعين مجموعة ومتفرقة والمجموعة منها يطلق عليها اسم المدينة وهي شرقية الشكل أكثرها ضيق مسقوف أما سوق الحميدية الجديدة وسوق الخوجه وسوق محمد علي فهي من

الأسواق الحديثة الجميلة ويوجد في المدينة من الخانات عدد كبير أقدمها خان أسعد باشا وخان سليمان باشا وقد كان أول مرورنا من السوق الأكبر ورأينا أن حركة البيع والشراء متبادلة هناك بين الشرقيين وقلها وقعت العين على أوربي يبيع أو يشتري أو يمر في هذا السوق على أنه هو أكبر الأسواق في ذلك البلد ثم اننا كنا نسير بين حوانيت من الخانين منها حوانيت السروجية والقصّارين وباعة الخبز واللحوم المشوية والعطّارين وغيرهم من أصحاب التجارات وأرباب الصنائع الشرقية البحتة كما كنا نلاحظ أن مجموعة المتعاملين بالبيع والشراء كانوا يختلفون بين عرب وأكراد وأعجم وشراكسة ويتميزون كل بلبوسه المعروف، ثم ان هناك بعض الأعاجم قد اتخذوا محالّ لنقش الأختام وجماعة كثيرة من الكّتاب العموميين يجلسون متفرقين في طول السوق ومسافة ما بين الواحد منهم والآخر تبلغ من عشرة أمتار تقريبا الى عشرين في الكثير، وحول هؤلاء الكّتاب زحام من أهل البلد اذ يستكتبونهم العروض والجوابات كما قد يشاهد في الشوارع القريبة من المحاكم الأهلية والأقسام في مصر وكنا نرى بعض أناس من حملة المباخر يروحون ويغدون في الطريق لطلب الصدقات من المارة وأصحاب الحوانيت، كما كنا نجد من الناس من يشتري الخبز ويلقمه

الكلاب، ومن عادة التجار التي لاحظناها منهم في هذا البلد أنهم يشغلون أوقات فراغهم من حركة البيع والشراء بقراءة القرآن ومطالعة الكتب أو بالتدخين في النارجيل .

(فكاهة)

ولندكر هنا على سبيل الفكاهة ما كنا نسمعه من مناداة بعض السوق في الطريق ذلك أن بائع الليموناده ينادى (بيبرد الله قلبك اطف الحرارة)، ويصيح بائع الجلاب وهو التمر هندي المعروف (مواللال ياولد) يريد أنه صاف جداً، وبائع الخشاف البارد ينادى (بالك سنونك) ويقول بائع الورد (صالح حماتك) هذا ما كنا وعيناه من ندائهم أثناء مرورنا وبعد ذلك سرنا من جملة أسواق كان منها سوق الحميدية نسبة فيما يقال الى السلطان عبد الحميد وفي هذا السوق يوجد أيضا خليط من التجارات الشرقية ثم سوق العصريه وسوق باب البريد وهكذا حتى وصلنا الى جامع بني أمية .

(جامع بني أمية)

موقع هذا الجامع في آخر سوق الحميدية من الطرف الشرقى ويقال ان موضعه في الأصل كان معبدا وثنيا ثم حول الى كنيسة مسيحية في عهد الامبراطور اركديوس وكانت تسمى بكنيسة القديس يوحنا

ولعل سبب هذه التسمية وجود رأس يوحنا المعمدان في تلك الكنيسة وهو النبي يحيى عليه السلام الذي لا يزال مدفونا تحت احدى قباب هذا المسجد وكل أهل دمشق يقسمون برأسه، وعند هذا المسجد تقابل خالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنهما عند فتح دمشق وزعموا أن الجهة الشرقية منه أخذت غصبا وعنوة وأن الجهة الغربية تركت للمسيحيين، وكان المسلمون والمسيحيون يدخلون أولا من باب واحد اذا أرادوا الصلاة وقد استمروا كذلك الى عهد الوليد بن عبد الملك وبعد ذلك صار المسجد كله للمسلمين لأن الوليد أخذ من المسيحيين نصيبهم منه في نظير أنه ضمن لهم بقاء ملكيتهم لجملة كنائس أخرى متفرقة في دمشق وضواحيها ثم انه هدم جميع الكنيسة من الداخل حتى لم يبق من بنائها الا صلي الا السور الخارجى وبني مسجده الجميل الذى أحكم بنيانه حتى صار آية من آيات الحسن والبهاء وكان المهندسون فيه من اليونان ويقال ان الوليد عند ما أراد الشروع فى البناء استحضر ١٢٠٠ صانع من اسلا مبول لهذا الغرض ولبثوا يشتغلون فيه مدة تسع سنين وقد جمع كل الأعمدة القديمة التى كانت متفرقة فى مدن الشام الأثرية ورص أرض الجامع بنوع من الرخام الجميل النادر وكذلك فعل بدوائر الجدران من أسفل

وأما القبة وحيطان المسجد من الأعلى فقد كان نقشها وزخرفها بحجارة ملونة دقيقة وكذلك كانت محاريب الصلاة مزدانة بأبداع النقوش من ألطف الألوان وأدق الحجارة وكانت عقود هذه المحاريب مزينة زينة باهرة بسلاسل وأغصان ذهبية أما السقف فكان كله من الخشب المتين المطعم بالذهب، وكان في المسجد ٦٠٠ قنديل من ذهب خالص ويقال ان دفاتر الحسابات لهذه العمارة نقلت الى الوليد على ١٨ بغلاً .

وحينما ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز غير بعض معالم المسجد فأبدل هذه القناديل الذهبية بقناديل عادية من الزجاج، وفي سنة ٦٠٤ هـ من الهجرة توفى سنة التي استولى فيها تيمورلنك على دمشق كان قد دهم هذا المسجد بحريق أتلف منه جزءاً ومن ذلك الحين لم يعد المسجد الى جماله الاول وشكله القديم ثم انه احترق مرة أخرى في ١٤ أكتوبر سنة ١٨٩٣ فتلف فيه قسم عظيم وكان ذلك على عهد السلطان عبد الحميد وقد صدر أمره اذ ذاك باعادة القسم المحترق وتجديده على مثل ما كان، ويقال انهم جمعوا ٨٠ ألف جنيه أكثرها من تبرعات الناس أعادوا بها البناء وأن جميع الصناع والمهندسين كانوا من الدماشقة، اذ يقال انهم اجتمعوا على أن لا تراحمهم يد أجنبية، ثم ان الجامع الآن لم يبق فيه من المباني العتيقة التي كانت قبل الاسلام الا قوس نصر

وهو قوس محكم الوضع متقن الصناعة جميل المنظر جدًا وكذلك بقية من باب واحد في الجهة الجنوبية وطول المسجد يبلغ ١٣١ مترا ويبلغ عرضه ٣٨ مترا، فمساحته تبلغ حينئذ ٩٧٨ ٤ مترا مربعا أما بناؤه فقائم على موضع الكنيسة وفيه صفان من الأعمدة الشاهقة تقسم المسجد الى ثلاثة أروقة ويبلغ طول العمود من تلك العمدة ٧ أمتار ثم ان سُقُف هذه الأروقة الثلاثة متكئة على كتل خشبية ضخمة منقوشة بأبدع النقوش وقد نقش على الحائط الغربي من داخل المسجد أسماء الخلفاء الأربعة بالخط الكبير كما كتب على الجدار الجنوبي وبقية الجدران بعض كلام الله سورا كاملة وآيات من بعض السور وهي منقوشة أيضا بالثلث الجميل وفوق القبلة والمنبر من الجهة الجنوبية ثلاث نوافذ كبيرة تمتاز عما عداها بجمال الزجاج وحسن رونقه فيها. وفي الجامع محاريب منها محراب خاص بالحنفية وآخر خاص بالشافعية وآخر يسمى بمحراب الصعابة وقريبا من ذلك المحراب يصلى السادة الحنفية وهم أكثر عددا في المصلين من أهل المذاهب الأخرى ولعل ذلك لأن معظم أهل المدينة من هذا المذهب، ويقال ان الذى بنى هذه المحاريب هو تنكر فى سنة ٧٢٩هـ. وفى وسط المسجد قبة عالية جدًا مئمة الشكل وفى كل جهة من جهاتها نافذتان على شكل

نصف دائرة ويقال ان هذه القبة مغطاة بالرصاص ولا يوجد بناء من أبنية المدينة كلها أعلى منها الا المآذن الثلاث ولذلك هي تنظر للمسافر من مسافة بعيدة ويرى على رأسها هلال شاهق وتسمى قبة النسر وربما سميت كذلك لأن الرواقين في شمالها ويمينها بجناحين لها . وفي صحن الجامع أربعة أعمدة مغطاة بالترخام الملون وهي قائمة على القبر الذي دفنت فيه رأس يحيى عليه السلام . أما رحبة المسجد فتحيط بها بواب كثيرة الا أنها ليست نصف دائرة تماما بل شكلها بيضاوى تقريبا ويقال ان عدّة هذه البواكى تبلغ ٤٧ باكية وتيجان العمدة في تلك الرحبة بارزة مربعة الشكل لا تختلف شيئا عن تيجان الأعمدة المصرية . ويقال ان هذه الرحبة كانت في الزمن السابق مبلطة بالترخام المرمر النفيس وفي الجهة الغربية من تلك الرحبة قبة أخرى تعرف بقبة الخزنة ، وفي وسطها قبة كذلك تسمى بقبة النوفرة ويقال انها واقعة في منتصف المسافة بين اسلامبول ومكة المكرمة ، وفي الجهة الشرقية قبة الساعة وهي واقعة أمام قبة الخزنة وفيها ساعة ثم ان وراء الأعمدة من الناحية المقابلة للمسجد عدّة غرف خاصة بالعلماء والطلبة . أما مآذن الجامع فثلاث أولها مأذنة عيسى وهي واقعة في الجهة الشرقية من المسجد مئمة الشكل ونقشها من الصّناعة العربية الدّقيقة ولها ثلاثة

أدوار يصعد اليها بنحو ١٨٧ درجة وتنتهى بكرة عليها هلال ومن فوقها يرى الانسان منظرا بهيجا اذا هو أشرف منها على أبنية المدينة وقوس نصر جميل بين البساتين والمزارع ويعجبني تشبيه بعض من شاهد ذلك المنظر بأنه قطعة من الصخر الرمادى فى اطار من الزمرد الأخضر الشهى ثم ان هذه المأذنة تزيد فى الارتفاع عن قبة الجامع بنيف ومائة قدم والسيّاح يصعدون اليها ليروا ذلك المنظر العجيب ولولا أن الزمن قليل والسّفر طويل لكنت فى عداد أولئك الصاعدين حتى لا يفوتنى أن أتمتع به مثلهم . أما المأذنة الثانية فهى فى الجهة الجنوبية الشرقية وتسمى بمأذنة الساعة وسبب هذه التسمية فيما يزعم الناس أن سيّدنا عيسى سينزل عليها عند قيام الساعة وهاتان المأذنتان قديمتان جدّا على ما يقال حتى ذهب بعض المؤرّخين الى أنّهما موجودتان منذ عهد الرومانيّين واليونانيّين ، أما الثالثة فقائمة فى الجهة الشماليّة وتسمى بمأذنة العروس بناها الوليد على غاية ما يمكن من الاتقان والابداع وهى وان كانت لا تبلغ فى الطول مثل سابقتها الا أنّها تفوقهما حسنا وجمالا . وقد تغزل فيها بعض الأدباء الظرفاء فقال .

قاسوا حمة بخلق فأجبّتهم ❁ هذا قياس فاسد وحياتكم
فعروس جامع جلق مامثلها ❁ شتان بين عروسنا وحماتكم

وأما أبوابه الخارجية فسبعة أكبرها جيرون في جهة الشرق
(اهـداء عالم)

فرغنا من زيارة المسجد الأموي وعند ما كنت مسرعا في الخروج
منه تقدم نحوي شيخ يناولني كتابا على غير معرفة وقد حسبت أنه من
فقراء المساجد جاء يتلمس منا صدقة فأمرت له بجنيه وأخذت منه
الكتاب وأنا لا أزال مسرع السير حيث كان مقصدي زيارة قبر
المرحوم صلاح الدين الأيوبي قبل أن ندخل في وقت الظهر ولكنني
عرفت أخيرا أن ذلك الشيخ الذي أهدى إلي كتابه هو شيخ الجامع
الأموي نفسه وعندئذ أسفت كثيرا لأنني لم أقابله بما كان يستحقه
من الاحترام لشخصه ويقتضيه من الشكر لهديته لاسيما والكتاب
مخطوط قديم التاريخ نبيل الموضوع اذ فيه ذكر فضائل مصر وعجائبها
من القرآن والحديث وآثار السلف وفيه أيضا مسائل كثيرة في جغرافيتها
الاقتصادية وانما عرفت وظيفة هذا الاستاذ حينما تصفحت الكتاب
فرايت عنوانه مكتوبا بخط يده على أول صحيفة منه تحت ما كتبه من
عبارات الاهداء التي تدل على أدب ذلك الرجل وتواضعه وانه وان
فاتنا أن نشكره ذلك في وجهه فانه لم يفتنا أن نسطره في رحلتنا
وذلك أبلغ في معنى الشكر والثناء .

صلاح الدين الأيوبي

من هو صلاح الدين الذي قصدنا الى زيارة قبره، انى أعتقد قطعاً أنه ليس على وجه الأرض أحد الا وهو يفهم قدر هذا البطل الكبير والفتاح الشهير كما يفهم وجود نفسه كيف لا وهو الذى طبق صيته الخافقين وبلغت شهرته الى عنان السماكين، وكانت له الفتوحات الكثيرة والحروب المدهشة التى لم يسمح فى غابر التاريخ ولا حاضره بمثلها لأحد من الملوك والسلاطين ولا غيرهم من العالمين، ولولا أنى لأحكم على الغيب ولا أتنبأ بالمستقبل لقطعت بأن الزمان لم يعبد يسمح بنظيره .

حلف الزمان ليأتين بمثله ❁ ان الزمان بمثله لبخيل وليس لنا أن نفيض فى وصفه ولا أن نطيل بذكر تاريخه بعد أن امتلأت بطون التواريخ بقصص الطويلة وشرح أعماله الجليلة التى شهدت بها الناس جميعاً حتى أعداؤه ومبغضوه .

ومليحة شهدت لها ضراتها ❁ والفضل ما شهدت به الأعداء ولكن لا بأس أن نورد فى رحلتنا نبذة من تاريخه العطرى تبركا بذكره الفخيم وتمينا باسمه الكريم .

هو السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن نجم الدين أيوب ولد رحمه الله في تكريت سنة ٥٣٢ من الهجرة وقدم به أبوه الى دمشق وهو رضيع فنشأ في حجره وكان أبوه اذ ذاك مستعملا على بعلبك ولما ترعرع صلاح الدين أرسله المرحوم السلطان نور الدين الشهيد مع أمراء جيشه للحرب في مصر فأبلى فيها بلاء حسنا وأظهر من الشجاعة والبراعة ما أكبره وسما بمقامه في أعين الناس ، ثم عاد الى دمشق وأقام بها الى أن أغار الصليبيون على مصر وكادوا يستولون عليها وكانت وقتئذ بيد الفاطميين فطلب نور الدين اليه أن يذهب الى مصر مع عمه شيركوه فأجاب عن ارتياح ونكل بالفاطميين وقطع خطبتهم وصار من هذا الحين نائبا في مصر الى أن مات السلطان نور الدين فاستقل هو بحكمها ومن ذلك العهد أخذ يفتح البلاد فتوحاته الكثيرة حتى مات في مدينة دمشق في يوم ٢٧ صفر سنة ٥٨٨ وكان عمره لا يتجاوز ٥٧ سنة وكان رحمه الله غاية في الجود والكرم حتى قيل انه لم يترك بعد وفاته سوى ٤٧ درهما وهي ثروة ربما ترك السائل لأولاده أضعاف أضعافها ولكنه البذل والسخاء والحنان والشفقة على المساكين والفقراء تستنفد المال ولو كان مثل الجبال .

دخلنا قبة هذا الملك وهي بجانب الجامع الأموي من جهة الشمال ورأينا حال دخولنا حديقة لا تزيد عن خمسة أمتار طولاً في مثلها عرضاً وهنا أخذتني هزة عند مارأيت صلاح الدين صاحب الحروب الصليبية والذي أخضع الجبابة وأسر القياصرة والذي كان يضيق بهمته السماء فضاء ما بين الأرض والسماء ينتهى أمره بسكنى هذا المكان الضيق وتكون حديقته أمتاراً معدودة يوجد في مقابر البسطاء من الناس ما هو أكبر منها نعم إن الميت في قبره لا ينتفع بسعة المكان كما لا يهتمه شئ من زخارف الحياة وإنما أسفى كان من أن الشرقيين وهم أعرف الناس بقدر هذا الفاتح المظفر لم يحفلوا به كما يحفل الغربيون بعظماء رجالهم مع أن الغربيين أنفسهم قد قدروا قدر هذا الرجل وليس هناك أدل على ذلك من اهداء امبراطور المانيا الى قبره اكليلا زهرياً يسر الانسان أن يرى منه برهاناً على شعور جلالة الامبراطور وأضرابه بقدر ما يحزنه أن لا يرى شيئاً مطلقاً من جانب الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً على قبره .

(الصالحية)

هي إحدى القرى والأحياء التي تنقسم اليها مدينة دمشق وقد كنا عولنا على إرتيادها في هذا اليوم فبعد أن فرغنا من مشاهدة الأسواق

وانتهى أربنا من زيارة الأعيان وبعض الجوامع ومن كل ما كان يهمنا أن نطلع عليه بالقصد أو كان يصادفنا أيضا على غير نية وحساب عند ما كنا نسير في الشوارع والطرق ، توجهنا نحو طنا رعاية الله الى الصالحية وكان الوقت عصرا فسرنا في طريق كان من أجمل الطرق وأحسن المنتزهات في تلك البقاع حيث لا يلتفت فيه الانسان عن ذات يمينه أو عن ذات يساره حتى يرى الأرض من الجانبين خضراء زاهية بالبساتين والمزارع التي يميل اليها الطبع ويفرح منها القلب ولا يزال المسافر في ذلك الطريق يمر بين مناظر طبيعية تختلف في الحسن وتتفاوت في الجمال ويتنقل من منظر شهى الى أشهر ومن شكل بهى الى أبهى ولا يودع فيه نهر الطرة حتى يستقبل بعده نهر البريد وهكذا الى أن يصير في الصالحية وهي قائمة على هضبة جهة الغرب من المدينة وعدد سكانها يبلغ نحو عشرة آلاف نسمة ويمر منها نهر البريد وفيها من الأشياء المشهورة جامع الصوفي الشهير محي الدين ابن العربي وقبر عبد القادر الجزايري وقد سرنى جدًا منظر هذه القرية التي جمعت الى طيب المناخ ونضارة البقعة واعتدال الحق من ضروب الحسن والبهاء مالا يمكن الإعراب عن نعمته بأكثر من أنه جنة عالية تجرى من تحتها الأنهار كما قال بعض الشعراء .

الصالحية جنة ❁ والصالحون بها أقاموا

وهذا قليل في وصف بلد مثل هذه وانك تكاد تطير فرحا وسرورا عند ما تشرف منها على دمشق وما يخللها من الماء والخضرة ويحيط بها من البساتين النضرة، فترى من هذه المجموعة البديعة منظرا يخدع النفس حسنه ويسترق الفؤاد جماله، مررنا هناك في جملة شوارع ورأينا فيما كنا نراه بيوتا وأكواخا صغيرة تدل بظاهر هيئتها على أن سكانها من الفقراء البائسين وقد كنت أحسب أنهم من العرب ولكنني عند ما تأملت شكلهم عرفت أنهم من أهل كريد المسلمين توطنوا تلك الجهة واستعمروها، وقد رأينا في نفس البلد أيضا بيوتا كبيرة وقصورا مشيدة وهي من أملاك أكابر الدماشقة وأعيانهم، ثم صادفنا ونحن خارجون من تلك القرية مصطبة تعرف بمصطبة الامبراطور وقد استغربت هذه الاضافة فسألت من بعض القوم عن سببها فقالوا ان امبراطور المانيا لما زار تلك الجهة نصبت له خيمة فيها ووقف على تلك المصطبة ليرى منظر المدينة وما حولها، ومن هذا الحين نسبت اليه ودعيت باسمه، ثم انه لم يكن وراء الصالحية من الجهة الغربية الا جبل قسيون، وأما من ناحية الشرق فلست أجدني مبالغا اذا قلت ان الطبيعة لم تتجمل للعيون فتملأها حسنا ولا للقلوب فتنبها طربا

الا في تلك البقعة عندما يشرف الانسان منها على المدينة وما يحيط
بها فيرى من الحسن والابداع وجمال التكوين والاختراع ما لم يعثر
النظر على مثاله ولم تنسج الطبيعة على منواله ولم كنت آسفا من أنى
لست بالشاعر الخيالى ولا بالرسام الماهر حتى كان يمكننى أن أصور
للقارئ كيف كان يفعل بالعقول ذلك المنظر الساحر حينما كنت
أشرف تارة على ناحية الشرق فأرى السفح مفروشا من النبات البهى
بمثل البساط السندسى وأرسل النظر تارة أخرى الى شمال الجنوب
فأشاهد مآذن دمشق الشاهقة بين مبانيها ومعالمها الفائقة وقد أحاط
بها سياج من الحدائق الفيحاء إحاطة النطاق بخصر المشبوبة الهيفاء
فما أدري وقتئذ اذا كنت أردد البصريين نضارة المزارع وجمال المدينة
أم كنت أغازل عروسا بديعة الحسن فى ثياب البهاء وشعار الزينة
ولكن ماذا كان يفيدنى أن أكون أبلغ المتكلمين فأصف ما كوّنته يد
القدرة فى هذا المقام الكريم بأفصح مقال وأوضح تبين أو أكون
أحذق المصورين فيتحرك قلبى فى رسم ذلك المنظر الفخيم بأبداع
نقش وأبهر تلوين وانه شتان بين ما يقع فى القلب من روعة المشاهدة
والعيان وبين ما يصل الى السمع من حديث التعريف والبيان

يا ابن الكرام ألا تدنو فتبصر ما ❀ قد حدّ ثوك فما راء كمن سمعا
وعلى ذلك تمت الرحلة الى الصالحية ،
ثم عدنا الى الفندق وقد مررنا في أثناء الطريق بمدرسة الملك الظاهر
بيبرس ومكتبة الحكومة التي جمعت عند قبره واشتهرت في تلك
الدائرة بأدخار نفائس الأسفار العربية وغرائب الكتب الفنية ويقولون
انه قبل أن تتكون هذه المكتبة كانت الكتب متفرقة في عدة أماكن
متباعدة فكان يصعب على عشاق العلم أن يصلوا الى غايتهم من
البحث والمراجعة في تلك الكتب على أن تباعد مواضعها كان من أهم
الأسباب لتدشيتها ونقص بعضها بل ضياع عدد كثير منها ولولا أن أتاح
الله لها مدحت باشا فعنى بجمعها وترتيبها كانت اليوم في حيز العدم
وكانت تكون دمشق كيروت خالية من المكتبات العامة التي لا تقل
فائدتها في المجتمع عن المدارس ، ثم اني كنت عجبت من أنه كيف تكون
بيروت خالية من الكتبخانات العامة وهي البلد الوحيدة التي اختصت
من بين سائر بلاد الشام بكثرة المدارس وانتشار العلوم والمعارف ،
ولا شك أن تأسيس مثل هذه المكتبة الجميلة المشتملة على الكتب
القديمة في مدينة كبيرة يعد نهضة شريفة تبقى لمدحت باشا في تاريخه
الى آخر الزمان ، وقد كان أمام هذه المكتبة جامع ابن بيبرس وقد منعنا

أن تزوره وتزور غيره أيضا من جوامع دمشق الكثيرة التي منها أيضا جامع السنانية أننا كنا قريين من وقت الظهر وبعد أن تناولنا طعام الغداء في الفندق أخبرنا بحضور جملة من الخيل فاطلعنا عليها وكنا نحسب أن فيها ما يجتلب رغبتنا ويجتذب استحساننا ولكنا مع مزيد الأسف وجدناها كسائر الخيل المعتادة لا تمتاز حتى ولا بأنها من تلك الهياكل الأصيلة ولذلك صرفنا عنها نظرنا وذهبنا في عربة إلى زيارة تكية المولوية تلك التي ذكرنا أنها كانت في طريقنا من المحطة إلى الفندق مدخلنا هذه التكية وهي من البناء المنحرف الجميل قائمة في وسط حديقة غناء وقد استقبلنا عند مدخلها شيخها وهو رجل كامل ظريف وبعد أن رحب بنا ناولنا من سعوطه الذي أخبرنا أنه من عمله وصنعة يده فشكرت له أدبه ومعروفه ثم طفنا على قاعات التكية ورأينا أن أهلها من أولهم إلى آخرهم ممثلون جدلا وسرورا بسبب أن جلالة السلطان محمد الخامس مولوى الطريقة فهم من أجل ذلك يطمعون في رعايته وعطفه بنوع خاص ويؤمنون أملا كبيرا في أن يكون لجميع التكايا من وراء ذلك ما يرقىها ويوسع نطاقها حقق الله آمالهم ثم قصدنا إلى زيارة شيخ النقشبندية ومن هناك مررنا ثانيا من داخل المدينة في عدة أسواق يتصل بعضها ببعض وتمايز بالأسماء وكان منها

سوق الأروام وسوق باب البريد وسوق الحرير وسوق الخراطين واذ
ذاك صادفنا دار أسعد باشا وهي تعد من ضمن الأمكنة التي يقصد
اليها المسافرون ويرتادها السائحون ولهذا الباشا خان من ضمن خانات
المدينة كما أن لمدحت باشا سوقا طويلا يعرف باسمه هناك ومن
الأسواق التي مررنا فيها من هذا الطريق سوق يسمى سوق القطن
لأن القطن يباع فيه ومنه مررنا بجامع السنانية حيث قصدنا الى الفندق
وكان سبيل سيرنا من ناحية المريج وهو طريق طويل من المتزهات
البديعة المنسقة ماز بجوار نهر بردى وعليه من جهة اليمين واليسار
مزارع وأغراس بهيجة والمتفسحون من أهل دمشق يستحسنون هذا
الطريق كثيرا وأكثرهم استحسنانا له وفسحة فيه المغرمون بركوب الخيل
فانهم يروحون ويغدون على خيولهم يرتعون ويلعبون في هذا الطريق
الجميل بذلك نختتمنا رحلة هذا اليوم وما كاد يجيء صبح اليوم الثاني
حتى حضر الينا في الفندق جم غفير من ذوات المدينة وأصحاب
الحيثيات الكبيرة فيها وقد كنا تهيأنا للسفر فما زال هؤلاء الكرام
معنا حتى ذهبنا الى المحطة

(في محطة دمشق)

جلسنا هناك في غرفة الاستراحة بين الذين كانوا جاءوا الى المحطة

للاحتفال بوداعنا مسافة تتبادل الحديث، وفي تلك الأثناء جاء إلينا أحد موظفي الحكومة يحمل معه سلام دولة الوالي واعتذاره إلينا عن عدم حضوره بذاته بأنه مريض لا يستطيع السير إلى المحطة فشكرنا له هذه العناية الجليلة والارحية الجميلة وقلنا لذلك المندوب على مسمع من كل الحاضرين ان شاء الله سيزول مرض الوالي ويحصل له تمام الشفاء والنشاط عندما تفارق هذا البلد ونسافر، ولما آذن القطار بالرحيل قمت فودعت جميع الذين كانوا قد حضروا لتوديعنا من علية القوم وحينئذ كنت أسمع منهم عبارات الأسف الشديد مما كان حصل من الوالي أولا وآخر: أما أنا فأجبتهم بأنني ماجئت إلى بلاد الشام لزيارة الحكومة ولا رجالها وأنه عندي مستوى أن أرى عناية الحكومة واحتفالها وأن لا أرى شيئا أصلا لأن الحكومة كل الناس يعرفون أنها كالأعراض دائما متغيرة لا تثبت على حال واحدة وأنها تتقلب على مبادئ مختلفة تلتئم مع الظروف الحاضرة مثل السفينة التي تجري في البحر على حسب ما تقتضيه الرياح وتشتهى الأهوية وقد تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، وإنما جئت بلاد الشام لا أقصد إلا زيارة أهلها واكتساب معرفتهم ومحبتهم وحسبي أني والحمد لله اجتمعت في هذه الرحلة السعيدة بأمثال حضراتكم فسأعود الآن من سفري

هذا الى بلادى بأكبر غنيمة وأربح صفقة قلت لهم ذلك وأنا لا أقدر
 ما كان يختلج فى صدرى من السرور ولا أستطيع أن أعرب عن
 امتنانى مما لاقيته من عناية أولئك القوم التى كانت ألمع بزهان على
 شدة تعلقهم بنا واخلاصهم لنا ولأسرتنا كيف وانهم سادة البلاد
 وأصحاب الشأن والكلمة فيها على أنى ختمت مقالتي لهم بأنه لا ينبغي
 للإنسان أن يمتعض من الحاكم ويغتاظ عليه لمثل هذا الامر قبل أن
 يتبين سببه لعل له عذرا وأنت تلوم وما يدرينا اذا كان الوالى فعل
 ما فعله من تلقاء نفسه أو كان مجبورا ومرغما عليه من قبل أصحاب
 الحل والربط فى البلاد وأنا عند ذلك الاخير أقول اذا كانت الحكومة
 تريد من وراء عملها هذا كسر شوكة الأسرة الخديوية والخط من
 كرامتها فى عيون الناس فليس فى وسعى حذاء ما تبغى الحكومة سوى
 الصبر والسكوت وهو أحسن ما يكون جوابا فى تلك الحال، والاف
 ذا ينفع القيل والقال وقد أصبحت البلاد كما تعرفون لا أقول انها
 بلاد فوضى أو خالية من العظماء والعقلاء والحكام والأمراء ولكن
 كلنا لانجهل أن الاختلاف على المبادئ والغايات كثيرا ما يوجد
 الاشتباه والالتباس ويوجب تفرق الكلمة ويذهب بوحدتها بين
 الناس خصوصا اذا هم اختلفت شعوبهم واضطربت مضاربهم

وآراؤهم ومن ثم لا تجدى الشكاية من امرئ يزعم أن أكبر المبررات لعمله اعتماده على جانب غيره واطمئنائه الى قوته ونفوذه أمره ولذلك أنا أفضل من الآن الرجوع الى مصر دون أن ألوى في طريقى على مكان آخر على أن أتم رحلتى فى بقية البلاد فانى أحسب أن هذا أحفظ لكرامتى وخيرلى مما عسانى أصادفه فى حكومات الشام وعندئذ قالوا جميعاً: خفف على نفسك فالأمر أهون مما تظن وسافر على بركة الله الى ما شئت من البلاد فانك سترى ان شاء الله من الآن ما يسرك ويرضيك حيث أقمت وحيث ارتحلت فليس فى طريقك من هنا الى بعلبك وحمص وما بعدهما الا قومنا وأبناءنا الذين منهم المتصرفون والحكام وانك ستجد من عنايتهم واحتفائهم العظيم بمقامك الكريم ما أنت جدير به فشكرت لهم هذا المعروف الكبير والاخلاص المتناهى مرة بعد أخرى . ثم قام القطار وهنا كان آخر رحلتى فى مدينة دمشق وعاصمة الشام الكبيرة . وقد كان يودى لو أن تطول اقامتى فيها لأتجول فى جميع ضواحيها ونواحيها وأطراف أيضا على مدارسها النظامية ومعاهدها الدينية ومعاملها الصناعية ومكاتبها ومطابعها وأواقي القراء فى رحلتى بتفصيل ذلك كله غير أن الوقت كان مع الأسف ضيقا لا يسمح لى بأكثر مما كان على أنى كنت ألاحظ فى أثناء مرورى

في طرقات البلد من داخلها وخارجها أن أغلب السكان من الطوائف
الاسلامية وأن عدد المسيحيين بالنسبة اليهم قليل جدا كعدد المسلمين
بالنسبة الى سكان لبنان أو هو أقل من ذلك أيضا .

(طريق السفر الى بعلبك)

مرّ بنا القطار في سهل البقاع الذي سبق الكلام عليه حتى وصل
الى محطة الرياق التي أسلفنا أن القطار يقف عندها زمنا يكفي المسافر
لأخذ غايته من طعام الغداء وقد كانت المسافة من هذه المحطة الى
مدينة بعلبك أقرب مسافة بين المحطات، ورأينا في انتظارنا على افريزها
سعادة عبد الحميد باشا الدروبي لمناسبة أننا كنا وعدناه بزيارتنا له في مدينة
حمص التي هي بلده وهو سيدها وأكبر واحد فيها وكان معه في استقبالنا
قائم مقام بعلبك وحضرة مطران بك أحد أسرة مطران الشهيرة في بلاد
الشام وان شاء الله سند كرنبذة من تاريخ هذه الاسرة الفخيمة وبعد
أن تناولنا جميعا طعام الغداء الذي كان مجهزا مع جميع أدواته نزلنا
في القطار الذي ما فتئ يعبث بالارض وينفذ كالسهم في كبد الفضاء
حتى وصل الى محطة بعلبك وكان الزمن الذي استغرقناه في طول
المسافة بين الرياق وهذه المحطة لا يزيد عن ثلاثة أرباع الساعة

(مدينة بعلبك)

هذه المدينة ترتفع عن سطح البحر نحو ١١٧٠ متراً وهي قائمة في الجانب الشرقي من وادي اللباني وهو واد خصب التربة جيد المعدن جداً ثم ان هذه المدينة وان كانت قديمة التاريخ مشهورة في سورية غير أنها صغيرة لا يزيد عدد سكانها عن خمسة آلاف ومائتي نفس خمسهم من طوائف المسيحيين، وهي قصبة قضاء باسمها تابع لواء دمشق وفيها حامية صغيرة وديران روميان وأنحران مارونيان ومدرستان للبنات أحدهما لراهبات القديس يوسف والأخرى للبعثة الانجليزية وفيها أيضاً مسلج ومزارات لبعض الأولياء وروضة أنيقة ونبع يسمى برأس العين وهو من أجمل المتنزهات ومأواه عذب لطيف وفيها من الآثار المهمة والعجائب التاريخية قلعة بعلبك التي هي من أعجب مباني العالم وأغلب الآثار السورية بعد تدمير وسيأتي لنا عليها كلام بعد قليل مما سندكره في تاريخ تلك المدينة .

(تاريخ المدينة)

أصل مدينة بعلبك غير معروف وقد وجد اسمها ضمن كتابة قديمة عثر عليها في الآثار الآشورية والمصرية ويؤخذ من هذه الكتابات أن المدينة كانت مخصصة لعبادة الإله بعل، وكان اليونان يقولون ان بعلا

هذا هو نفوس اليوس اله الشمس ويفسرون بعلبك بـ (اليوبوليس) .
ولما أن جاء الرومان قالوا ان اليوس هو المشتري وكانوا يمثلونه بشاب
أمرد أمامه ثوران وفي يمينه سوط وفي يساره صاعقة وبعض من
سنابل القمح وفي عهد الملك أوغيست اعتبرت المدينة مستعمرة
رومانية كما يدل على ذلك بعض نقود القرن الأول التي وجدت تحت
الجدران . وفي عهد الملك انطونيوس الصالح من سنة ١٣٨ الى
سنة ١٦١ بعد الميلاد شرع في بناء معبد لآلهة اليوبوليس الثلاثة
المشتري والزهرة وعطارد ، ولكن لم يتم بناء ذلك المعبد الا في عهد
(كراكلا) سنة ٢١٧ . ثم بنى بعد ذلك معبد الاله با كيس إله الخمر
ولما جاء عهد الامبراطور قسطنطين الاول محيت عبادة الزهرة وذلك
كان من سنة ٣٢٤ الى سنة ٣٣٧ . وفي عهد الامبراطور بتودوز
الذي كان من سنة ٣٧٩ الى سنة ٣٩٥ هدم بأمر منه المعبد الكبير
بعد أن كانت الزلازل قد نالت منه مرادها أيضا ثم بنى الامبراطور
في موضعه كنيسة وقد وجد في ضمن الآثار كتابات يذكر فيها بعض
أساقفة اليوبوليس . وفي القرن السابع استولى على المدينة بطل المسلمين
أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه بعد أن دارت حرب بينه وبين بطريق
يسمى هربيس أرسله هرقل عظيم الروم وكان هربيس هذا رجلا

شديد البأس شجاع القلب ولكنه لم تنفعه شجاعته ولم تغنه كثرة قومه وجنده والمسلمون يومئذ أشد بأسا وأشد تنكيلا وكان عليهم من أمراء الجيش وقواده خالد بن الوليد وعمرو بن معدى كرب الزبيدي ورافع ابن عبد الله السهمي من سادات قريش فنصر الله المسلمين وأيدهم بعد ما كان حمى وطيس الحرب بين الروم والعرب وحصر العرب الروم حصارا شديدا ضايقهم حتى انتهى الأمر بانهمزاهم واستكانتهم وخضوعهم لشروط الغالين، وقد ثار الروم أخيرا بالطريق هربيس زعيمهم فقتلوه وانضموا للإسلام وتم الفتح للمسلمين واستخلف أبو عبيدة على بعلبك رافع بن عبد الله السهمي وأوصاه على عادته بالعدل والاستقامة، ويعتقد العرب أن القلعة من بناء سيدنا سليمان وقد بنوا فيها حصونا كان لها أهم تأثير في حروب القرون الوسطى وفي سنة ١١٣٩ استولى الأمير محمود زنكي على المدينة والقلعة، وفي سنة ١١٧٥ استولى عليهما أيضا السلطان صلاح الدين وفي سنة ١٢٦٠ خربها المغول تحت رئاسة هولاكو وجاء بعده تيمورلنك فأجهز عليها، أما بناء المعابد فقد وجدت نقود من عهد الامبراطور (سبيتم سفير) سنة ١٩٣ الى سنة ٢١١ وكذلك وجدت نقود من العصور التي تلى عصر هذا الامبراطور وعليها كلها صورتا

المعبدين ولكن مع هذا لم يعلم بالتحقيق متى كان تم بناء المعبد الكبير وقد وجدت كتابة من عهد انطونيوس الصالح تدل على أن المعبد الكبير كان لجميع آلهة اليوبوليس، وأما المعبد الصغير فكان خاصا بالاله باكيس وعلى كل حال فان بناء المعبدين ينتهى تاريخه الى عصر واحد وقد هدمت جميع تلك المباني فيما جاء من العصور بعد ذلك وفي القرن السادس عشر عثر بعض الأوربيين على آثار المعبدين ومنذ ذلك الوقت تناوبتهما الزلازل خصوصا في سنة ١٩٥٩ وقد أظهرت مباحث علماء الألمان من سنة ٩٠٠ الى سنة ٩٠٤ كثيرا من الآثار المفيدة .

(من المحطة الى الفندق)

نزلنا في محطة بعلبك فوجدنا في استقبالنا على افريزها عددا كبيرا من أعظم البلد وأعيانها وأهاليها وكان في مقدمتهم نقيب السادة الأشراف وبعض أسرته وجناب أسقف الروم الكاثوليك فرحبوا جميعا بمقدمنا وشكرناهم ثم ذهبنا الى الفندق بينما كان الطريق من المحطة اليه غاصا بالأهالى ومد وصلنا اليه طلبنا من صاحبه ما يكفيننا وضيوفنا من الغرف ولم تمض علينا فيه الا برهة صغيرة ثم توجهنا نرد زيارة من كانوا زارونا واستقبلونا على المحطة فبدأنا بزيارة أسرة مطران بك

ثم نقيب السادة الأشراف، وقد دُعينا من جانب الأول لتناول طعام
العشاء عنده في مساء ذلك اليوم فأجبناه شاكرين له حسن عنايته
ومعروفه، وحين فرغنا من تلك الزيارات ذهبنا وكنا اذ ذاك في وقت
العصر الى الترويض والفسحة في روضة أنيقة يمر في وسطها نهر غاية
في العذوبة والصفاء وقد اجتمع لأجلنا هنالك عدد كبير من الفرسان
على خيلهم الجميلة ثم أخذوا يلعبون أمامنا على جملة طرق كان منها
طريقة الهجوم وكان البعض من تلك الخيل حروريا كريما فسررت
كثيرا من الأعيبهم وأكثر ما سرتني أنى شاهدت بين هؤلاء الفوارس
جملة من الشبان للأحداث الذين لا يزيد عمر أكبرهم عن ١٤ سنة
وكانوا يلعبون الأعيب مدهشة بمهارة فائقة وقد مكثنا نشاهدهم
معجبين بما كانوا يأتونه من ضرب الفروسية ريثما جرى لنا
بالقهوة ثم ذهبنا الى حضرة أسقف المذهب الارثوذكسي (وهذا
المذهب يحتوى أبناءه بحماية دولة روسيا) فاستقبلنا حضرته استقبالا
جميلا مع بعض رجاله ومد جلسنا قام شاب من تلاميذ مدرستهم
وألقى بين يدينا خطابة رشيقة اللفظ كانت تختصر عباراتها في الترحيب
بنا وبيان ما شمل القوم من السرور بزيارتنا لبلدهم، فشكرنا لحضرة
الأسقف وحاشيته لطفهم وأدبهم ثم خرجنا من عندهم مودعين بكل
بخفاوة واخترام حيث قصدنا الى بيت آل مطران ،

(أسرة مطران)

هى أسرة كبيرة قديمة كاثوليكية المذهب هاجرت من زمن بعيد من حوران الى الشام ثم توطنت بعلبك ولم تزل فيها منذ أربعائة سنة ويحكى أن جد هذه الأسرة كان المطران ايفانيوس أسقف بعلبك الذى حضر المجمع الأسقفى المعقود فى قرية الراس ضد البطريرك كيرلس الدباس فى سنة ١٦١٨. ومما ثبت بشهادة البطريرك مكاريوس الحلبي أن المطران ايفانيوس المذكور كان ذا أولاد فمن سلالة آل مطران الذين نحن بصددهم، ولهذه الأسرة التى مضى عليها نحو أربعائة سنة وهى فى بعلبك تتناوب المجد وتتوارث الفضل والنبل الى اليوم، تاريخ طويل رأينا أن نكتفى منه بالقدر الذى ذكرناه ليعرف القراء من هم آل مطران الذين دعونا ونحن ذاهبون اليهم الآن اجابة لدعوتهم. ومذ وصلنا الى بيتهم رأيناه من أجمل البيوت وكان فوق حسنه الدائق وجماله الموضعى غاية فى الزخرف والزينة وفيه ثريات كثيرة يكاد يبيض منها وجه الليل الحالك. وحين جلسنا فى قاعة الاستقبال جاء الينا حضرة البك يعرفنا بقرينته المصونة على حسب العادة ثم دعينا الى المائدة واذا ذاك أخذوا يشعلون السواريح ذات الألوان البديعة التى كانت تمثل فى صعودها وهبوطها جملة أشياء مختلفة رائعة حتى

اتهيينا من تناول الطعام الشهي ونخرجنا الى مجالسنا ريثما تعطينا القهوة ،
ثم انصرفنا مودعين من تلك الأسرة الكريمة بمثل ما استقبلنا به حيث
ذهبنا لواجهة لنا الا الفندق ثم ما لبثنا هناك أن جاء الينا جناب ميخائيل
افندى موسى الوف البعلبكي مدير مصلحة الآثار التاريخية في مدينة
بعلبك فاستقبلناه وقد عرفنا بنفسه ووظيفته فسررت من هذا التعريف
لأنني كنت مصمما على زيارة الأثر الغريب في هذا البلد وهو المسمى
بقلعة بعلبك أو المعبد القديم ، أما هذا الزائر فقد كان عالما أثريا يكاد
يتوقد فطنة وذكاء عرفت ذلك مما كان يدور بيني وبينه من الكلام
الذي كان يتناول بعض العموميات تارة وبعض الخصوصيات تارة ،
أخرى ثم انه خرج من عندنا على نية أن ينتظرنا عند الأثر ليرشدنا فيه
الى ماعساه يخفى علينا وعلى ذلك انتهت رحلة اليوم الأول في تلك
المدينة ولما أن جاء صباح اليوم الثاني توجهنا الى زيارة القلعة وكان
في انتظارنا هناك مدير الآثار المذكور فأخذ يسرد لنا قصتها وتاريخها
من أول الأمر الى آخره ويشرح عجائبها وغرائبها شرحا وافيا ضافيا ،
ومن ذلك أن هذه القلعة أو المعبد القديم كان قبل الآن مغمورا
معظمه بالأنقاض والأتربة حتى ما كان يظهر من معالمه الأثرية
الملهشة سوى جزء صغير وما زال كذلك حتى أتاح الحظ لبعلبك أن

زارها جلالة غليوم الثاني امبراطور الالمانيين ومذ رأى أن المعبد كما وصفنا ليس ظاهرا منه الا شئ قليل توجهت همته لكشف هياكله واظهار تماثيله ومعالمه ليعود الى سيرته الاولى فوجه من أجل ذلك بعثة علمية تتألف أعضاؤها من خير مهندسى حكومته ويرأسها أحد مشاهير العلماء فأخذت هذه البعثة فى البحث والتنقيب عن الآثار تحت أطباق الردم والتراب حتى كشفت ما هنا لك للرومان والأوثان وما تم بعده على يد البيزانطيين ودين المسيح ثم مازاده من البناء غزاه الاسلام ويقال ان هذه البعثة الألمانية استمرت تشتغل فى تلك المهمة نحو سنتين وأنها اشترطت أن تأخذ لنفسها فى نظير ذلك العمل كل ما تعثر عليه من الآثار ذات القيمة متى كان يمكن لها نقله من جهة الى أخرى. وقد ذكر لنا أيضا أن العرب والأتراك كانوا قد اتخذوا حصنهم الحصين من ذلك المعبد مدة حرب الصليبيين وأنهم هدموا ما كان يحيط به من البناء الذى كان يستطاع تسلقه وكان غرضهم من ذلك تحصين القلعة وزيادة منعتها .

قلعة بعلبك

هذه القلعة قائمة فى الجهة الغربية من المدينة وهى مغطاة بآثار المعبدین وقد تقدم ذكرهما ، قصدنا الى تلك القلعة وقد كنا قبل أن

بدنو منها نشاهد منظرا ضخما وبناء شاهقا لم نرله مثيلا فما برحنا نردد النظر حوله حتى اذا صرنا منه على مسافة أمتار أفزعنا شكله في مجموعه ورؤعا ما رأيناه من أصوله وفروعه وما زال يزداد عجبنا وتعظم دهشتنا كلما تدانينا منه حتى بلغنا اليه فرأينا ذلك المنظر المهول وقد تحللت جملة وتفككت كليته بين حديقة وأغراس جميلة الا أنها من الأوضاع الحديثة رادنا رئيس الآثار الى القلعة حيث دخل بنا اليها من باب كبير على جانبه من اليسار واليمين بابان صغيران فوصلنا الى ساحة مستدسة الشكل وفي جميع جوانبها آثار أعمدة يفيد ظاهرها وبعض شئ لا يزال باقيا عليها أنها كانت مكسوة (بالموزاييك) وعند كل من الجانبين الشرقي والغربي حجر صغيرة حوّلها العرب الى حصون ومنافذ ضيقة لارسال السهام ومن تلك الساحة المستدسة يدخل الى ساحة المذبح بعد اجتياز ثلاثة أبواب منها اثنان متهدمان أما الثالث وهو أصغرهما فلم يزل قائما على حاله ويظهر أيضا أن هذه الساحة كانت محاطة بأعمدة مثل التي تقدّمتها وأنه لا يزال يوجد فيها آثار بعض غرف على الجانبين الشمالي والجنوبي وقد تأملنا الجدران في الساحتين فوجدناها آخذة من الزخرف والزينة بالصناعة الدقيقة ما يفوق الوصف ثم ان في تلك الجدران محاريب كانت معدة لوضع الأصنام ولم يزل بعض

الحجرات الى اليوم مسقوفا وحافظا لشيء من جمال سقوفه ويظهر أن تلك الغرف كانت معدة لايواء بعض زائري المعبد وفي وسط الساحة تقريبا يوجد مذبح كبير لم يظهر الانصفه وبعض الدرج التي كان الكهنة يقفون عليها عند تقديم القرбан أما النصف الثاني من ذلك المذبح فلا أثر له، ويقال انه هدم لادخله ضمن الكنيسة التي بناها بيتودوز، ويوجد على المذبح حوض المعمودية الذي صنعه الامبراطور المذكور أيضا وفي جنوب ذلك الحوض يوجد حوض آخر يظهر أنه كان للاستحمام، ولم يبق الا شيء قليل من آثار المعبد الكبير الذي كان مخصصا لجميع آلهة اليوبوليس، وأهم هذه البقية ستة أعمدة هائلة ويوجد في الجنوب الشرقى من هذه الأعمدة معبد باكيس وهويكاد يكون وحده الأثر المحفوظ وربما كان من أحسن الآثار القديمة في جميع البلاد السورية، وهو مستقل تمام الاستقلال عن المعبد الكبير وأقل منه ارتفاعا وليس له ساحة ويصعد اليه بسلم ذى ثلاث درجات وسقفه مصنوع بغاية الاتقان يمثل مسدسات فيها بعض صور محي معظمها بمرور الزمان وفي الجهة الغربية توجد أعمدة لاتزال باقية حتى الآن ويوجد في تلك الجهة نفسها بعض قطع هائلة من السقف، ومن الجهة الشرقية يوصل السلم المذكور سابقا الى دهليز

على جانبيه أعمدة ومن ذلك الدهليز يصل السائر الى باب المعبد الداخلى وهو باب جميل الصنع جدّا وعلى جانبي الباب الكبير بابان صغيران وبأعلاهما يمتدّ على طول الجدار افريز جميل يظهر أنه كان مزدانا بنقوش بارزة. أما الهيكل الداخلى فقد رأيناه متهدّما الا أنه فى الجهة الشمالية كان أقلّ تهدّما منه فى الجهة الجنوبية على أن النقوش التى كانت على هاتين الجهتين لا تختلف عنها فى بقية الجهات كما أن مارأيناه من تيجان الأعمدة فى كل جهات المعبد كان أيضا لا يمتاز عن تيجان الأعمدة فى الجهتين السابقتين، ورأينا فى تلك الجدران أيضا عدّة محاريب كانت لوضع الصور والتماثيل وقد وضع فى احداها لوحة من الرخام منقوش فيها كتابة بالتركية والالمانية تذكرا الزيارة امبراطور المانيا، ويوجد أمام واجهة هذا المعبد مبان عربية حديثة العهد بعضها مبنى بأنقاض أخذت من نفس القلعة ويؤخذ من شكلها أنها كانت حصونا وكانت فى الأصل أقبية ويقال انهم كانوا جعلوها كذلك بقصد أن تكون مخازن وفى طريق العرب الموصول الى تلك الحصون توجد عدّة غرف متقنة الصنع جميلة النقوش ثم ان آثار المعبد الكبير كانت محاطة بسور هائل على بعد عشرة أمتار من المعبد وكان هذا الفضاء مملوءاً بأحجار ضخمة كما يشاهد ذلك فى الجهة الشمالية

ويظهر أن هذه الأجار الكبيرة كانت مهئية لأن تستعمل في مبان أخرى، ويوجد في تلك الجهة حفرة يمكن لمن نزل إليها أن يرى الأجار العظيمة التي كانوا وضعوها في أساس البناء أما ذلك السور الخارجى فانه مبنى بحجارة خارقة للعادة اذ يبلغ سمك الحجر الواحد منها أكثر من أربعة أمتار، وفي الجهة الشرقية للقلعة يقوم المعبد الصغير المسمى معبد الزهرة وهو مستدير الشكل ويصعد إليه بسلم واقع في الجهة الشمالية منه وهو معبد جميل في داخله نقوش بديعة ونقوش مشابهة لنقوش المعابد القائمة في القلعة وفيه أيضا محاريب لوضع التماثيل. وكان ظاهر هذا المعبد أجمل من باطنه فانه يحيط ذكرى الصناعة الرومانية في العصور المتأخرة ثم هو نحاسي الشكل وجوانبه مستديرة في الداخل وتحيط به من الخارج أعمدة على رؤوس الزوايا وبأعلى الجدار افريز مزخرف بأكاليل الزهر، وقد استعمل هذا المعبد فيما سبق كنيسة رومية كما يدل على ذلك بقايا الصليبان التي لا تزال آثارها ظاهرة على الجدران

اهداء مدير الآثار

وبعد أن انتهينا من زيارة القلعة من الخارج والداخل شكرنا مدير الآثار معروفه وخدمته الجلييلة التي أداها لنا أثناء ما كنا نزور تلك القلعة

وقد توج بحيله بأن أهدانا ونحن خارجون كتابا مطبوعا في تاريخ بعلبك من تأليفه، وهو كتاب جليل حوى في موضوعه أحسن المسائل التاريخية الحاضرة والاثرية لهذه المدينة العتيقة، فتقبلنا منه هديته بالشكر والثناء.

كلمة عن القلعة

يخرج السائح من قلعة بعلبك بعد أن يتطوّف على دوائرها ويتعرف بواطنها بعد ظواهرها ويتفقدتها من أولها إلى آخرها وأنه لقد حار في الأمر فكره وضاق بالعجب صدره، وبعد أن كانت المسألة عنده قاصرة على نخامة القواعد وضخامة المباني تحولت إلى بحث واسع في موضوع علمي حافل بجليل المقاصد وجميل المعاني، وبعد أن كان ذلك الزائر يحصر نظره كله في دائرة لا تزيد عن أطوال وأعراض ومهارة عمال وشطارة مهندسين، صار يجول في محيط عظيم من أطوار وأغراض السريانيين والكلدانيين ومما كان أصاب الناس من ضروب المذلة والمهانة في العصر الماضي عصر الاوثان والكهانة تلك التي كان للكهنة فيها تأثير في سياسة الممالك مثل تأثير القياصرة والملوك أو هو فوق ذلك. وقد كان هذا التأثير نفسه هو الأصل الذي عليه ترتكن الحكومة عند ما كانت تعتمد إلى تشييد تلك المباني الضخمة مثل

قلعة بعلبك^٤ وحلب في الشام والأهرامات ومعبد الكرنك ومدينة
 هب في مصر وغير ذلك من الحصون والمعابد والمقابر التي نراها فيفزعنا
 منظرها ويهولنا شأنها والتي لا تزال تتجلى فيها فكرة مؤسسيها وواضعيها .
 يمر بعض الناس بهذه الآثار المدهشة مر الكرام على اللغو من الكلام
 وغاية ما في الامر أنهم يعجبون من مناظر هذه الأشياء وظواهرها
 لأنهم لم يعرفوها في عاداتهم ولم يألّفوها في قدرتهم مثل اتقان البنّان
 واحكامه الى حدّ أن سن الابرة لا يمكن أن ينفذ بين مدا ميكة وسافاته ،
 أو قدرة البنّائين والفعلة الى درجة أنهم يرفعون تلك الحجارة الثقيلة
 الهائلة الى مسافة عظيمة حين لم يكن لديهم آلات لجر الأثقال
 ورفعها وما أشبه ذلك ، ولكن الوقوف عند هذا الحدّ من مثل هذه
 الأعمال الخطيرة المفزعة قصر في النظر ثم هو عن الضالة المنشودة والغاية
 المطلوبة بمراحل طويلة بل هو في نظري لا يزيد عن حدّ الوقوف
 عند العاديات الا بمقدار ما يسافر الفكر الى ارتياد العلل وطلب
 الأسباب ، أما من عني بالبحث والتدقيق واستنتاج الحقائق بالتحقيق
 فانه لا يكتفي بتلك المناظر ولا يهيمه الالتفات الى مجرد الظواهر ، ولا يدع
 مثل قلعة بعلبك تغفلت من يده حتى يدور نظره حولها مرارا ويعتصر
 فيها فكره اعتصارا فينتفع من أجزائها وجملتها وعمدتها وفضلتها بمعرفة

ملا يمكن أن يعرف الا من طريقها، ومن ثم نورد هنا كلمة فيلسوف
بحاث في حصن بعلبك وهياكله لا يقصد أن نفيد أن هذا هو منتهى
ماوصلت اليه الأفكار وآثر مااستقر عليه الرأي أو أن نشير الى القطع
بشيء مخصوص في موضوع لا يزال الى اليوم مطروحا على بساط
البحث والنظر أمام المفكرين من علماء الآثار والأخبار وغيرهم، وإنما
ذلك لأن هذه الكلمة الطيبة في حد ذاتها خلاصة بحث واسع ونتيجة
فكر سليم قال ذلك الفيلسوف ان هذه الهياكل القائمة في معابد القدماء
و حصونهم سواء الموجود منها في صعيد مصر وفي بلاد الشام تشير
الى ما كان عليه السريانيون والكلدانيون قبل الطوفان وبعده من غلوهم
في الوثنية وعبادة الأصنام وهى مع هذا تشير أيضا الى قوة هؤلاء
الناس وبأسهم في غابر الزمان واستعصائهم على الأنبياء والرسل
بعد أن أرشدوهم الى الحق وأوضحوا لهم سبل السعادة، ومن هؤلاء
الرسل الكرام النبي الياس عليه السلام كان قد طلب الى قومه أن
يتركوا عبادة الصنم بعل وأن يعبدوا الله عز وجل فعصوه واستمروا
عاكفين على عبادة الصنم المذكور، قال تعالى (أتدعون بعلا وتذرون
أحسن الخالقين الله ربكم ورب آبائكم الاولين)، وخوف أن يصيروا
سدا بين نور الله والناس أغرقهم الله بالطوفان وأرسل عليهم العذاب

الآليم في أزمان مختلفة، وتقادم عهد الزمان وآثارهم العظيمة لاتزال
 باقية تنادى عليهم بالويل والثبور وانهم مع ما أوتوا من القوة والبطش
 لم يعصموا أنفسهم من بأس الله اذ جاءهم فلئن كانوا أولى بأس وقوة
 فالله أشد بأسا وأشد تنكيلا ولما كانوا ظاهرين في الأرض بالقوة
 لاستحوذهم على ضعف العقول وكان في ذلك من ضرر النوع
 الأنسانى ما فيه أشار الله في كتابه الى ذم صنمهم القائم في أرض الشام
 أبان ظهور الدين الاسلامى فقال أتدعون بعلا الآية فالقرآن يشير
 الى أن الوثنية كانت قائمة هناك وغير القرآن من الكتب يشير أيضا
 الى ذلك اذا فاهياكل وطيدة الأركان قائمة الدعائم ضخمة البنيات
 هنالك من أزمان متوغلة في القدم ولا يناطح الزمان الا مثله في القوة
 والبأس، ولقد اكتشف الألمان في هذا الزمان الآثار الموجودة
 في بعلبك وأمكنهم أن يصلوا الى السر الذي عجز عنه الأولون ولو كان
 انكشف لهم في سالف الزمان ما كانوا قضوا أجيالا كثيرة وأحقابا
 طويلة وهم ملازمون للوثنية عاكفون على الأصنام وما كانوا نازعوا
 رسل الله نزاعا شديدا ولا يحدوا رسالة ربهم وكفروا به وما كان تأخر
 العمران وانتشار الحضارة في الأرض، لقد علم الالمانيون بالبحث
 الدقيق أن جوف الصنم بعل أجوف وفيه فتحتان فتحة من أمام

وفتحة من وراء وأن رئيس الكهنة هناك كان يسيطر على الأمة كلها ملكها ومملوكها وكانت له الكلمة النافذة التي لا استطاع ردها ولا يمكن معارضتها وذلك أنه كان اذا استشير في أمر خطير يهيم الملك والمملكة قال حتى نتقرب الى الصنم وندعوه ويأذن لنا في هذا فان لم يأذن فلا يكون هذا الأمر ثم يذهب بعد ذلك الى خادم خاص بالصنم منعزل عن الناس عاكف على الصنم واقف في خدمته ويقول في غد آتى الى هنا مع الملك وأشياعه ونقرب القربان الى الصنم وندعوه أن يبين لنا ما نحن بصددده أنمضى في الأمر أم لا نتمضى فيه فاذا نحن جئنا وخشعنا أمام الصنم ودعونا فهناك تكون قد وضعت البوق الطويل في الفتحة التي من خلفه قائلاً كذا وكذا فما يكون من ذلك الخادم الا أن يصدع بأمره ويقوم بما أوحى اليه رئيس الكهنة ولا يقول الا ما أذن له في قوله حين وقوفهم بين يدي الصنم واستشارتهم اياه فلا يحصل أمر الملك والمملكة الا كما يسمعون من الصنم وعلى هذا النمط كانت أمور الكهنة مع الأمم في سائر الأرض الوثنية ومن هنا تعلم أن الوثنية كانت جرثومة الفساد في الأرض وأصل الظلم العظيم ولذلك حاربها الله تعالى محاربة شديدة حتى يرجع الناس الى الاعتماد على عقولهم التي ركبت فيهم وعلى أنفسهم وحتى لا يخذعهم خادغ

ولا يصرفهم عن مصالحهم التي بين أيديهم صارف فينتظم الكون
وينتشر العمران في الوجود، ولقد بالغ محمد صلى الله عليه وسلم في التنفير
من الكهانة والابتعاد عنها كثيرا وما حكمة ذلك إلا أن تجرى الناس
على سنن الطبيعة وفاق الفطرة والمصلحة، تلك سنة الله في خلقه فهو
يردهم إليها إن انحرفوا عنها ولن تجد لسنة الله تبديلا

إلى المسجد

ومن هذه القلعة ذهبنا إلى المسجد لتأدية فريضة الجمعة حيث كنا
على وشك الصلاة، وهناك رأينا في انتظارنا عددا كبيرا من عظماء القوم
في مدينة بعلبك يتقدمهم حضرات أصحاب الفضيلة والسعادة نقيب
السادة الأشراف، وقائم مقام بعلبك وعبد الحميد باشا الدروبي، وبعد
ما فرغنا من أداء الصلاة قصدنا إلى الفندق مباشرة فتناولنا هناك طعام
الغداء وجلسنا بعد ذلك ريثما أخذنا أهبتنا للسفر، ثم ذهبنا على عرباتنا
إلى المحطة التي كانت مكتظة بالموذعين من حكام المدينة وعلية الناس
فيها فسلمنا عليهم، وقد رأينا من عنايتهم وعناية الأهالي بتوديعنا ما كان
لا يقل عن ترحابهم وحفاوتهم بنا عند الاستقبال أما نحن فقد بارحنا
هذا البلد على غاية من السرور شاكرين لأهلها الكرماء ما قابلونا به أولا
وآخرا من اللطف والمعروف

السفر الى حمص

نزلنا من القطر وما هي الا لحظة عين وقد تحرك متجها مع سلامة الله الى حمص وكان طريق سيره بالقرب من نهر هناك يعرف بنهر العاصي وكان على جانبي الطريق بساتين أنيقة وزروع بهيجة تنعش الروح وتسّر الخاطر وقد صادفنا أثناء سيرنا قرية تسمى الياعات

الياعات

قرية واقعة في طريق حمص بين بعلبك وبلد تسمى برأس بعلبك وعدد سكانها يبلغ نحو ألف نفس وأهلها يستقون من بئر عذب جميل وقد اشتهرت هذه القرية بعمود أثري مركب من ١٦ حجرا فوق قاعدة درجية مربعة على قمته تاج قورنشي وعلو هذا العمود من قاعدته الى تاجه يبلغ عشرين مترا هو منفرد في السهل وليس حوله شيء من الآثار ويقال ان الذي بنى هذا العمود هو الملكة هيلانه أم قسطنطين الكبير اذ أنها كانت تشيّد في كل مرحلة من طريقها الى القدس أثرا ليوقد على رأسه نار ترى على مكان الأثر الأثر افتخارا واعلانا بكشف الصليب وما زلنا نواصل السير والطريق في الوادي كان يضيق تدريجا بين الجبلين اللذين كادا يتعانقان لولا كان يمنعهما الحياء فمررنا على جملة بلاد صغيرة ويقال ان في بعضها آثارا تاريخية حتى

وصلنا الى رأس بعلبك وهي على مسيرة نحو ٧٢ كيلو مترا من مدينة بعلبك هذه البلدة ترتفع عن منسوب البحر بنحو ٨١٠ متر ومعظم سكانها من طائفة الروم الكاثوليك وعندئذ كانت المنطقة سهلا مستويا فكانت تنكشف منها للمسافرين بحيرة حمص على مسافة طويلة فما برحنا نتابع السير حتى اذا قربنا من تلك البحيرة مررنا بكفر يسمى بالقاعة وعند تلك الجهة كانت الأرض في أكثر المواضع غير مزروعة وذلك لأنها فقدت خصوبتها بسبب مجاورتها للبحر وقد يوجد في بعض الجهات زروع الا أنها من الأعشاب والحشائش الطبيعية . وبعد ذلك وصلنا الى بلد يسمى بالقصير ثم ان بحيرة حمص هذه كبيرة متسعة حتى انها لم تفارق أنظارنا في طول هذا السفر الا بعد مسيرة ساعتين تقريبا وقد شاهدنا على مسافة بعيدة جبل عكار الذي سنتكلم عليه في موضع آخر من تلك الرحلة ان شاء الله وما فتئنا نتابع السير ونقطع الفيافي والبلاد حتى وصلنا الى محطة الكتينة ثم بارحناها فما لبثنا بعدها الا مسافة صغيرة حتى وصلنا مع سلامة الله ورعايته الى محطة حمص وهي على بعد ١١٠ من الكيلو مترات من مدينة بعلبك .

ملحق بقلعة بعلبك

صرنا والحمد لله عند مدينة حمص بلد صاحبنا الكريم عبد الحميد

باشا الدروبي فسترنا أن حقق الله رغبتنا في زيارته وأعاننا على اجابة دعوته وقد تركنا وراءنا مدينة بعلبك العتيقة وقلعتها الغريبة التي حوت من الآثار ما يدهش الألباب ويحير الأفكار والتي مارأينا في بلاد الدنيا أضخم من جارتها وعمدها ولا أبدع من نقوشها وصورها ولا أحكم من وضعها وبنائها .

بناء يخاف الدهر منه وكل ما ❀ على الأرض يخشى دائماً سطوة الدهر لقد كنا اذ دخلناها واذا خرجنا منها في حيرة الضب وأشد لا ندري كيف وصلت أفكار بني آدم الى تشييد مثل هذا البناء واحكام سافاته على سعة مساحته وبعد مسافاته وكيف أمكن لهم أن يقتلعوا تلك الأجار الضخمة والأعمدة الفخمة ويجروها من مقالعها الى مواضع البناء وربما وجد منها ما تبلغ مساحته ٣٠٠ متر مكعب أو ٤٠٠ متر كحجر الحبل الهائل الذي لا يزال الى اليوم قائما بجانب الجبل كأنه يدل السائح على مقلعه ويرشده الى موضعه ولسان حاله يقول

يا أيها الحيران في أمر الألى ❀ قد أدهشوك بأعجب الآثار
في بعلبك رأيت أبهر قلعة ❀ تتلو عليك غرائب الأخبار
لم تفهم الأفكار قصد بنائها ❀ فتشتت يا حيرة الأفكار
أنظر الى وأنت تعلم أنه ❀ عند الجنوب مقالع الأجار

نعم . اكدنا نفرغ من زيارتها حتى كنا قد اقتنعنا بمهارة القدماء
واقترارهم في فنون العمارات والصناعات خصوصا في الرسم والتصوير
فقد رأينا لهم نقوشا حفرية في الأحجار الصلبة والصخور الصلدة من
صور متنوعة وأشكال متعددة كان في ضمنها من صور الأشجار
والأغصان المورقة البديعة ما يمثل في تعاريجه بأدق صنعة وجه الأسد
ورأينا كذلك رسومات من أكاليل الزهر والحيوانات أبدع ما خطته
يد أبرع المصوّرين وأحسن ما جرى به قلم أصنع الرسامين إلى غير ذلك
مما لا يزال واضحا ثابتا يكاد ينطق بما كان لهم من البراعة الفائقة
في تلك الفنون الجميلة .

نبذة من أخلاق المتقدمين وعوائدهم

قد كنا أطلنا التأمل في هياكل القلعة وتماثيلها فلم ندعها حتى تلقينا
عنها درسا طويلا في أخلاق الحكام السابقين وعقائدهم وشيئ من
تقاليدهم وعوائدهم ، فعرفنا لهم من انحرافات الكثيرة والآراء الفاسدة
ماليس يتفق بحال من الأحوال هو وما كان يقتضيه علمهم الواسع
واقترارهم الكبير حيث كانوا يقطعون من الجبال حجارة ويصوّرونها
بأيديهم هياكل وتماثيل ثم يقيمونها ويعيدونها ويتقربون إليها ببذل
أنفس مالديهم من الأموال والأرواح ، ثم انهم كانوا يسمون كل هيكل

باسم مخصوص، وفي الغالب يكون هذا الاسم بما يرتبط بنفس ماله
 الهيكل من الموجودات على حسب زعمهم الغريب، فهم يسمون سيرس
 مثلاً بآلهة الزرع لأنهم يعتقدون أن لها تأثيراً فيه كما أنهم يسمون
 الزهرة بآلهة العشق وبأكيس باله الخمر، وهم جراء ولعل ذلك لأنهم كانوا
 لم يفكروا فيما وراء المادة ولم يوقفوا إلى البحث فيما يهديهم إلى العقائد
 السليمة والأفكار القويمية بل قصرُوا أنظارهم على ما كانت تتناوله
 حواسهم من الماديات والطبيعات، فظلوا من أجل ذلك عاكفين
 على عبادة الأصنام التي شيدوها وأقاموا عليها المعابد وتغالوا في بنائها
 وزحرفها إلى حد يدهش العقول،

ان الهياكل وهي رأى فاسد ❀ فيها دلائل قدرة العمال
 تلقى عليك دروس تاريخ الألى ❀ شادوا القلاع بأضخم الأثقال
 تعطيك منها للعقول وللهمى ❀ مثلاً يسير لآخر الأجيال
 قالوا التناقض يستحيل وجوده ❀ وبها رأيت تناقض الأمثال

ظلم الحكومات في الزمن القديم

نخرجنا من القلعة ووقفنا نتزود منها النظرة الأخيرة وعندئذ ما كان
 أشد حركتها في سكونها وأعظم فصاحتها في سكوتها إذ كان يخيل إلينا
 أن أصواتاً خافتة كأنها لا تزال خائفة تتصاعد من خلال الأبنية

الفخيمة ومن تحت قواعد الأعمدة الجسيمة والهياكل العظيمة قائمة؛
 أنظروا الى ما بقى من هذه المباني العالية ثم الى تلك الأطلال البالية
 تعلموا كيف كان مقدار قسوة الحكم وظلمهم في العصور الخالية ،
 حملنا فوق أظهرنا جبالا ❁ وشيدنا بها حصنا حصينا
 يقوم مدى الزمان أدل شيء ❁ على ظلم الملوك السابقين
 ويشهد أننا عشنا عبيدا ❁ وقاسينا العذاب به سنينا
 نعم وهل كان يرتاب أحد في أن هؤلاء العمال كانوا يساقون الى
 جر الأثقال من الجبال كما تساق الثيران والبغال ، ولا بد أنهم فقدوا
 الصبر وعيت بهم الحيل بعد أن استنصروا فلم يجدوا ناصرا
 واستصرخوا فلم يجدوا مغيثا رأيت لو أن أصحاب الأمر جعلوا بدل
 ما ان يقيموا من الحجارة مثل هذا البناء الهائل أن يقيموا من أجسام
 العشائر والقبائل التي ذهبت في سبيل الأغراض ضحية الأتربة
 والأنقاض ، أليس كانوا يسدون منها الفضاء ويبلغون بها الى عنان
 السماء ، رأيت أن نطقت هذه التماثيل النائمة والصور القائمة أليس
 كانت تنهر عن عدد الأرواح التي أزهرت في نحتها وقطعها وحملها
 ووضعها ولا ذنب يستوجب عقابها ولا جناية تستدعى عذابها سوى
 أنها خلق كريم من الانسان كان من حقه أن يشتغل بعقله ويستخدم

مواهبه فيما خلقت لأجله، ولكن ما كان أسوأ حظ هؤلاء المساكين في ذلك الوجود المظلم اذ عاشوا ما قدر لهم أن يعيشوا مسخرين لأرادة غيرهم عاملين غير فاعلين الا على مقتضى أمرهم ونهيمهم .
 هل كان يرضيك يا جوبتر ما صنعوا ❀ بالناس في غابر الأزمان والأثم أم كان يحسن يا فينوس ما نظرت ❀ عيناك من ظلمنا في خدمة الصنم الهة العشق ما ذقنا النعيم وما ❀ كنا لنذكر غير الذل والألم عشنا لنحمل أجارا وأعمدة ❀ طول الحياة ومتنا مودة الغنم هذه هي الأصوات التي كان يتخيلها الانسان تنبعث من ذلك المعبد القديم أو كان يسمعها من لسان حاله وما كان أبلغه في نطقه وأصدقه في مقاله

لسان المرء يكذب في كثير ❀ وأصدق ما يدل عليه فعله
 فينطق ساكنا نطقا صحيحا ❀ ويظهر منه باطنه وعقله

مدينة حمص

حمص مدينة يقال انها قديمة جدًا وان الذي بناها رجل يقال له حمص بن المهرب بن جان بن مكنف وقيل حمص بن مكنف العمليقي وقيل بناها اليونانيون، وفيها آثار كثيرة ومشاهد ومزارات ومساجد شهيرة منها مشهد على بن أبي طالب كرم الله وجهه ودار الفاتح الكبير

خالد بن الوليد . ويقال ان اهل حمص كانوا أشد الناس على عليّ
 بصفين وأكثرهم جدّا في حربه ثم صاروا بعد ذلك من غلاة الشيعة
 أما المدينة فقائمة على مستوى من الأرض وهى حصينة مقصودة من
 سائر الجهات جميلة الهواء والتربة ، كثيرة المياه والأشجار وأهلها من
 ذلك فى خصب ورغد من العيش ، ويقال انها فى قديم الزمان كانت
 أكبر البلاد وأحسنها وكانت بيد ملوك الروم الى أن ملكها كسرى فى أيام
 عطيانوش فى جملة ممالك من البلاد الرومية ولما انهزم الروم بعد وقعة
 اليرموك كان هرقل بمحص ففارقها وجعلها بينه وبين المسلمين وأمر
 عليها أميرا ولما حضر المسلمون دمشق كان بها عسكر من أهل حمص
 أتوا نجدة ، ولما فتحت دمشق سار أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن
 الوليد قاصدين حمص بجيوش كافية وذلك سنة ١٥ للهجرة فنازلوها
 وجعلوا يقاتلونها صباحا ومساءً وكان البرد قد آذى المسلمين وطال
 الحصار فصبروا وكتب هرقل الى أهل الجزيرة أن يأتوا مددا الى حمص
 فاعترضهم المسلمون وفرقوهم فلم يأتوها فلما انصرم الشتاء كان قد ضاق
 الحال بأهل حمص فخرجوا يطلبون الصلح فصالحهم أبو عبيدة على
 صلح دمشق ثم استخلف عليها عبادة بن الصامت ورحل الى حماة
 وقد حصل فيها بعد الفتح جملة حوادث مهمة لا يتسع المقام لتفصيلها

أما سكانها فيبلغون نحو ٨ آلاف نسمة منهم ألفان من الروم
الأرتدكس وألف من اللاتين والباقي من طوائف مختلفة
نزلنا في محطة حمص وكان يستقبلنا على إفريزها عدد كبير من رجال
الحكومة وأعيان المدينة ووجهائها المحترمين وفي مقدمتهم صاحب
السعادة قائم مقام حمص وكان سعادة عبد الحميد باشا الدروبي يعرّفنا
بالذوات والعظماء ويقدمهم إلينا واحدا واحدا وكنت أقابل الجميع
بجزيل الشكر والأمتنان ثم ركبنا وركب معنا سعادة القائم مقام عربية
الباشا الخاصة التي كانت قد حضر بها مع جملة عربات أنجال سعادته
وقصدنا تورا إلى منزلة وكان الطريق من المحطة حتى بيت سعادة الباشا
مزدحما بالناس الذين كانوا يستقبلوننا والبشريتلا على وجوههم
حتى لقد كنت أخال أني ضيف كل واحد منهم على حديثه وما كنت
لأستغرب أن يخرج إلى المحطة وطرقات البلد سكان المدينة عن بكرة
أيهم فالأقارب من حفاوتهم واحتفالهم بنا ما لم يتفق أن نلاقيه في جميع
بلاد الشام وأنا أعرف أن سعادة عبد الحميد باشا الدروبي قد اشترى
من جميع هؤلاء الناس أفئدتهم وملك نفوسهم بما يسديه إليهم من
معروفه وماله فهو في تلك المدينة بمثابة والد شفيق لكافة الناس .
ببذل وحلم ساد في قومه الفتي ❀ وكونك إياه بليك يسير

أما البيت فكان واقعا من البلد في أجمل منطقة وأحسن بقعة تحيط به الحقول الياض والنباتات الواسعة من جميع جهاته وليس منظره من الداخل بأقل حسنا وبهجة منه في الخارج .

زيارات

وقد جاء إلينا في ذلك البيت جميع الذين كانوا قد استقبلونا عند موقف القطار وغيرهم فاستقبلناهم بما يليق بهم من الحفاوة والاحترام وجلسنا معهم مجاسا طويلا نتحدث سويا وكان من بينهم بعض مشايخ وبكوات من عشائر الدنادشة المعروفين في تلك البقاع بالمهارة في ركوب الخيل والمشهورين باقتناء جيادها أيضا وقد كنت أعرف ذلك عنهم قبل مخالطتهم في هذا البلد ومن ثم قلت لهم في غضون حديثي اني أرجو ان شاء الله ان أرى مايسرنى من كرائم خيلكم ومهرة فرسانكم فقالوا ان شاء الله سنتشرف بمقابلة دولتكم عند ماتمرون في طريق سفركم السعيد من حمص الى طرابلس واذا ذاك ترون من الخيل والخيلة ماله يوافق رغبتكم الشريفة .

قلعة حمص

وبعد ذلك ذهبنا الى زيارة قلعة حمص وكنا نحسب أنها من الأهمية بالمكان الذي يستدعى قصد السياح إليها ولما وجدناها خربة قد

دمرتها يد الخطوب والحوادث وحطمها كرك الغداة ومرّ العشيّ حتى لم يبق من معالمها الأثرية الا باب أو بابان لا أذكر ذلك تماماً ويقال ان جدنا المرحوم ابراهيم باشا هدم من ذلك الحصن جزءاً كبيراً عند ما حارب الشام وخرج عليه أهل حمص وعصوا أو امره وكنا نرى ونحن فوقها من أبنية المدينة خصوصاً جوامعها وكنا نسها وما يحيط بها ويخللها من الأشجار والأنهار مثل تلك المناظر الجميلة التي كنا نطل عليها تحت الجبال والحصون العالية في كثير من بلاد الشام .

كلمة عامة عن المدينة

نزلنا من القلعة قاصدين الى زيارة ما كان يهمننا زيارته في هذا البلد فقصدنا أولاً الى زيارة جامع خالد بن الوليد رضى الله عنه فمررنا من سوق كبير مسقوف بالخشب كأسواق دمشق وبعض الأسواق في بلاد الشرق؛ ولاحظنا أثناء مرورنا أن أغلب الباعة في حوانيت هذا السوق كانوا من الحمصيين أما المشترون فانهم يختلفون بين هؤلاء وبين أعراب البادية والشراكسة المهاجرين الذين يسكنون ضواحي حمص وما يجاورها من البلاد كما لاحظنا من الأزقة والطرق وشكل البيوت في كل الجهات التي مررنا عليها أن مدينة حمص كسائر بلاد الشام على معنى أنها لا تزال الى اليوم حافظة لكانها الشرقي وشكلها الأصلي

جامع خالد بن الوليد

وبعدئذ ذهبنا من خارج البلد لنزور جامع خالد بن الوليد ذلك الذى له الفضل الأكبر فى فتوح الشام وعند مأوشكا أن نصل اليه وقد كان على أقرب المسافات من المدينة قال لنا سعادة عبد الحميد باشا الدروبي اقتضابا أما وقد لمحتم دولتكم هذا المسجد العجيب الاتقان البديع البنيان فانكم لابد تذكرون فى نفسكم مايشبهه ويجانسه فى مصر. (وقد كنت خالى الذهن اذ ذاك من كل شئ الا فيما كنت رأيته من المدينة وما حولها) فقلت لسعادته انه لم يدر فى خلدى شئ فأحدث نفسى بمثله فى مصر اللهم الا مارأيته فى طريقنا وذلك المسجد فقال سعادته ألم يكن شكل هذا الجامع ليلفت خاطر دولتكم الى المسجد الكبير الذى أسسه فى قلعة مصر جدكم الأكبر ساكن الجنان محمد على باشا فقلت له بلى لكأنى به وهو جامع القلعة بعينه وحقيقة كان هذا المسجد العظيم لا يختلف عن جامع القلعة شيئا فى رسمه ومنظره سواء فى ذلك شكله من الظاهر والباطن ،وقال سعادة الباشا اننا استصدرنا أمر جلالة مولانا السلطان باصلاح هذا المسجد وتعميره ورأينا حينئذ أن نشيده على طراز مسجد القلعة وقد أعاننا الله تعالى على ماوقفنا اليه من تشييده واتقانه حتى صار كما ترون ثم دخلناه واطلعنا

على ما كان فيه، وقد سررنا كثيرا من زخرفه وزينته، واتجهنا بعد ذلك الى زيارة ذلك البطل الكبير والفاتح الشهير خالد بن الوليد في ضريحه وقرأنا على روحه الطاهرة ما تيسر لنا من القرآن الكريم .

الى بيت الباشا

ومن هناك ذهبنا قاصدين الى دار سعادة المتصرف لنرد له زيارته وكان طريقنا اليه من داخل المدينة وبعد أداء الزيارة عدنا الى بيت سعادة صاحبنا عبد الحميد باشا وقد أعدنا اليه النظر فأعجبنا جدا شكله وموضعه الذى حاز مع جمال المنظر كمال الأبهة حتى اذا رآه الواحد على بعد لم يشك أنه بيت مجد وامارة. ومذ دخلناه رأينا فيه اشارة برقية أرسلها الينا صاحب العطوفة فخري باشا والى حلب فاستلمناها وقرأنا فيها سؤال عطوفته عن وقت قيامنا من حمص وعن اليوم الذى نصل فيه الى حلب فأرسلنا الى عطوفته اشارة من لدنا أخبرناه فيها بما كنا صممنا عليه من العدول عن زيارة هذه المدينة معتردين اليه بضيق الوقت مظهرين كبير أسفنا من عدم سنوح الفرصة برؤية حلب الشهباء، وانه لقد كان فى نفسى من أول الأمر أن أزور مدينة حلب وأن أقيم فيها يومين عند ما كنت مترددا بينها وبين حماه ولكنى على الرغم من ذلك جاريت الظروف وقتئذ ونسخت ما كنت رسمته

في خطتي الأولى من مشاركة هذا البلد مستعيضا منه مدينة حماه وعند
ما جاء وقت الظهر وكان قد حضر حضرة القائم مقام دعينا الى المائدة
فتناولنا عليها طعام الغداء الشهى وما لبثنا بعد ذلك الا قليلا ثم قدمت
الينا اشارة برقية أخرى من لدن عطوفة نخري باشا يذكر فيها أن جميع
أعيان حلب ووجهائها قد كفوا عطوفته أن يرجونا بالنيابة عنهم أن
نجيب طلبهم الى زيارة بلدهم الى أن قال: وان لهم وطيد الأمل وكبير
الرجاء في أن لا يحرموا من تلك الزيارة الجليلة وانهم منتظرون بفروغ
الصبر اجابة تسرهم والا فانهم مستعدون جميعا للحضور بأنفسهم الى
مدينة حمص لكيما ينالوا رغبتهم ويحصلوا على غرضهم واذا ذاك
لم يسعني حيال هذا الكرم الكبير سوى أن أعدّل خطتي مرة ثانية
وأسترد عزيمتي على زيارة مدينتهم فأرسلنا الى عطوفة الباشا الوالى
رسالة برقية نشعره فيها بما صار اليه عزمنا من قبول ملتسمه بالأصالة
عن نفسه وبالنيابة عن حضرات من كفوه ذلك مع ابداء مزيد الشكر
والامتنان لمعروفه ومعروف أبناء حكومته المخلصين ،

مدرسة الاسرائيليين

ثم توجهنا الى زيارة المدرسة الاسرائيلية لمناسبة أن مؤسسها كانوا
قد طلبوا الينا زيارتها وقد وجدنا في استقبالنا عددا كبيرا من تجار

الحمصيين في مدينة طنطا وعند ما دخلنا المدرسة أخذ جميع الحاضرين يهتفون لنا بالدعوات تارة وبالتحية والترحيب تارة أخرى. وبعد أن جلسنا في قاعة الاستقبال بين المحتشدين قام بعضهم يذكرون أيدينا قصائد ومقالات بليغة كانت كل عباراتها تدور حول الترحيب بنا والثناء علينا. وأنا نقتطف منها ما نراه يناسب رحلتنا مبتدئين بالمقالة التي قدمها إلينا مطبوعة حضرة الكاتب البليغ الدكتور كامل لوقا قال حضرته:

يادولة الأمير العظيم: أتشرف الآن بالوقوف أمام دولتكم بالنيابة عن مفوض المسيحيين الحمصيين نزلاء الديار المصرية الذين طالما تمتعوا بالراحة والعدالة والحقوق التجارية تحت كنف العائلة الشريفة المحمدية العلوية. أتشرف بالنيابة عن أولئك العثمانيين لأحيي أميرا عثمانيا مصر يا فآحييكم مرحبا بسلامة قدومكم الميمون من ديار عربية عثمانية مصرية الى ديار عربية عثمانية سورية. أحييكم وأقدم لكم عواطف الامتنان والشكر بلسان أولئك الذين يستثمرون أموالهم وأتعابهم في تلك الديار السعيدة منذ نحسين عاما وهم في بحبوحة من السعة ورغد العيش.

نعم أحييكم وأحيي بكم مصر وساكنيها بلسان بضعة آلاف من الأهالي الحمصيين الذين ينتفعون ويستغلون ويقدمون منسوجاتهم الوطنية الى قطركم المصري، أجل! اقرارا بالفضل ومعرفة بالجميل نحني باسمكم

الكريم أيها البرنس الفخيم ونحنى الهام أمام تلك الروح الطاهرة الشريفة
التي أحيت العدل والمعارف في القطر المصرى السعيد روح أحد
أبطال الشرق العظام جد العائلة الخديوية الشريفة المرحوم محمد على
باشا الكبير فأهلا وسهلا بأمير أحيانا ذلك الاسم المحبوب فنحيكم
باسم أولئك النزلاء المحصين في كافة القطر المصرى عموما وفي طنطا
خصوصا كأمر زائر شريف يقصد النزهة في بلاد ترحب بزيارته
أمير متور فاضل عرف أن البلاد السورية شقيقة البلاد المصرية
فأحب الى زيارتها على الرحب والسعة فأهلا بالفضل ومرحبا بالنبل
واكرم بهذا الضيف العظيم وبمضيفه الكريم من يفتخر به الوطن
مولاي سعادة الهام عبد الحميد باشا الدروبي وفي الختام تنازلوا يادولة
الأمير لقبول عواطفنا القلبية وسرورنا بتشريفهم مجاهرين بقولنا ليعش
جلالة مولانا السلطان محمد رشاد وليعش سمو الخديوى عباس المعظم
وليحى دولة البرنس محمد على باشا والسلام. ومما كان ذكر في هذه
الحفلة أيضا بعض أبيات قدمها لنا مطبوعة لفيف من المحصين
المسيحيين الذين يتجرون في القطر المصرى وهى :

لاغروا إن شمت حمصا تزدهى طربا ❀ وفي مرابعها تزدد أنوار
فإنها بلغت من دهرها أربا ❀ غنت لبهجته فى الروض أطيّار

قد زارها اليوم مفضل من الأمرا ❀ تشرفت وانثنت تيه بملقاه
 وزينت بشقيق بات مزدهرا ❀ وزنبق فاح طيبا عرف رياه
 شرفتنا ياسليل المجد عن كشب ❀ شرفتنا فعلى الترحيب والسعة
 فاقبل تشكرنا يا أيها العربي ❀ يارب كل ندى سام ومكرمة
 أهلا وسهلا بمولى زار بلدتنا ❀ بموكب قادم من بقعة النيل
 أولت زيارته أفرادنا مننا ❀ فلنبدين له شكرا كأكليل
 تجار حمص بطنطا حاصلون على ❀ عطف الحكومة مع أقصى عنايتها
 ومع بنى مصر عاشوا اخوة فالى ❀ مصر تحيتنا الجلى بغايتها
 من حمص فى مصر كم بيت وعائلة ❀ حلت بجملتها والأنس موجود
 إنا على ثقة إنا على ثقة ❀ بما انطويتم عليه أيها الصيد
 لذا أتيناك يامولى الكرامة يا ❀ ركن الفخامة نتلوا آى شكران
 بلغ عواطفنا لازلت مرتقيا ❀ حكومة قد حبتنا كل احسان
 هذى العواطف بالاخلاص نبديها ❀ بشخص عليا كم الأسمى الى مصر
 لازلت بين البرايا تنثنى ❀ باليمن والرغد والأسعاد والبشر
 وبعد ما فرغوا من ذكر أشعارهم ومقالاتهم أخذنا نتحدث
 فى موضوع التجارة المحلية وسألهم فيماذا ينجر أهل حمص وأى الأشياء
 أكثر شهرة فى متاجرهم فذكروا لى أن تجارة الحمصيين قائمة فى الغالب

على ما لا يمكن الاستغناء عنه من محاصيلهم ومصنوعاتهم التي أشهرها وأهمها المنسوجات الحريرية والقصبية ثم ان حمص هي البلدة الوحيدة التي اشتهرت في جميع بلاد سورية بحل الحرير وإحسان صنعته ونسيجه . ثم قمنا من ذلك المجلس الحافل مودعين من كل المحتفلين الكرام بغاية الاكرام والاحترام وبعد أن شكرنا لهم هذا الأدب والمعروف عدنا الى بيت سعادة الباشا الدروبي وما برحنا هناك نستقبل ونودّع حضرات الزائرين الذين كانوا يفدون علينا في هذا البيت الكبير زمرا وأفواجا حتى احتجبت الغزالة في خدرها وقد كان جيء الينا في تلك الأثناء بمحصنين قريعين فلم نجد هما على وفق رغبتنا من كل الوجوه على أنهما لم يكونا من الجياد الكريمة الاصل ولا من هذه الخيل المطهمة

السفر من حمص

وفي صبيحة اليوم الثاني كنا تأهبنا للسفر الى حلب فتوجهنا من منزل سعادة عبد الحميد باشا الى المحطة في ركاب حافل من مظاهر القوم وأعيان المدينة الذين رافقونا حتى ودّعناهم ونزلنا في القطار وكان لا يزال معنا سعادة الباشا الدروبي ذلك الرجل الأريحي الذي جمع بين حزم الشيوخ وعزم الشباب وعرف كيف يستخلص له قلوب

الناس ويحل من صدورهم محل الوالد البار نعم أنا لا أنسى لهذا الشهم
 الواسع الخلق الرقيق العواطف ما رأيناه من فرط كرمه ومزيد عنايته بنا
 في كل حركة وسكون، سار القطار على بركة الله متجها إلى حلب وما
 انفك يواصل بنا السير والارض على يميننا ويسارنا إلى مسافات
 واسعة كانت كلها خصبة جيدة مفروشة ببساط من المزارع الخضراء
 حيث كان الزمن ربيعاً وكنت أعجب كثيراً بما أشاهده على تلك
 الزروع من ألوان الزهر المختلفة بين الحمراء والبيضاء والزرقاء التي تشبه
 مجموعتها البديعة باقة الزهور المرصعة، وجل هذه المزارع النظرة والأعشاب
 الجميلة إنما نبتت في تلك الأرض بواسطة الأمطار وعندئذ لم أستغرب
 ولم أندهش مما كنت سمعته من أن قبائل العرب والرعاة يقصدون
 إلى هذه الجهات قبل فصل الصيف بخيلهم ومواشيهم لرعى تلك
 الحشائش، وما أحسنها من مرعى وأجملها من ربيع خصوصاً وإن
 المياه في تلك البقعة غاية في الكفاية والصفاء، حتى بلغ إلى محطة حماه
 وهي على مسافة ٥٥ كيلو متراً من حمص وقد قطعها القطار في نحو
 ساعة و٥٥ دقيقة .

حماه

هذه البلدة واقعة في حدود ولاية سورية وكانت أولاً تابعة لآيالة

الشام أما الآن فقد انفصلت عنها وجعلت متصرفية مستقلة. وهى مدينة قديمة التاريخ ويظن كثير من الناس أن بانيها هو حمت بن كنعان فاذا صح ذلك فيكون قد مضى عليها الآن أكثر من ٤ آلاف سنة ويقال ان حماه كانت فى وقت خروج الاسرائيليين من مصر مملكة مستقلة تتاخم أرض الميعاد التى احتلها الاسرائيليون وكانت المملكة التى تسمى باسمها تمتد من منبع العاصى حتى مصبه مع كل السهل الشرقى منه وكان يتاخمها من الجنوب مدينة دمشق ومن الغرب بلاد فينيقية. ومما يدل على أن هذه البلدة قديمة جاهلية ما جاء فى شعر امرئ القيس من بعض قصائده حيث قال؛

تقطع أسباب اللبانة والهوى ❁ عشية رحنا من حماة وشيرزا
ثم انها أوسع من مدينة حمص مساحة وأكبر منها عمارة وسكانها
يبلغون نحو ٩ آلاف نفس، ويقال ان المسلمين من هؤلاء السكان
متمسكون بدينهم تمسكا شديدا بلغ بهم الى درجة التعصب، ثم انهم
غاية فى الشهامة والشجاعة، ويقال ان الملك المؤيد عند ما فتح بلاد الشام
جعل هذه المدينة قاعدة ملكه وتسمى بسلطان حماه وينسب اليها
بعض العلماء والملوك وأشهرهم المؤرخ أبو الفداء الحموى أحد ملوكها
من الأيوبيين والجغرافى الكبير ياقوت صاحب المعجم وتقى الدين

ابن حجة الشاعر المعروف، ومن أشهر بيوتها التي يفتخربها أهل حماة ويذكرونها بالفضل والسيادة بيت الشيخ عبد القادر الكيلاني شيخ الطريقة الكيلانية المعروفة، أما صناعتها فمنحصرة في اصطناع الأشياء العمومية التي لا يستغنى عنها من المنسوجات الحريرية والقطنية والأحذية وما أشبه ذلك، ومن محاصيلها الحنطة والشعير والذرة وغيرها من الحبوب والفواكه التي يصدر كثير منها إلى طرابلس ويرسل أيضا كثير من سمنها وجبنها إلى أسواق الشام وزحلة وغيرها وتجارتها دائرة على تلك المصنوعات وهذه المحاصيل .

فتح حماه

وقد فتحت حماه سنة ١٧ هجرية على أيدي المسلمين وكان بطلها ذلك الفاتح العظيم أبا عبيدة بن الجراح فانه رضى الله عنه قصدها بعد فتح حمص فتلقاه أهلها مدعين فصالحهم على الجزية والخراج، وقد توالى عليها بعد ذلك جملة حوادث عظيمة ففي سنة ٢٩٠ قصدها القرامطة وقتلوا أهلها ولم يبقوا على النساء والأولاد، وفي سنة ٣٥٢ خربت حماة بالزلازل التي أصابت الديار الشامية، ويروى أن معلبا خرج من المكتب فلبا حدثت الزلزلة سقط المكتب على الصبيان فهلكوا عن آخرهم، ولم يأت أحد يسأل عن ولده مما كان دليلا على

أن جميع آبائهم هلكوا في تلك الحادثة أيضا وفي سنة ٥٦٥ هـ تخربت بالزلازل أيضا وملكها السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٠ هـ مظهرًا طاعة الملك الصالح بن نور الدين زنكي، وفي سنة ٥٧٣ هـ حصرها الأفرنج وكان فيها خال صلاح الدين مريضًا وكانت بينهم وبين أهلها مقتلة عظيمة وأقاموا على قتالها أربعة أيام ثم استظهر عليهم المسلمون فرحلوا عنها ثم كانت بعد صلاح الدين لفرع من عائلته منهم ملكها المشهور أبو الفداء الحموي، وعند ما كنا وصلنا إلى محطة حماه وجدناها غاصة بعظماء الناس وأكابرهم وكان بعضهم من حكومة حماه ومن رؤساء البيوت الكبيرة فيها مثل زعيم أسرة الكيلاني الشهيرة ورئيس أسرة الأزهرى التى هى من أنغم الأسر فى تلك المدينة، وقد عرفنا من حديثهم أن لهم قرابة فى مديرية المنيا بالقطر المصرى وكان البعض الآخر من مدينة حلب وهؤلاء منهم اثنان مندوبان من قبل عطوفة الوالى وهما صاحب السعادة مرعى باشا ناظر أوقاف حلب والميرالاي (قومندان الحندرمه) واثنان آخران مندوبان من جهة أعيان المدينة ووجهائها وقد جاؤا جميعا إلى محطة حماه ليستقبلونا على أطراف ولايتهم يحملون إلينا سلام دولة الوالى وتحية عظماء البلاد وليكونوا أيضا فى خدمتنا وتحت إشارتنا من هذا البلد حتى نصل إلى بلدهم. وانه

لاغربة أن ألقى مثل هذه العناية الفائقة والأريحية العظيمة من عطوفة الوالى ورجال حكومته وأهالى ولايته بعد أن رأيت شبيها أو أكثر فى حمص وفى كثير من البلاد الشامية إذا كان هؤلاء الناس الكرام المخلصون يقدرون ضيوفهم حق قدرهم ويبالغون فى اكرامهم واحسان وفادتهم ويبالغون بهم من الكرامة اذا ما هم حقيقون به وأهله ولقد شكرت هذا الوفد ومن كان واقفا معهم من أهل حماه من لسانى بما كنت أستطيع أن أعبر به عما استقر فى نفسى من معرفتهم الكير ولطفهم الكثير وبعد ذلك ودعنا الحمويين حيث كان قد تحرك القطار ونزل معنا فيه ذلك الوفد الجليل فمررنا ببلدة تعرف بمجرة نعمان نسبة فيما يقال الى نعمان بن بشير وهى من القرى التى اشتهرت بالحروب الصليبية ويوجد فيها خربة مهذمة يقال أنها كانت قلعة نعمان وسألت أصحابنا عن عدد سكانها الآن فقالوا انهم يبلغون ٧ آلاف نفس، وشاهدنا حول هذه القرية مروجاً وأحراشا واسعة يقال ان أكثر غرسها من شجر التين والفسق، ومررنا بعدئذ ببلدة تسمى السرمين وهى مشهورة بالينابيع والعيون الكثيرة التى تتفجر من خلال الصخور، ويقال ان فى هذه القرية عددا كبيرا من المغارات والكهوف حيث كان الناس فى سابق الزمان يسكنونها ويأوون اليها.

والى بطون الجبال ، أما أرضها فكان منها الخصب المزروع ومنها القحط
الأجرد بسبب تغلب الملوحة فى تربته ، أما تلك الاراضى المملحة
فكانت ترى للمسافر على مسافة بعيدة من البلد ، ثم مررنا ببسند يدعى
بخان تومان ويزعمون أن هذا الاسم مأخوذ من اسم أحد السلاطين ،
وعند هذه القرية يشاهد المسافر مآذن حلب من بعيد ، ثم ما برحنا
سائرین ننتقل من بلد الى آخر والمزارع من جمالها الطبيعى على ما وصفنا
حتى مررنا بنهر يسمى قويق وهو من الأنهار المشهورة فى تلك الجهات
أما المسافة من تلك النقطة الى مدينة حلب فكانت تقرب من نصف
الساعة بسير القطار وقد كنا فى غضوننا نطل من نافذة العربة فنشاهد
أمامنا على بعد هيكىل مدينة حلب جسيما ضخما تعلوه مآذنها الشاهقة
التي هى أول ما يظهر للناظرين ، وما كدنا نقرب من المحطة حتى وجدناها
تموج بالمنتظرين من وجهاء المدينة وحكامها موجا ، وهنا لا أستطيع
أن أعبر عن وصف الابتهاج وشرح السرور الذى كان يخامر نفسى
من العناية الكبيرة والحفاوة التامة التى كنت أراها بين لحظة وأخرى
من سعادة مرعى باشا ناظر الأوقاف وبقية الوفد الحابى حيث كانوا
فى أثناء هذا السفر لا يألون جهدا فى تعهد راحتنا وانبساطنا واعمال
ما كان يمكنهم من الوسائط لادخال الفرح على أنفسنا وقد كانوا يرشدونا

في الطريق الى كل شئ مهم سواء من جهة الزراعة والصناعة أو من جهة تاريخ البلاد التي كنا نمر بها وأحوال السكان وعوائدهم في بلادهم وآثار القدماء في تلك البقاع ذلك فضلا عن أنهم كانوا يرسلون بواسطة السلك البرقي جميع المحطات التي كان يرسو عليها القطار في طول السكة ويهتمون جدا بخروج الناس لاستقبالنا على المواقف عند مرور القطار حتى وصلنا بسلامة الله الى محطة حلب .

في محطة حلب

وقف القطار فكان الصالون الخاص بنا محاذيا تمام المحاذاة لموقف صاحب العطوفة نخرى باشا الوالى يوما أو شكت أن أنزل من باب العربة حتى أسرع عطوفته الى مقابلتنا وتهنئتنا بسلامة الوصول الى بلادهم وبعد ذلك أخذ يقدم الينا حضرات المستقبلين واحدا واحدا وكان في أولهم صاحب السعادة توفيق باشا قومندان عسكر الأردى السابع في ولاية حلب وأسعد باشا جابرى ثم حضرات العلماء فالرؤساء الروحانيين ولما أن انتهينا من مصافحتهم والسلام عليهم ذهبنا الى قاعة الاستراحة في المحطة وجلسنا فيها برهة مع حضرات المحتفلين الكرام وعند ذلك قام في وسط هذا الاجتماع العظيم شيخ جليل وألقى على مسامع الحاضرين خطبة لطيفة كان موضوعها منحصر في تهنئتنا بسلامة

واظهار سرور أهل البلاد بقدمونا اليهم . فسررت منه ومن خطبته وشكرته وشكرت أيضا جميع الموجودين ثم ذهبنا الى خارج المحطة حيث كانت العربات مجهزة لنا فركبنا وركب معنا عطوفة الوالى عربته الخاصة وتبعتنا حاشيتنا فى عربة أخرى فسرنا أولا من طريق كان قد اصطف على حافتيه عدد كبير من العساكر الذين كانوا يختلفون بين بيادة وسوارى وطوبجية وكانت الموسيقى العسكرية تحيينا بنغماتها الشجية . ثم سرنا فى الطريق الموصل الى الفندق بين زحام عظيم على جانبيه من سكان المدينة الذين كما نشاهد البشر العظيم يتألق سناه على وجوههم البسامة لا فرق فى ذلك بين شبابهم وشيبيهم ولا بين غنيهم وفقيرهم كما أننا كنا نرى من لطف عطوفة الوالى وكاله مالىس فى وسعى أن أقدره فى عبارتى فيدرك أوأصفه فيفهم بأكثر مما يعرفه الانسان من أحب الناس اليه وأشفقهم عليه . وقد صرح لى فى خطابه أثناء السير بما كان ينطوى عليه فؤاده من محبتنا وما كان ينويه ويودّه من نزولنا ضيوفا عليه مدّة اقامتنا فى المدينة لولا أن بيته صغير وقد نزل فيه بالصدفة صاحب الدولة ناظم باشا بدعوة سابقة من لدن عطوفته فسررت جدّا من تصريحه بجميل نيته وحسن قصده بنا وقد اتسعت من صدرى مكانته وعظمت فى قلبى محبته عند ما كان يكرر أسفه

الشديد من ضيق البيت حتى لقد عدّ ذلك من الصدف التي عا كسته في أحب شيء إليه وحالت بينه وبين ما كان يرجوه ويودّه من صميم قلبه ثم ما زال عطوفته معنا حتى دخلنا الفندق وتعرفنا منه بهداية صاحبه ما كان خصص لاجلنا من الحجرات وهناك جلسنا مستأنسين بحديث عطوفة الوالى ولطفه ريثما شربنا القهوة ثم جاء إلينا سعادة توفيق باشا القومندان وعدد كبير من عظماء المدينة فرحبنا بمقدمهم وأهلنا بهم جميعا وذكّرت لهم بعبارات متكررة حسن عنايتهم واهتمامهم بنا، وكنت أشكرهم لذلك شكرا جزيلا، وقد كنت في غضون حديثي معهم ألاحظ من حركاتهم ولهجاتهم نشاطا عظيما وأدبا تاما وماسا زائدا إلى غير ذلك مما استوجب فرط محبتي لهم خصوصا بعد ما أظهروا لنا مودّتهم الكاملة وإخلاصهم المتناهي، وحقيقة كنت أقرأ في وجوههم آيات الأخلاص والصدق وكانت نفسى لا تحدّثنى بغير ذلك فيهم والعين تعلم من عيني محدثها ❁ ان كان من حزبيها أو من أعاديها ولم نلبث بعد أن خرجوا من عندنا ونخرج عطوفة الوالى أيضا لبرهة صغيرة ثم وصل إلينا أن دولة ناظم باشا قد حضر إلى الفندق بقصد زيارتنا فاهتممت جدّا بزيارة هذا الرجل الكبير المحبوب وعند ما استشعرت بقدوم دولته ذهبت مسرعا لاستقباله على سلم الفندق.

وكانت هذه أول مرة تقابلت فيها مع دولته فسلمت عليه وذهبت به الى ردهة الاستقبال حيث جلسنا نتحدث آونة في بعض الشؤون العامة ومرة في بعض الاحوال الخاصة حتى انتهى بنا الحديث الى ذكر القلاقل والصعوبات الكثيرة التي توجد الآن في جهة العراق من جراء الحوادث الاخيرة . ذلك كان لمناسبة أن دولة الباشا سيسافر من حلب الى مركز وظيفته في تلك الجهات حيث ان دولته والى بغداد والموصل وديار بكر، وقد ذكر لي في خلال حديثه أنه يعرف الجناب العالي الخديوي وأنه يحب كثيرا نجل عمنا دولة الامير عزيز باشا حسن المستخدم في الجيش العثماني وقد كنت كلما تغلغلنا في الكلام وتبادلنا أطراف الحديث في المسائل المهمة أجد في ذلك الرجل العظيم نباهة زائدة وذكاء حادًا وعلما غزيرًا، أما هو فكان شيخًا أبيض اللحية والرأس وعسكريًا بكل معاني الكلمة وكانت تبدو على وجهه مع السماحة والبشاشة سيماء القوة والشجاعة، وعند ما أراد الانصراف قنا فودعناه بما يليق بمقامه الجليل من الحفاوة والتبجيل شاكرين له خفته الى زيارتنا في الفندق على أثر حضورنا

ردّ زيارة

ولم نمكث بعد ذلك الا حيث تهيأنا للخروج وأعددنا له عدته ثم

قصدهنا الى منزل عطوفة نخرى باشا الوالى لئلا لدولته ودولة ناظم باشا ضيفه الكريم زيارتهما وقد لبثنا لديهما مدة غير قصيرة دار حديثنا فى أثنائها على موضوعات شتى ومباحث كثيرة كنت أجدنى فى خلالها غاية فى الارتياح والسرور لأنى كنت أرانى جالسا بين رجلين فاضلين عاقلين من أكبر الناس أدبا وحلبا وأوسعهم معرفة بأحوال الأمم والشعوب، وقد كان عطوفة والى حلب يتدفق عليها ويتوقد فطنة وذكاء، وإذا تحدث فى موضوع علمى أو سياسى أو أخلاقى اتسعت له فيه المادة فيصوغ ما شاء الله من معلوماته الصحيحة ومعارفه الكثيرة عبارات رقيقة رشيقة، ثم هو يجيد التركية والعربية والفرنساوية غاية الأجادة ويتكلم بها كلها كأنها لغته الأصلية التى فطر عليها، وقد فهمت من خلال كلامه وحركاته أنه تربى تربية عسكرية وأنه كان أركان حرب فى الجيش الماضى غير أنه كان مرتديا لباسا ملكيا ملائما لوظيفته الحاضرة، ثم كنت سمعت أنه تقلب على جملة وظائف عالية حيث كان فى ولاية الاناضول وبلاد العرب والشام وبغداد وبصرى، وان رجلا تعاقبت عليه كل هذه الولايات وكان عمله فى كل واحدة منها ينادى بفضله ويشهد لاستعداده وكفاءته وأنه من الذكاء والعلم بالدرجة التى لا تعرفها الا لبعض أفراد يعدون على الاصابع هو حقيق أن

يوضع في العيون وتعتقد عليه القلوب، كما أن الحكومة التي تريد أن تكون في صف أعظم الحكومات وتكبر من دولتها وصولتها هي أحوج ما يكون الى استخدام مثل هذه الأفكار الواسعة المتصرفة لتنتفع بها في أجل شؤونها وأخطر أعمالها، والشئ الغريب الذي لا يزال غامضا غير مفهوم الى الآن هو أننا نرى الحكومة العثمانية الحاضرة تختار لا على مناصبها وأسمى مراكزها صغار الموظفين وضعافهم على حين أنه لا يزال يوجد والحمد لله رجال عثمانيون أذهبوا أعمارهم الطويلة في خدمة الدولة مع غاية الصديق والاخلاص وما برحوا يعملون في مصالحهم على رقي الدولة ورفع شأنها ويسعون سعيا متواصلا وراء سعادتها وإبكار أمرها فكان من حق هؤلاء العمال المخلصين المتفانين في حب الدولة أن يشغلوا تلك المراكز السامية والوظائف الكبيرة، وأغرب من ذلك دعوى بعض الناس اليوم أنه لا يوجد بين كبار الرجال في الحكومة من تتوفر فيه الكفاءة والاستعداد لإدارة الأعمال السياسية الخطيرة، وهذا ما جعلني أتجاسر أمام دولة ناظم باشا والى بغداد وأقول له بكل صراحة على مسمع من سعادة القومندان توفيق باشا وغيره إنى أستغرب كثيرا أن الحكومة الحالية تعين في أرقى مصالحها الداخلية بعض المستخدمين في المصالح الصغيرة كما تعلم دولتكم وربما

كان أمثال هؤلاء الذين ترفعهم الحكومة وتمربهم فوق رؤوس الكبراء لم يكونوا من العلم والفضل بالمكان الذي ينبغي لصاحبه أن يتصل بأرباب العمل وأصحاب الرأي ثم تترك في زوايا الاهمال فطاحل العلماء وأفاضل الرجال . مثل عطوفة نحري باشا ذلك الرجل العظيم الذي كلنا يعلم بمقدار نبيله وفضله وثبته في الأمور . نعم إني مستغرب جدا كيف تنساه الحكومة وتهمله وتؤخره من تقديم هو أولى وأحق به من أولئك الذين قدمتهم وكبرتهم ممن لا يحسن بمثلنا التصريح بأسمائهم أو عنوانات وظائفهم هذا وقبل أن أبرح مجلسهم التفت مرة ثانية الى دولة ناظم باشا وصاحفته ودعوت الله له أن يعينه ويساعده على مأموريته المهمة وأن يؤيده ويوفقه لخدمة البلاد والأمة بما يقطع عنه السنة مبغضيه وحساده وبما يكون منه البرهان الساطع على نقيض ما يقال الآن عن بعض المتفهبين في كبار الرجال وشيوخهم المعمرين ومن هناك قفلنا عائدين الى الفندق وقد كنت أشعرت بعض الجماعة من أهل المدينة بشدة ميلي الى مشاهدة ما يصنع في ذلك البلد من قبيل المنسوجات الحريرية والقطنية والأصواف والجلود كما طلبت اليهم أن يعرضوا على كرائم خيلهم عسى أن أظفر هذه المرة بطلي وأستعيض من جياد حلب الكريمة ما فاتني في المدن الأخرى ، ولما أن

سكنت معالم الطبيعة ولبس الجو جلابيه الحالك قصدنا الى غرفة الأكل حيث تناولنا ورفاقنا طعام العشاء وكان معنا سعادة المفضل الأكرم عبد الحميد باشا الدروبي .

في الفندق

وفي صبيحة اليوم الثاني جاءنا في الفندق صاحبا العطوفة والسعادة نغرى باشا الوالى وجابرى باشا فاستقبلناهما بما يليق بمقامهما الكريم وبعد أن تبادلنا أطراف الحديث في غير مسألة طلب الينا سعادة جابرى باشا أن نتناول طعام الغداء في منزله فأجبناه الى ماطلبه شاكرين له مروءته وكرمه ، ودعانا كذلك عطوفة الوالى لتناول طعام العشاء ملتصقا اجابته الى دعوته في محفل الاتحاد والترقى وحينئذ قلت لعطوفته انى لا أستطيع أن أشرح سرورى بوجودى في مجلسكم ويسرنى جدا أن أستشفى بطعامكم الهنىء وشرابكم المرىء غير أنى لا أجدنى مرتاحا ولا منشرحا اذا ضمنى وحزبا من أحزاب السياسة مجلس أو مقام وقد عشت حياتى لا أرغب فى الجمعيات ولا أميل الى الدخول فى المحافل والمنتديات ذلك لأنى أرى أن الاجتماعات كثيرا ما تضطر الانسان وتقهره الى ما ليس فى حسبانته فيتحدث بما عساه أن يقلق المواطنين ويشوش الأذهان . نعم وأكره من صميم قلبى أن أتقيد بأمر

من الأمور كائنا ما كان خصوصاً الأمر الذي سبق رأيي فيه وعرف
الناس عنه من لساني مرة بعد أخرى مالا أظنه يخفى على عطوفتكم
أيضاً وإن أقرب عهدنا به مجلس البارحة الذي تحدثنا فيه طويلاً
مع دولة ناظم باشا وعطوفتكم وبعض رجال الحكومة والأعيان
ولست أخشى من شيء ما أخشى من أن يقال فلان كان بالأمس
يقول كيت وكيت وهو في الصباح يفعل كذا وكذا. وهو ما إذا دخل
في الرأي أفسده وفي الكلام أسقطه وعدّ به صاحبه مخادعاً ختلاً
وربما ذهب في ذلك بعض الناس مذهبا لا يتفق وما أردته في شيء
ومالي ولهذا كله واني والحمد لله لا أبالي أن أعلن رأيي وأشهره بكل
صراحة وثبات مادمت أعتقد أنه حق سديد (وانه ليجميل بالرجل
ذو الرأي يعتقد صحته وسداده أن يثبت عليه مهما تقلبت أمامه
الأمور وتحولت الأحوال . وليس من الحكمة أن يخالف الإنسان ضميره
ليوافق الناس ولا أن يغضب نفسه ابتغاء مرضاتهم كما أنه ليس من
المروءة والشهامة أن يحدث الواحد قلبه بما يكره أن يدور على لسانه
في مجلسه وكرامته .) فأرجوك إذاً أن تعفيني من الذهاب الى هذا
النادي وإني أشكرك على هذا الأعفاء ريثما أشكرك أيضاً على معروفك
السابق واللاحق وحسن قصدك الذي عرفته لك . قلت لدولته

ذلك وهو ما زال يلج في الدعوة ويلج في الطلب بما لم يسعني معه
أخيرا الا تلبية طلبه واجابة دعوته ولكن ذلك كان بعد أن أفهمني
عطوفته أن هذه المأدبة من عنده نفسه وليس لأحد سواه شأن فيها
وأنه إنما اختار محل الجمعية لأنه لم يعثر على محل غيره يسع المدعوين
وهم يبلغون نحو ٥٠ نفسا وقد ارتحت كثيرا لهذا الجواب ووددت
لو كنت فهمته من قبل وعلى ذلك انتهت محاورتنا ونخرج من عندنا
عطوفة الباشا الوالى مع رفيقه شاكرين لنا القياه من الحفاوة والأحترام
خصوصا بعد ما استوثق منا عطوفته باجابته الى ملتتمسه »

(مسجد سيدنا زكريا)

أما نحن فأنشبتنا بعد انصراف عطوفة الوالى وصاحبه الا بضع
دقائق ريثما تهيأنا للخروج ثم ركبنا من باب الفندق عربية ومعنا صاحبنا
الهمام سعادة عبد الحميد باشا الدروبي وركب عقبا عربية أخرى عزيزنا
الفاضل امد بك العريس ومعه الياور خيرى افندى فقصدنا توا الى
جامع سيدنا زكريا نبي الله عليه السلام وهو مسجد جميل الشكل
متقن الصناعة والبنيان تعتمد سقفه المتينة على أقبية وعمد فى طول
المسجد وعرضه ويقال إن موضع هذا المسجد كان فى الاصل
كنيسة من عهد الأمباطورة هيلانه من قياصرة الرومان ويسمى

الجامع الأموي لأنه من آثار بني أمية ويدعى أهل هذه الجهات أنه كان شبيها بالجامع الأموي في دمشق وقد أحرقت طائفة الأسماعيلية سنة ١١٦٩ ميلادية ثم أعاد بناءه المرحوم السلطان نور الدين الشهيد ثم هدمه المغول تحت رئاسة هولاكو ويمتاز هذا المسجد بمأذنته الشاهقة التي يبلغ ارتفاعها نحو ٥٤ مترًا ولم نشاهد مأذنة في مساجد المسلمين التي رأيناها بلغت من العلو هذا المبلغ إلا تلك المأذنة العجيبة وهي قائمة في الزاوية الشمالية الغربية من جهة الصحن الكبير الذي تحيط به الأعمدة من الثلاث جهات، ويقال إن هذه المأذنة بنيت في سنة ١٢٩٠ ميلادية أما المسجد الذي تقام فيه الصلاة فإنه واقع في الجهة الجنوبية من الصحن المذكور وفيه حجاز من الخشب (درازين) يقسمه إلى قسمين لكنهما غير متساويين، وقد خصص القسم الأصغر منهما بالصلوات الخمس وجعل القسم الأكبر خاصا بصلاة الجمعة، وفيه يوجد قبر النبي زكرياء والد النبي يحيى الذي قدمنا أنه مدفون بجامع بني أمية في دمشق ويسمى يوحنا المعمدان وهذا القبر لم يكن هو القبر الوحيد المجمع عليه من أهل المدن والطوائف فإن مدينة سامرا وبعض مدن أخرى من الشام تزعم أن فيها قبره عليه السلام، وقد رأينا محاطا بمقصورة مذهبة بدیعة

الشكل دخلنا المسجد أولاً وصلينا فيه تحيته ركعتين ثم ذهبنا الى ذلك المقام الشريف وقرأنا في داخله ما تيسر لنا من كتاب الله بنية حصول البركة واصلاح الحال وهناك سألنا الله تعالى أن يتقبل منا هذه الزيارة التي نشكره جل شأنه على هدايتنا لها وتوفيقنا اليها وخرجنا بعد ذلك عامدين الى زيارة القلعة الحلبية وكان طريق سيرنا اليها من داخل البلد ولا بد لنا من ذكر كلمة عن هذه القلعة تتضمن نبذة من تاريخها ووصفها على حالتها الحاضرة بقدر الامكان .

قلعة حلب

هذه القلعة واقعة في وسط المدينة على تل مرتفع مرصوف بالحجارة وهو من ذلك يظهر أنه صناعى ويقول مؤرخو العرب إنه كان على هذا التل مدينة قديمة من مدن الشام قائمة على ثمانية آلاف عمود وهى بالطبع مدينة حلب . ويقال ان الذى بنى هذه القلعة هو سلوقس الذى اختط حلب وبنها ففى على هذا عتيقة متوغلة فى القدم وبعض المؤرخين يزعم أن كسرى زاد فى تحصينها ومنعتها ولست أدري من هو كسرى هذا من ملوك فارس ولعله كان غير كسرى الثانى لأن ذلك هو الذى أحرقت مدينة حلب بأمره سنة ٦١١ بعد المسيح ومن أبعد ما يتصور أن يعمر القلعة ويزيد

في تحصينها من يخرب المدينة ويأمر باحراقها ثم انها محاطة من جميع جهاتها بخندق عميق يمكن غمره بالماء . ويقال انه بلغ من العمق بحيث يستغرق المسافر الى قراره مسافة تقرب من نصف الساعة ويوجد على هذا الخندق قنطرة جميلة مصنوعة من الخشب توصل الى القلعة وليس الدخول فيها مباحا مطلقا بل هو محظور عادة الا لمن حصل على اذن الحربية التي لا تزال صاحبة السلطة والسيطرة عليها الى اليوم على الرغم من أن هذه القلعة صارت خربة مهتمة وهذه المناسبة وجدنا اثنين من ضباط الجيش في انتظارنا هناك وقد وصلنا من هذا المعبر الخشبي الى برج خارجي دخلناه من باب حديد مزخرف بأبداع حلية وأجمل نقش وقد أخذني الإعجاب بمنظر ذلك الباب مأخذا بلغ منه أنى صممت على تقليد شيء من شكله في بيتي الذي أسكنه في منيل الروضة ثم دخلنا في بهو يلاحظ المآر به أن في أعلى الباب الحديد من الجهة اليمنى من الداخل نقوشا على الجدار ومرسومات حفريّة بديعة من شجر الريحان وكّابات ينتهى تاريخها الى سنة ٦٠٥ هجرية الموافقة سنة ١٢٠٩ ميلادية على عهد الملك الظاهر: ويلاحظ أيضا على يمين ويسار الباب الثانى رسومات حفريّة أخرى تمثل رؤس الفهود تمثيلا متقنا. ومن ذلك الباب نخرجنا الى

صحن متسع مغطى بكومات من الأتربة والأنقاض وفيه آثار جملة طرق وقد دار في نفسي وقت ما كنت ماشيا في ذلك الصحن أنه لابد أن يوجد تحت الحجارة والردوم شيء عظيم من الآثار التاريخية العجيبة، وبعدئذ ذهبت منى التفاتة الى باب مخفى بعضه تحت أطباق التراب، فسألت عنه بعض الملمين بذلك الآثار العتيق فقال لي ان من ذلك الباب يدخل الانسان الى مسجد صغير كان يصلى فيه بعض العسكر المتمرضين، فمالت نفسي للاطلاع عليه شأن السائح الذى يريد أن يستطلع طلع كل شيء غريب يقع تحت نظره فدخلت هذا المسجد ورأيت فيه محرابا وكان فى دوائره وزرة من خشب عليها نقوش مانظرت عيني الى اليوم أجمل منها ولقد رأيت من الرسوم الناتئة والحفرية والنقوش العربية ما لست أحصيه عددا خصوصا ما شاهدته من ذلك فيما يوجد عادة فى أوائل الكتب الاثرية ومع ذلك لم أذكر فى مرة من المرات أنى اطلعت على أعجب وأتقن من تلك النقوش المحكمة والرقوش الدقيقة وهذا ما اقتضانى اذ ذاك أن أتأسف كثيرا من اهمال ذلك المسجد بالخليل وتركه بدون أقل مراقبة ولا بد أن شيئا عظيما من صناعاته البديعة وزخارفه المدهشة قد ضاع ومحي أثره لأن فى وجود مثل الآثار التى شاهدناها على الجدران وغيرها ما يستدل منه

على أن المسجد كان قبل أن تفتك به عاديّات الزمان حافلاً بالمصنوعات العربية التي من هذا القبيل ولسنا نعرف لعفاء هذه الأشياء النفيسة سبباً سوى عدم العناية في مبدأ الأمر بحفظ آثار المتقدمين وأعمالهم التاريخية النبيلة وبعد ذلك مررنا بالآبار وقال مرشدونا في ذلك المكان إنها عميقة إلى قرار بعيد ولا يبعد أنها تكون في عمق الخندق ثم إن في صحن القلعة الذي أسلفنا ذكره عدداً كبيراً من الأقبية وفي وسطه قبة نفحة قائمة على أربعة أعمدة من البناء ؛ ويستدل من شكلها على أنها كانت في أول عهدنا فوق بئر محفورة في نفس الصخر وهناك رأينا منارة جميلة الشكل بهيئة المنظر وفي الجهة الشمالية الغربية يوجد مدفعان قديمان صنعت فوهتهما من الحديد المزوج بالرصاص وبعد ما اطلعنا على أهم ما تشتمل عليه تلك القلعة من الداخل والخارج صعدنا إلى أعلى نقطة فيها وأشرفنا منها على المدينة وضواحيها فرأينا بين الأشجار والمزارع وما يخللها من العيون والأنهار منظراً ساحراً فتأنا لاندري وقد أخذتنا من حسنه روعة أهو أبهج أم ذلك المنظر الذي كنا شاهدناه على دمشق من فوق الصالحية .

بيت جابري باشا

ثم برحنا القلعة متجهين نحو بيت صاحب السعادة جابري باشا

اجابة لدعوته حيث كان سيرنا اليه من داخل البلد الذى تطوفنا فيه على جملة جهات بقصد أن نطلع على ما لم يسبق لنا الاطلاع عليه حتى وصلنا الى المنزل ، وهناك رأينا فى انتظارنا على بابه سعادة الباشا فى لفيف من أقاربه فاستقبلونا بأكرام وحفاوة واحترام ودخلوا بنا الى البهو فاستقبلنا فيه أيضا جم غفير من حضرات المدعوين يتقدمهم الى ذلك عطوفة الوالى وما جلسنا الا نحو خمس دقائق ثم دعينا جميعا الى غرفة المائدة فتناولنا عليها جملة ألوان من ألد الطعام وأشبهه لو كان أحسن ما تذوقناه منها ثلاث صحاف من طعام البلد الخاص بها والمشهورين أهلها ، وبعد ما انتهينا من الأكل والشرب عدنا الى مجالسنا فى ردهة الاستقبال وكان عدد المدعوين معنا يبلغ نحو ١٨ نفسا من أشراف الناس فى المدينة وقد قدم لكل واحد منهم نارجيلة يدخن فيها كما هو المعروف فى عوائد هذه البلاد واذا ذاك كان المنظر فى ذاته غريبا وأغرب منه ما كنا نسمعه من قرقرة النارجيل التى لم نجد لوصفها أبلغ وأظرف من قول الشاعر :

ولابسة من الياقوت تاجا ❁ تقهقه كلما قبلت فاهها

ويظهر لى أن هذه القعقة فى مسمع أرباب الكيوف ألد من رنات

المثانى ودقات الدفوف ، وكان فى الحفلة جوقة موسيقى وترية جميلة .

تطرب الجالسين بالحنان الشجية وفيها اثنان يغنيان من أشهر المغنيين في مدينة حلب. وبينما نحن في تلك الحفلة جاءنا جماعة من مشاهير التجار ومعهم بضائع وأصناف شتى من المنسوجات الحريرية والقصبية وما أشبه ذلك مما يصنع في نفس البلد وبعد أن اطلعت عليها وأعجبني حسن نسيجها ودقة صنعها اشتريت منها بعض الشيء الذي يلزم لي، وعلى أثر ذلك أخبرت بحضور حصانين من أشهر خيل العرب في تلك الجهات فنهضت لرؤيتهما وكانا حقيقة جوادين كريمين أعجبني حسنهما حتى رغبت فيهما رغبة تامة وهممت بشرائهما لولا أنه ظهر لي أخيراً بالبحث الدقيق أن فيهما من العيوب الخفية مالا يرجي زواله بسهولة وبعد ذلك رأينا جواد صاحب الدولة ناظم باشا وهو أدهم جميل المنظر يشبه كل الشبه حصاني الأسود الذي كنت أهديته من قبل السلطان عبد الحميد .

الى النزل

ثم خرجنا من عند سعادة الباشا وأصحابه ونحن لا نقدر ما كان داخلنا من الجذل والسرور بما استقبلنا به أولاً وودّعنا به آخراً من الترحيب العظيم والحفاوة التامة، وقصدنا الى الضواحي المباشرة للمدينة فقضينا ردها من الزمن في الترويض بين المزارع والبساتين ثم عدنا من هناك

الى النزل لنستعد للدعوة الثانية عند عطوفة الوالى ثم مالبثنا الا حيث
أخذنا أهبتنا ثم ركبنا عرباتنا ووصلنا الى نادى الاتحاد فوجدناه آخذا
من الزخرف والزينة ما لا بد أن العمال تعبوا فيه تعباً كبيراً .

فى نادى الاتحاد والترقى

وكان عطوفة الوالى وجماعة من رجاله المخلصين ينتظروننا على
مدخل النادى فاستقبلونا بما أنطق ألسنتنا بشكرهم أجمعين ، وبعد أن
دخلنا غرفة الاستقبال الواسعة وجلسنا برهة ريثما تناولنا القهوة قام
حضرة الخور فسقفوس جرجس سلحت نائب مطروبوليت السريان
وأنشد قصيدة فى المدح والتهنئة بالقدوم ، ثم دعينا لتناول الطعام على
مائدة كان يحيط بها نحو خمسين نفساً من المدعوين وكلهم من عليّة
القوم وكرام الناس فى حلب فأكلنا وشربنا ألواناً وأصنافاً شهية لذيدة
بينما كانت الموسيقى تشنف الآذان بألحانها المطربة حتى اذا انتهى
الأكل وجلسنا فى مجالسنا قام عطوفة الوالى فى ذلك المحفل الحافل
وألقى على مسامع الحاضرين خطبة رشيدة العبارة جميلة الاسلوب
شرح فى أولها سروره وسرور قومه بزيارتنا لبلدهم وأطال فى آخرها
بالدعاء لجلالة سلطان المسلمين وسمو الجنتاب العالى الخديوى ، وقام على
أثره حضرة بشير أفندى رئيس البلدية وخطب خطبة كانت

تطوف معانيها حول الترحيب بنا والشكر لنا، ثم تلاه الشيخ محمد بدر الدين افندى النعسانى أحد علماء حلب وألقى خطبة أيضاً وهكذا كان يقوم مصانع الخطباء وفتاحل الكتاب والشعراء بعضهم تلو بعض حتى كان يخيّل إلينا أننا محتشدون في مجتمع على أو ناد أدبيّ وكلهم كانوا يضربون على نغمة واحدة، وهنا نذكر مما قالوه قصيدتين أحدهما لحضرة الخور فسقفوس المذكور والأخرى لحضرة جورجى افندى خياط

قصيدة الخور

غدت من بنات الماء جارية تسرى ❁ على عجل والقلب منها على جمر
تضاهى فؤادى في تأجج شوقه ❁ الى رؤية المصر الذى عزم من مصر
أريد به مصر التى في ابتداء الدهر ❁ بدت بهجة الدنيا بيوسفها البر
به فاقت الأمصار قدما وحسنها ❁ كسا آلهة الأبحار أردية الفخر
على الفلك العلوى جرّت ذيولها ❁ وأزرى سناها اليوم بالأنجم الزهر
بعباسها الغطريف يوسف عصره ❁ من البشر منه منجّل طلعة البدر
إذا قام في دست الإمارة حاكما ❁ يشير إليه القوم بالأنمل العشر
فلا عجب وهو العظيم فعّاله ❁ إذا كان فيها صاحب النهى والأمر
فمن خيمه تلفيه في روضة بكر ❁ ومن نفسه القعساء في عسكر مجر

ومن كفه قد ينبط الماء في الصخر ❀ ومن رفته النيل المنيف على البحر
يضارع قيسا في أصالة رأيه ❀ ومعنا بجود زانه الحلم في الصدر
فاصبحت في إطرانه بلبل القطر ❀ وان لم أكن قبل المجلى في الشعر
كشوقى ومطران وصبرى وحافظ ❀ وصدقى ومعروف ذوى الطرف الغر
وحامل بند الشعر فى وقتنا الى ال ❀ ففتوحات بستانينا الذائع الذكر
أيا قادمنا شهباءنا جئت موطننا ❀ بزورتك افترت ضواحيه عن بشر
وفيك رأينا اليوم شخص محمد ❀ على عزيز المشرق الطيب النشر
أمولاي ان الشعر يسكر كالخمر ❀ ويغنى عن الدر المنضد فى النحر
فهذى مبانيه حكمت قطع التبر ❀ وهذى معانيه حكمت أخذ السحر
ولكنها عن مدح ذاتك قصرت ❀ الا استجلها عذراء تفصح عن عذر
ودم يا أخا العباس مرتفع القدر ❀ على صرحك العالى يرى علم النصر
ولا برحت جدواك تنهل كالقطر ❀ فتزجى اليك الشكر فى النظم والنثر

قصيدة جورجى افندى خياط

أيا من زار هذا القطر أهلا ❀ وسهلا فيك يا أسمى سرى
تفانر فيك مصر كل قطر ❀ أجل يانجل توفيق الأبى
وعباس الحلیم عزيز مصر ❀ أخوك دعوته بالاريجى
فتى حكم البلاد بعدل كسرى ❀ وأحكم قبل ضرب المشرفى

لقد طابت مغارسكم قديماً ❀ فانت الفرع من أصل زكيّ
 وأنت محمد للمجد تهدي ❀ لذا سمالك آلك بالعليّ
 فسبحان الذي سؤالك يامن ❀ يذكر بالجمال اليوسفيّ
 وإن شئنا نقول اليوم شمناً ❀ تباشير الكمال الآصفيّ
 ألا أهناً يا أخا العباس وأصعد ❀ ذرى العلياء يا أولى وليّ

وهنا لا أستطيع أن أصف كيف كان تخرجي في هذا الموقف الضيق
 إذ كنت منه بين عاملين عظيمين يتنازعاني إيجاباً وسلباً فبينما أرى أنه
 من حق القوم علي أن أحييهم وأشكرهم بمجاملتهم ومروءتهم في خطبة
 مثل خطبتهم قياماً بالواجب المفروض على الإنسان للإنسان من جهة
 دينه وأدبه خصوصاً في مثل هذه الظروف. وقد قيل من صنع معكم
 معروفًا فكافؤه، وقيل أيضاً من لم يشكر الناس لم يشكر الله، وفوق
 هذا وذاك قول الحق جل شأنه (واذ أحييتم بنحية فخيوا بأحسن منها
 أو ردوها)، إذ أجد أن مقتضى السياسة الحاضرة يحظر على مثلي أن
 يقف خطيباً في هيئة عامة كهذا المحفل الكبير مخافة أن ينقلب
 الاجتماع من عادى بسيط إلى سياسي محض فانه ما أسرع ما تحيط
 الظنون والأوهام بالأحاديث التي يلقونها الأمراء والحكام في المجالس
 الرسمية أو الشبهية بها ويتناقلها الناس بعضهم عن بعض وقل في الناقلين

من لم يشق وجهه الأخبار ويمسح صورها، ومن لم تحمله نزعته على أن يذهب بها وفاق الأغراض والغايات ولا على مثل هذا أن يفعل غير مبال إذا هو وافق المصلحة العامة أو خالفها بل إذا ترتب على فعله شقاء أمة بأجمعها، وكثيرا ما ينتفع سماسة السوء وأعوان الشر من مثل هذه الفرصة وينتهزون بها لالقاء الدسائس وإثارة الوسوس بما اعتادوه من الشغب وإقلاق الخواطر، ومن العجيب أن هؤلاء يستطيعون أن يرتبوا أخطر الأعمال على أوهن الأسباب ومتى أرادوا أن يحاولوا أمرا من الأمور لا يعدمون له وسيلة ولا يفقدون فيه حيلة، اذن فماذا عساني أن أصنع ولا محيص من الكلام مع هؤلاء الخطباء الكرام لاسميا وان فيهم عطوفة الوالى وقومندان الجيش وأركان الولاية الى غير ذلك ممن عرفت أنه لا يحسن السكوت فى اجابتهم نعم انى قت وأجملت فى أقل ما يمكن من الكلام ما كان يجوز فى نفسى من اظهار عواطفى نحو الجماعة وشكرهم على ملاقيته من كرمهم ولطفهم، وقلت فى ختام مقالتي بعد أن دعوت الله لهم وبحلالة السلطان انى أرجو لبلدكم هذا مستقبلا جميلا فى عهد عطوفة الوالى وانكم بهمته ونشاطه ستبلغون ان شاء الله أسمى المقاصد وأعلى المطالب فانه من خير الرجال المخلصين والحكام العاملين دائما على سعادة بلادهم وراحة شعوبهم

ثم عدنا الى الفندق مودعين من لدن صاحب العطوفة نحرى باشا بكل تجلة واحترام، وقد بيتنا النية على الرحلة من حلب في صباح يوم الثلاثاء ٢ ربيع الثانى سنة ١٣٢٨ ولا بُدُّ لنا ان شاء الله من ذكر كلمة عن حلب الشهباء وفاء بحقها وقد كانت من أجمل بلاد الشام وأعظم مدائنها عمارة وحضارة لاسيما وقد رأينا من معروف أهلها وودادتهم مالا ننساه لهم على طول الحياة وما لعلنا اذا ذكرنا شيئا منه نكون قد أديننا بعض الواجب علينا تلقاء ماصادفناه من شهامة هؤلاء القوم ومروءتهم العالية .

حلب

هذه المدينة واقعة على الدرجة ٣٦ و ١١ دقيقة و ٣٢ ثانية من العرض الشمالى ويبلغ ارتفاعها عن سطح البحر نحو ٣٢٠ مترا وهى قائمة فى سهل منخفض على حدود الصحراء تحيط بها تلوى كثيرة ويرى حوالها آثار أبنية قديمة تدل على أن هذا البلد كان محاطا بسور كبير ضخيم بل ان أثر السور نفسه لا يزال قائما فى بعض نواحيها الى الآن وله أبواب عدة تسمى بأسماء مختلفة فمنها باب النصر وباب الفراح وباب الجنين وباب انطاكية لأنه قائم على طريق انطاكية التى هى على مسافة نحو ستين ميلا من مدينة حلب وباب الكنسرين

وباب المقام وباب التراب وباب الأحمر وباب الحديد وفي الجهة الشمالية التي بية يجري نهر قويق وهو نهر جميل كثير السمك ويكثر فيه على الخصوص نوع من هذا يسمى بالشعاين وهناك يجري نهر آخر يسمى شالوس وهو ينبع على بعد بضعة أيام من الجهة الشمالية ويصب في مستنقع يبعد عن جنوب المدينة بنحو خمس ساعات ونصف تقريبا .

تاريخ المدينة

أما المدينة فقديمة جدًا واختلف في بانيها على جملة آراء منها أن حلب بن المهر أحد بني الحان بن مكنف من العماليق هو الذي اختط هذه المدينة وسميت باسمه سنة ٣٩٩٠ لآدم وذلك بعد ورود ابراهيم الى الديار الشامية بمدة ٥٤٩ سنة هاربا من راميس ملك أسور وأن العمالقة كانوا جعلوها حصنا لأنفسهم وأموالهم بعد أن فتح يشوع بلادهم ولم يزلوا عليها الى أن أخذها منهم داود، وكثر ذكرها في تاريخ العرب وشعرهم، وهي بما حوت من جمال الجوّ وحسن البقعة وجودة الهواء جديرة بذلك الذكر والاطراء ثم انه يحيط بها في ضواحيها المباشرة حدائق غناء وبساتين بهيجة أكثر غرسها من شجر الدلب وشجر آخر يسمى لسان العصفور وشجر الحور الأبيض وشجر العرب وكذلك النبق والجوز والسفرجل والفسق والزيتون وهذه الخضر المتجاوزة حدّ

الجمال تبتدئ على بضع ساعات من الجهة الشمالية وتنقسم الأرض في ضواحيها الى ثلاثة أقسام، الأول الجهة التي يكثر فيها الطمي الرمل من الوادي، والثاني أرض محمّرة في لون الطوب وفي هذه الجهة ينبت صنف القمح والفسق وينجحان نجاحاً مدهشاً وأحسن ما ينبت الفستق ويفلح اذا كان في الجهات الشرقية حيث كان يستجلبه الامبراطور قينليوس أحد امبراطرة الرومان في عصر نيرون صاحبه وشريكه في مظالمه المشهورة النوع الثالث الطمي الاسود الذي بمجرد ما جف يتفكك كلية ويثول الى تراب ناعم، وتستقي المدينة وما يحيط بها من المزارع والبساتين من قسم من ماء نهر قويق ومن قسم آخر يفرق عند وصول النهر المذكور الى قرية هيلانة وهي قرية بنتها قديما الملكة هيلانه أم الملك قسطنطين الأول وهذه المياه تصل الى داخل المدينة وتتوزع على جملة جهات فيها بواسطة قناة، أما الجوف في تلك الجهة فهو بارد في فصل الشتاء ويقال انه يكثر سقوط الثلج والبرد في هذا الفصل أيضا ومن ثم لا تعيش هناك أشجار البرتقال، وفي الصيف ترتفع الحرارة وتشتد أكثر منها من مدينة بيروت ولكن الهواء جاف تلطفه كثيرا نسيمات الشمال العليلة، ثم ان حلب هي مركز الولاية التي تشمل الشام الشمالية كلها وحدودها تصل الى نهر الفرات، ويقدر

عدد سكانها الآن بنحو ٢٠٠ ألف نفس، والثلاثان من هذا العدد مسلمون، والثالث الباقي من طوائف مختلفة فمنه ١٢ ألفا من الروم ومثلهم من اليهود و ٤ آلاف من الأرمن والباقي بعد ذلك خليط من الأرمن المتحدين والمارونيين والكاثوليك، ويوجد فيها جمعية بروتستانتية للإنجليز وفيها عدة مدارس ابتدائية وثانوية بعضها لطائفة الفرنسيين سكان وفيها أيضا مدرسة للبنات تديرها راهبات القديس يوسف، وعلى مسافة أربعين كيلومترا من شمال المدينة يبتدئ خط الانفصال بين اللغتين العربية والتركية ثم ان أهل المدينة يتكلمون بالعربية وهم مع ذلك يجيدون اللغة التركية نطقا وفهما أكثر من أهل دمشق ولعل ذلك لأنهم قريبون من جهة الأناضول وقد يلاحظ أن اللهجة العربية في حلب لا تفرق كثيرا عن لهجات سائر مدن الشام وعدد الأفرنج فيها أكثر من عددهم في مدينة دمشق ولعل السبب في ذلك هو أن حلب بمثابة مستودع لكثير من متاجر الأوربيين بحكم مركزها الجغرافي اذ هي واقعة بين جملة طرق وقد أخذت هذه المدينة تتحول قليلا عن شكلها الشرقي وصناعتها الوطنية تكاد تتلاشى في جانب الصناعة الاوربية ولا سبب لهذا فيما يغلب على الظن الا تلك العلاقات التي كانت ولا تزال بين هذه المدينة وبين الغرب

منذ العصور القديمة، وهى فى مقابل ما تستورده من مصنوعات أوروبا وتستجلبه من بضاعتها تصدر اليها الأشياء الأولية الآتية وهى الغلال والصوف والقطن (الذى لاتزال تزداد زراعته سنة بعد أخرى) والعصف والصمغ والسمن والجلد على اختلاف أصنافه، ويقال ان صادرات هذا البلد بلغت الى نحو مليون ونصف من الجنيهات وقد علمنا أن أكثر ما يصنع من الأنسجة الحريرية والصوفية وغيرها يصدر معظمه الى جهة الاناضول، ومن تاريخ حلب أيضا أنه جاء ذكرها فى الآثار المصرية منذ ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد وقد ذكرها سليندار ملك آشوريا وهو الذى فتح مدينة سامرا وفرض الجزية على بنى اسرائيل ثم محاملكهم حيث أخذهم وملكهم أسرى فى سنة ٨٥٤ قبل الميلاد وقد قرب فيها قربانا الى الاله حداد وزاد فى اتساعها بعده الملك سيلوكوس نيكاتور، حكم هذا الملك على بابل بعد وفاة الاسكندر وجمع تحت لوائه الشام وأرمينيا والعراق وقسم من آسيا الوسطى وهو مؤسس الأسرة الملوكية التى حكمت الشام زمانا وكانت تلقب باسمه (نيكاتور) وهو أيضا الذى أطلق على حلب اسم يرواه وفى سنة ٦١١ بعد المسيح دهمت هذه المدينة بحريق عظيم ويقال ان احراقها فى ذلك العهد كان بأمر من كسرى الثانى ملك العجم ثم

وقعت في أيدي العرب تحت قيادة أبي عبيدة بن الجراح بدون أدنى مقاومة في سنة ١٥ للهجرة وذلك أن أبا عبيدة رضى الله عنه لما فرغ من قنسرين سار الى حلب فبلغه أن أهل قنسرين نقضوا وغدروا فأرسل اليها جماعة وسار هو حتى وصل الى ظاهر حلب وهو قريب منها فجمع أصنافا من العرب وصالحهم على الجزية ثم أسلموا بعد ذلك وأتى حلب وعلى مقدمته عياض بن غنم الفهرى فتحصن أهلها وحاصرهم المسلمون فلم يلبثوا أن طلبوا الصلح والأمان على أنفسهم وأولادهم ومدينتهم وكنائسهم وحصنهم فأعطوا ذلك واستثنى عليهم موضع المسجد ومن هذا الحين أخذت البلد تتقدم وتزداد أهميتها وكانت عاصمة ملك سيف الدولة بن حمدان من سنة ٩٣٦ الى سنة ٩٦٧ ميلادية، وفي سنة ٩٦١ استولى عليها البيزنطيون تحت رئاسة نيشغور ولكن لم يستطيعوا الاستيلاء على حصنها ثم جاءت بعد ذلك الحروب الصليبية وفي سنة ١١١٤ هدمتها الزلازل، وفي سنة ١١٢٤ حاصرها الملك بيدوين أحد ملوك الصليبيين ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها، وفي سنة ١١٣٩ عاودتها الزلازل ثانية ثم رجعت ثالثة وكانت في الأخيرة أشد منها في الأولين وذلك في سنة ١١٧٠، فجدد عمارتها وأعاد اليها سيرتها المرحوم السلطان

نور الدين الشهيد كما أنه بنى القلعة ثم هدمها المغول تحت رئاسة
 هولاء في سنة ١٢٦٠ ثم أعادوا الكرة عليها في سنة ١٢٨٠
 وفي عهد سلاطين المماليك بمصر كانت حلب عاصمة الشام الشمالية .
 وفي سنة ١٤٠٠ خرب المدينة تيمورلنك بعد واقعة هائلة على الأبواب
 هزم فيها السوريون شر هزيمة وفي سنة ١٥١٦ افتتحها السلطان
 سليم ومحا آثار سلطة المماليك منها ومنذ ذلك العهد وهي قاعدة ولاية .
 وإذا كانت حلب قد استطاعت على الرغم من كل هذه الحوادث
 المتكررة والمصائب المتتالية أن تقوم من وهدتها لامة شعنها رافعة
 رأسها حافظة لكانها ومكانها فذلك انما هو بفضل مركزها الجغرافي
 والتجاري ، أما مركزها الجغرافي فلأنها قائمة على طريق العجم والهند
 وأما مركزها التجاري فلأن تجارة الحرير والأقمشة والاجواخ والأحجار
 الكريمة كل هذه التجارات في ذلك البلد نامية زاهرة . وعلى الجملة فان
 حلب هذه هي أحسن نقطة في كل الولاية ولذلك اتخذها أكثر الملوك
 الفاتحين عاصمة ملكهم . ويقال ان جدنا المرحوم ابراهيم باشا كان قد
 اتخذها مركزا للجنود والعساكر

بيوت المدينة

وقد كنا نشاهد أثناء مرورنا في طرق المدينة وشوارعها أن البيوتات

في معظم الجهات مبنية من حجارة منقوشة من خرفة لا فرق في ذلك بين طبقاتها العليا وأدوارها السفلى، وقد أعجبنى كثيرا ما رأيته من تلك النقوش البديعة المحفورة في نفس الأحجار بغاية الدقة والاتقان ومن ذلك عرفت أن لأهل هذا البلد مهارة فائقة وحذاقا عجيبا في صنعة النقش الحفرى الذى يظهر فضل الصانع فيه على الأحجار أكثر مما يظهر على غيرها فكان ذلك مصدقا لما اشتهر عنهم منذ زمان بعيد، ثم رأينا في بعض أحياء البلد أبنية حديثة العهد على النمط الأوربى ولم نستغرب أن نمر من شوارع البلد في بيوت على الطراز الحديد وأن سكانها أكثرهم من ثروة المسيحيين، وهناك حتى آخر يسكنه جماعة اليهود

السفر من حلب

وانه ما كادت تشرق علينا شمس يوم الأربعاء ٤ ربيع الثانى سنة ١٣٢٨ حتى كنا تأهبنا للسفر وكان قد حضر لدينا جم غفير من أهل المدينة فركبنا العربات من باب الفندق الى المحطة وهناك كان فى انتظارنا زحام شديد من المودعين الكرام يتقدمهم جميعا عطوفة الوالى وأركان الولاية وأصحاب الحثيات الكبيرة وبعد أن تبادلنا السلام والشكر وودّعنا من حضراتهم جميعا بما لا يتسع المقام لشرحه من التجلة والتفخيم نزلنا فى الصالون الخاص وكانت المحطة لا تزال

تموج بالناس موجا وما هي الا لحظة وتحرك القطار في طريق حمص
واذ ذاك لا أستطيع أن أعبر عن سرورى وإبتهاجى بأولئك الحليين
الافاضل الذين لم يتركوا فى سبيل راحتنا وانبساطنا شيئا الا فعلوه وقد
نزل معنا فى القطار الوفد الذى كان قد عين لاستقبالنا فى طرف
الولاية عندما حضرنا، وما فتئ ابن البخار يتابع السير على عجل الى ان
وقف على محطة حماه التى كان ينتظرنا على افريزها صاحبها الوجاهة
والفضل زعيم أسرة الكيلانية الشهيرة ورئيس أسرة الازهرى مظهرين
لنا مزيد الأسف لما فاتهما أولا وآخرا من نزولنا فى بلدهم وقد كانا
يودان كثيرا أن ننزل ضيوفا عليهما ولو زما يسيرا فشكرتهما واعتذرت
اليهما بضيق الوقت وفى تلك الاثناء عرضت على جملة خيل من التى
اشتهرت عندهم بالقوة والجلد والصبر على احتمال المتاعب والمشاق
فما وجدت فيها ما يروجهما من المحاسن والمميزات التى تعشق بها الخيل
وتقتنى من أجلها الجياد، وهنا ودّعنا حضرات أصحاب السعادة
والفضل مرعى باشا وقومندان الجندرية وبقية الوفد وكررنا لهم شكرنا
وعدنا بأجمل الثناء على عطوفة الوالى الذى بذل كل عنايته فى ادخال
السرور علينا من كل طريق، ثم تحرك القطار متجها الى حمص التى
وصلنا اليها دون أن نشعر من هذا السفر بتعب أو قلق بل كان ارتياحنا

الى تلك المدينة لا يقل عن ارتياح الانسان الى مسكنه ووطنه لما
كنا نجده دائما من لطف سعادة عبد الحميد باشا الدروبي وكرمه
خصوصا بعد ما ترددنا على هذه البلد وأوينا اليها مرة بعد أخرى
وجئنا وصلنا الى المنزل الذي وصفنا جماله في الدفعة الانحرى حضر
الينا زائران أحدهما شيخ كبير من المعروفين في ضواحي حمص
بالصلاح والتقوى والثاني أمير من أمراء المغرب وهو نجل الامير محمد
المنهسي الذي كان ناظر الحربية في مملكة مراکش فاستقبلناهما بما
يليق بمقامهما من الاحترام .

حديث الامير المغربي

وما كاد يستقر بالامير مجلسه حتى أخبرنا عن قصته في أيامه الاخيرة
فقال انه كان قائدا من قواد الروجي الذي كثيرا ما ألح في حرب سلطان
المغرب واشتد عليه وأنه كان من أجل ذلك يحارب في الجملة والده ضرورة
أنه كان اذ ذاك وزير الحربية وفي جند السلطان وعسكره الى أن قال ان
الروجي كان أرسله الى السلطان عبد الحميد في مهمة تخصه، وبينما كان
في اسلامبول لأداء تلك المأمورية اذ فجع بنحبر قتل الروجي في واقعة .
فما زال بعد ذلك مقبيا هناك متحيرا الفكر لا يدري ماذا يصنع به وقد عدم
وليه ونصيره ثم قال ومن سوء حظي أيضا أنه كان معي في تلك الرحلة

ولداى الصغيران وامرأتى ولما أن ضاقت فى وجوهنا أبواب المعاش
وأسابب الرزق اضطررنا الى الهجرة من اسلامبول الى مدينة حمص
وما فتئنا مقيمين بها الى هذا اليوم فى احد المنازل الصغيرة هذا
طرف من حديثه معنا وكان أخبرنى سعادة عبد الحميد باشا الدروبي
أن هذا الامير رفيع النفس وقد حاول بعض المحسنين أن يصله
ببعض المال فأبى وما علمنا أنه نزلت به نفسه وقتاما الى قبول صدقة
الناس ولا احسانهم وأنه من وقت أن جاء هذا البلد وعرفناه الى الآن
وهو انما يعتاش من فضل مكسبه الذى يستحصله من كده وعمل
يده فاستغربت قصة هذا الامير من حديث الباشا وقلت فى نفسى لله
هذه العفة النادرة من رجل غريب فى تلك البلاد البعيدة وان مثله
لو مديده لأهل المروءة واليسار لنال من ما لهم ما يجعله فى غنى عن
الكد والكدح طول حياته لأن الناس مدفوعون بطبيعتهم الى معاونة
أمثاله وفى المجلس ناوئى ذلك الامير عريضة يرجونى فيها أن أتكلم
مع والده فى طلب العفو عنه، أما أنا فما كدت أقرأ هذا الطلب
فى عريضته حتى ارتبكت وتحيّرت فى مسأله اذ لم يكن يرضينى أن
يعيش هذا الامير وهو لا يزال غض الشباب تلك العيشة المرة ويقضى
حياته الطويلة بعيدا عن بلده وأهله وأصحابه متجشما مضاعبا

العيشة معانيا متاعب الحياة أشد مما يعانيه الفقراء البائسون واني لأرأف الناس به وأشفقهم عليه من حين بلغنى تاريخه ومن ذا الذى يكون فى قلبه مثقال ذرة من الشفقة ولا يتألم لهذا الامير أولا يريد أن يكرمه وقد أصبح بعد العز ذليلا وبعد الغنى فقيرا وصار يعد من أفراد الناس وعامتهم بعد أن كان لا يحسب الا فى أمرائهم وسادتهم وعظمائهم وقادتهم، ولكن ماذا عسانى أن أصنع فى مسأله اذا كان لا يقبل منة أحد عليه صغيرا أو كبيرا كما أنه ليس من المستطاع بوجه من الوجوه أن أخاطب والده فى طلب العفوعنه بعد أن جرى بينهما ما كان جرى من المحاربة والمخاصمة وما يدر بيننا لعل فى المسألة سرا أبعد من كل ذلك فان والدا يقسو على فلذة كبده الى حد أن لا يفرض له وجودا طول هذه المدة ليس مما ينبى على أسباب بسيطة أو يترتب على حوادث هينة ولهذا لم أجدرى جوابا سوى السكوت وقد كنا بحسن المصادفة مطلوين لتناول الطعام .

السفر من حمص

وحين بزغت شمس اليوم الثانى جهز لاجلنا أربع مركبات كان من ضمنها مركبة سعادة عبد الحميد باشا الدروبي الخاصة وثلاث من مركبات الايجار فركبت العربى الاولى ومعى سعادة الباشا المذكور

وركب حضرة عزيزنا أحمد بك العريس ومعه محمود خيرى أفندى عربية بعدنا أما العربتان الباقيتان فقد ركبهما اثنان من توابعنا ومع كل واحد منهما بعض المتاع الخاص بنا وقصدنا الى طرابلس حيث انه لم يمد الى الآن خط حديدى يربط بين حمص وبين طرابلس ولا يزال المسافرون من هذه الى تلك يركبون اما العربات أو الدواب وعلى كل حال فان السفر فى هذا الطريق سهل بل هو فى المعنى أشبه بالفسحة الرياضية لما يصادف المسافر فيه من الاغراس الياقة والأحراش الجميلة. ثم اننا قبل أن نحرك ودعنا سعادة متصرف المدينة وحضرات الحكام وأكابر القوم الذين كانوا قد حضروا الى دار سعادة الباشا لهذا الغرض وشكرناهم وذكرنا لهم معروفهم فى غير مرة بغير عبارة وبعد ذلك ابتدأنا السير وكان أمام عربتنا أربعة من عساكر الجندرية وأربعة آخرون مثلهم من خلفها. وما برحنا نواصل السير فى ذلك الطريق حتى وصلنا الى سراق جميل كان قد أعده لأجلنا بالخصوص حضرة المفضل محمود بك أحد زعماء مشايخ الدنادشة، وكانت مسافة مسيرنا منذ نخرجنا من حمص حتى وصلنا الى هذه النقطة لا تبلغ أكثر من نصف الساعة .

في الطريق

وهناك كان ينتظرنا حضرة البك المذكور مع لفيف من اسرته
الكريمة بينما كان نحو مائة وخمسين فارسا مصطفىين على خيلهم أمام
تلك الخيمة بغاية النظام وقد كان بين ظهرانيهم فتاتان من بنات
العرب مثقلتين بالحلى على لبوسهما العربي اللطيف وفى احدى يدي
كل واحدة منهما سيف وفى الاخرى منديل ثم هما كانتا تغنيان بين
هؤلاء الفرسان لاجل تشجيعهم وتهيج عاطفة الفروسية فيهم وقد
نزلنا من العربات ودخلنا ذلك الصيوان وبعد أن أخذنا منه مجالسنا
قدمت لنا القهوة ثم الشراب ولم نلبث بعد أن شربناهما الا مسافة
عشر دقائق ثم قمنا فمررنا أمام أولئك الفرسان الذين كان يركب أغلبهم
أفراسا تتبعها أولادها المهارة. واذ ذاك أخذ العرب الخيالة يتبارون
فى اللعب ويتغالبون على الخيل وفى أيديهم بنادقهم على نحو ما يرى
فى الملاعب والميادين مما يسمى فى عرف العامة بالبرجاس. وقد خفت
حينئذ أن ينفلت رصاصهم على غير عمد فيصيب أحدا لأن بنادقهم
كانت من الطراز الحديث وهى من النوع الذى لا بد لاطلاق عبوته
الهوائية من وجود الظروف الرصاص فيها أولا ولذلك طلبت اليهم
أن يكفوا عن الضرب فى ذلك الملعب وفى تلك الاثناء كانت البنات

تدوران حول الخيالة من هنا ومن هناك وتترنمان بأناشيد الحرب
ونغمات الطعن والضرب فكانتا تنبهان بذلك الغناء المؤثر عواطف
الفوارس وتحركان فيهم غريزة الحمية والشجاعة حتى أخذت الحماسة
من نفوسهم مأخذا عظيما وما زالوا كذلك حتى ركبنا العربات وركب
حضرة محمود بك فرسا وسار بجانب عربتنا وتبعه جميع الخيالة من
خلفنا وأمامنا وعلى جانبينا أيضا وهم بين أن يعدوا سراعا ويعودوا
بطاء ويتنوعوا في ألاعيبهم الحماسية جريا ووقفا ودفاعا وهجوما الى غير
ذلك مما لا يدرك وصفه الا بالرؤية والمعاينة وقد كنت حين ذاك
أعجب بشجاعة أولئك القوم ومهارتهم فوق ما كنت أعجب وأعجب
أيضا من أبناء الافراس الصغار التي كان عمرها في الغالب لا يزيد عن
أسبوعين ومع ذلك كنت اشاهدها تتبع امهاتها في تلك المسافات البعيدة
على هذا السير الخثيث وتحمل مشقة السفر والبحرى وقد أخذتني
بها من أجل ذلك رافة شديدة فطلبت من أولئك الراكضين أن
ينخفضوا السير ويتثدوا لكيلا يشقوا على تلك المهرات المساكين وهي
في ذلك السن الصغير ثم ما فتئوا يركضون على طول المسير ويلعبون
بأعظم مهارة وأكبر حذق وكان فيهم فارس كبير السن يلبس ملابس
دندشية قديمة يسمى عثمان أغا وهو يمتاز عن اخوانه بحب الظهور

عليهم في الفروسية وخفة الحركة وحقيقة كان هذا الفارس العجيب
يبدى أمامنا من ضروب المهارة في الغدق والرواح والصعود والهبوط
على الصخور الجبلية ما كنا نعجب منه غاية العجب وكذلك كان له
حذق غريب في عبور النهر وهو فوق حصانه الذي كان يعد وتارة
في الارض وأخرى في الماء أسرع من الطير وأخف من الهواء
حتى استغربنا أى استغراب من جسارة هذا الرجل الفارس وجراته
المدهشة على ركوب الخيل بتلك الكيفية التي كانت فوق التصور
وما زلنا كذلك حتى دخل بنا الطريق في مضائق بين جبلين فكنا بين
أن نصعد مسافة الى فوق ونهبط أخرى الى تحت وكان لا يزال على
جانب عربتنا حضرة محمود بك وهو ممتلئ رجولية وشهامة لاسيما وانه
طويل القامة عظيم الشارب كبير الأهداب تتجلى فيه الفروسية
بأخص أوصافها وأجلى معانيها وهو مع ذلك مهيب وقور .

حادثة في الطريق

وقد حدث في أثناء السير أن فرسا من أفراس الركب لا أدري لمن
كان ضرب فرس ذلك البك في ذراعه الايمن بفخرجه جرحا بايغا مازال
يشخب دما حتى صبغ ساق ذلك الفرس المجروح بالدم فاحمر بعد
أن كان أزرق اللون وقد خفت على هذا الفرس المصاب أن يهلك

تحت راكبه لأن الجرح كان خطراً حيث كان النزيف مسترسلاً بقوة ومن ثم طلبت إلى محمود بك أن ينزل عنه اشفاقاً عليه ورحمة به أما هو فما كان ليهمه أصلاً أن يموت الفرس أو يعيش مادام في صحبتنا وضمن رفاقنا حتى قال حفظه الله مامعناه اني لأجعل فداءك نفسي وما فرسى بأعز عليّ منها. ثم تأخر عنا نحو دقيقة وقد كنا حسبنا أنه نزل عن الفرس ولكنه مالبث أن جاء إلى جانبنا كما كان ورأينا أن ليس على فرسه أثر الجرح ولا ذلك الدم الذي رأيناه وقت الحادثة وكان ينزف نزيفاً ففهمنا أنه كان في تلك المسافة الصغيرة يعالج الفرس ولكن لست أدري بماذا عالجها وأى دواء يصل مفعوله من السرعة إلى هذا الحد وقد عرفت أن بعض الفرسان المهاجمين كانوا من أبناء البكوات الدنادشة وهم أحدث تتراوح أعمارهم بين السابعة والعاشرة ومع ذلك فانهم كانوا يحسنون الركبة مثل ما يحسنها آبائهم وبنوهم كما كانوا يتقنون اللعب ويتفننون فيه كما أنهم مارسوه من زمان كبير ولا بدع أن يكونوا كذلك إذ قد تربوا على الشجاعة منذ نشأتهم واعتادوا على الفروسية وركوب الخيل بكثرة التدريب والتمرين . ثم دخلنا في ميدان فسيح وكان لم يمض على سيرنا أكثر من ثلاثة أرباع الساعة وهناك كان ينتظرنا عدد كبير من الخيالة ومعهم

البكوات الباقون من عشائر الدنادشة فاجتمع الفريقان وصاروا رجا واحدا ونحن لانفتأ نتابع السير حتى وصلنا الى تل كلخ وهو واقع في الحدود الفاصلة بين ولايتي بيروت ودمشق وفي آخر حدود الدنادشة واذ ذاك كنا قد دخلنا في وقت الظهر وحان ميعاد الغداء فذهبنا الى بيت حضرة محمد بك محمد وهو زعيم مشايخ عربان الدنادشة ونزلنا عليه ضيوفا بعد أن طلب الينا ذلك بالحاح الكرماء وكان ينتظرنا هناك بعض مستخدمى الحكومة وقد قدم الينا الطعام على مائدة كبيرة تسع عشرين نفسا وكانت على النمط الاوربي وفيها ألوان عديدة وأصناف كثيرة متنوعة، فأكلنا متلذذين من حسن الطعام واجادته أما الركب الذى كان معنا وقد عرفت كثرتهم فقد كانوا يأكلون جميعا موزعين على عدة موائد وطعامهم كان قاصرا على الارز واللحم ولم يكن ذلك ليدهشنى لاني لا أستغرب أن يجتمع على موائد هؤلاء العرب عدد كبير كالذى رأيناه أو أكثر وأنا أعلم أن العرب قوم جبلوا على الكرم وطبعوا على البذل والسخاء وانما الذى كنت أعجب منه عجبا شديدا هو تجهيز مائدة على الطراز الغربى الصرف وان القوم عرب شوقيون من سكان الجبال ثم بعد أن تهيأنا للسير شكرنا لحضرة محمد بك محمد تلك العناية العظمى وأثنينا كذلك على عشائره الكرام لما بذلوه من

الهمة والمعروف وقد اجتذبتني الى هؤلاء العرب جمال هندامهم وحسن بزتهم وكان بودى لو أن تطول عشتى بينهم لأتمتع كثيرا برؤية منظرهم الجميل لولا أن الوقت قصير محدود على أنى لم أبارحهم حتى عمدت الى أخذ صورتهم بواسطة الفوتوغراف لأحتفظ بها تذكارا لهم على طول الزمان وبعد ذلك أخذنا نسير بين الفرسان على الهيئة التي بينها أولا وانى على قدر ما كنت فرحا مسرورا بهذه المظاهرات الجليلة كنت آسفا من أنى راكب عربية ولم أكن فارسا ضمن أولئك الفوارس الشجعان فأركض فرسى لتعدو سريعة فى ذلك الميدان وكان يكثر نزوعى الى مباراتهم كلما كنت أنظر اليهم فأشاهد خفتهم على الافراس وهم يذهبون بها هنا وهناك تارة يهجمون وأخرى يدافعون وآونة يسرعون وأخرى يبطئون

استطراد فى السياحة

يسافر الانسان الى أقاصى البلدان ويرحل عن وطنه أحيانا لباحث مخصوص وقصد معلوم ثم يتفق أن يعترضه فى طريق رحلته شئ أو أشياء كثيرة لم تكن لتدور من قبل فى خلدته أو تخطر له ببال ثم كثيرا ما يصادف أن يكون بعض الشئ من ذلك هاما خطيرا الى درجة أن ينسى معه الانسان غرضه الذاتى وربما لم ينسه ولكن يهمله

اهمالا وَيُعْنَى بِذَلِكَ الشَّيْءُ الْعَارِضُ وَيَحْصِرُ كُلَّ عَمَلِهِ فِيهِ وَهَكَذَا
تتفاوت الامور وتتباعده مراتبها وكل امر يأخذ من غناية الانسان
واجتهاده بقدر أهميته في نفسه أو مركزه من الفائدة والمنفعة في اعتقاد
صاحب العمل وقد قيل احترام كل شئ انما يكون بقدر الحاجة اليه
عرف القارئ من مجمل ما تقدم بالضرورة أن سياحتنا في بلاد سورية
كان القصد منها أولا يدور حول ثلاثة أغراض لا يخلو منها جملة
مسافر في الغالب الاول تبديل الهواء طلبا للصحة والعافية - الثاني
مشاهدة معالم المدن الشهيرة في سهول الشام وعلى جبال لبنان - الثالث
الاطلاع على كرائم الخيل العربية والشامية التي تمتاز بها هذه البلاد
منذ العصور القديمة وقد كان هذا المقصد الاخير من أهم بواعث
السفر وأعظم أسبابه ولقد بحثنا جُهْدَنَا وَنَقَبْنَا آخِرَ مَا كَانَ يُمْكِنُنا عَنْ
تلك الخيل لعلنا نصل منها الى غايتنا فلم يتفق أن نرى في نتيجة هذا
البحث سوى الخيل العادية التي لم تطابق رغبتنا ولم تكن لتمتاز في
نظرنا بوجه من الوجوه ذلك كان على الرغم من أن الصدفه خدمتنا
كثيرا في هذا الموضوع وسأقت الينا فيما ساقته من ذلك النوع أكثر
مما سعينا اليه وتعرفناه بأنفسنا في غير مرة وغير مكان هذه كانت
مقاصدنا الذاتية وأغراضنا الجوهرية الاولى ولكننا صادفنا في غضون

السياحة من أخطر الأمور وأجل الأعمال ما اتفق أن نجده في طريقنا عرضاً مما لا نرى في استطاعتنا بيانه على وجهه بأكثر من أن نخيل القارئ عليه في هذه الرحلة فيرجع إليه رجوعاً خاصاً ويدركه حينئذ واضحاً مفصلاً في مواضعه بالأسباب والمناسبات وما كنا لنورده اقتضاباً وإن الحديث يتفرق بالإنسان شعبه ووجهه ويتشعب ببعضه ببعض وأراني بحمد الله قد استفدت من تلك الأمور على ما فيها فوائد جملة ما كان أشد حاجةً مثلي إليها وأنه ما كان يتيسر لي بحال أن أستفيدها جملة وأنتفع أو أنفع بها أبداً إلا من هذا الطريق طريق الصدفة العجيبة التي كثيراً ما كانت تفاجئنا على غير حساب سابق وموعد متقدم ورب صدفة خير من ميعاد ولولا أن وقى الذي حتمته المقادير لهذه السياحة كان شهراً واحداً وهو وقت قصير بالقياس إلى ما كان يلزم للتجول في مناكب الشام الواسعة وجوانبها الشاسعة لكنت استفدت أكثر من ذلك كثيراً ولكانت تكون رحلتى هذه كتاباً ضخماً يحوى في طوإيا صحائفه مجموعة صحيحة صريحة من أنواع متفرقة وفنون متنوعة أما ما كنت شرحته من حياة القوم الاجتماعية وأخلاقهم وآدابهم وشجاعتهم وسياستهم فانه لم يكن بالشئ القليل ولا بالأمر الغامض بل لعل فيما ذكرته من هذا القليل كفاية لمن أراد أن يعرف على وجه

الاجمال ماذا كان تكوين ذلك الشعب الشامي الجليل ، وما هي
أحواله العمومية أو أراد أن يفهم كيف كان شأني فيما بينهم من أول
السفر الى آخر خطوة خطوتها في أرض تلك البلاد نعم ان الظروف
التي وجدت فيها كانت تأبى عليّ في غالب الأحيان أن أجتمع الا بكبار
القوم وخاصتهم وهؤلاء صفات وشمائل لا توجد في مطلق الناس
وعلى الرغم من أني كنت أتحين الفرص من وقت الى آخر لكيما
أختلط بالعامّة وأمارسهم شأن من يهمه الوقوف على المبادئ
والعادات لم يصادف أن يجتمع لي وقت كاف أو تنيسر لي معهم
ممارسة طويلة انما كنت أختلس بعض الزمن وأجد منهم ذلك غرارا
مثل حسو الطير ماء الثأد وأنه ليصعب مع هذا جدا أن يحيط الانسان
بتفصيل موضوع أخلاقي في مجموعة كبيرة تختلف من وجوه كثيرة
وأن يلم من ذلك بما لو أراد أن يعطيه للاستفيد موضوعا وافيا ودرسا
كافيا تحت عنوان أخلاق الشعب وعوائده لجاء فيه على الكفاية من
كل شعبه وأطرافه لاسيما وأنه موضوع دقيق يحوج الى نظر وروية
ريثما يدعو الى عشرة طويلة واحتكاك عظيم ولعل الحاكم بعد ذلك
على أخلاق القوم وعوائدهم يغلب الحكم عليهم تغليباً أو يبنى رأيه
على القياس وهو على كلا الحالين لا يتجاوز موقف الظن ولا يتعدى

وجه الشك في كل الذى يدعيه ايجابا أو سلبا غير أن ذلك لم يكن ليحول بينى وبين ما أردته من تعرّف عامة الشعب الشامى ودرس أخلاقهم على وجه الاجمال بالقدر المستطاع مما عساه أن يعود ببعض الفائدة وما لا يدرك كله لا يترك جله وذلك بالطبع كاف لمن كانت مدة سفره ذهابا وإيابا شهرا واحدا بل هذا ما لا يطمع فى أكثر منه الا من كان ينقطع للشئ لا يفرغ منه حتى يتغلغل فيه ويحيط بجميع أطرافه وحدوده وعلى ذلك اذا نحن ادعينا الآن ما ادعيناها أولا من أن الشاميين فى مجموعهم قوم حميدو الخصال رقيقو الشئائل فيهم وداعة ولطف وسماحة لا نكون قد أكبرنا الدعوى أو أعظمنا الحكم ثم نحكم ونحن مطمئنون بأن أخلاق الخاصة منهم وأحوالهم غاية فى الرقى والكمال ونخص بالذكور من بين هؤلاء جميعا ذلك المفضل الاكرم والسرى الكبير الانغم سعادة عبد الحميد باشا الدروبي الذى كان قد انتهى دوره معنا فى تل كلخ بعد أن طلبنا اليه أن يعود مع سلامة الله الى بلده حمص وما كان يريد الا أن يرافقنا الى طرابلس بحاملة منه ولطفاً فوق لطفه السابق ومعروفه الكبير ولكنى أبليت عليه الا أن يرجع لمباشرة مصالحه التى غاب عنها منذ استقبلنا حتى صرنا فى تل كلخ وهو فى تلك المسافة كلها كان يلازمنا ملازمة الظل

للشخص فما كان يبارحنا ولا طرفه عين الا اذا اقتضته الى ذلك
 ضرورة من نوم وخلافه وقد كان مع هذا رجلا كبير السن يشق عليه
 السفر وتتعبه كثرة الحركة والركوب، لذلك على الخصوص أشفقت
 عليه وما زلت به حتى ودعنا وعاد بالصحة والسلامة تاركا في قلوبنا
 أعظم حب ووداد ،

السفر من تل كلخ

وبعد إذ قدمت لنا عربة سعادة عمر باشا الخاصة التي كانت تنتظرنا
 في التل فركبناها وركب معنا حضرة عزيزنا أحمد بك العريس، وكان
 أمام عربتنا ومن ورائها ثلة من عسكر الجندرية على الترتيب الذي
 أسلفناه، وكان خلف ركابنا مباشرة عربة حضرتي الفاضلين علم
 الدين بك وشقيقه اللذين جمعنا بهما حسن الحظ في ذلك الموضع
 وهما يقيمان الآن في مدينة طرابلس في جهة الميناء وقد كانا قبل ذلك
 في مصر، ولهما نسبة خاصة بالبيت الخديوي منذ حياة المغفور له
 ساكن الجنان والدنا، ولذلك كان لعلم الدين هذا أمل وطيد في أن
 نكون ضيوفه مدة اقامتنا في بلدهم حتى انه ألح كثيرا في دعوتنا الى
 ذلك ولكننا كنا أجبنا سعادة عمر باشا العكاري الذي كان قد سبقه
 بالدعوة وهو الرأس الاكبر في قبائل العكاكرة والزعيم الوحيد الذي

اليه الرجوع في شئونهم وأمورهم، فلم يبق في الوسع اذ ذلك سوى الاعتذار الى علم الدين بك العذر المقبول غير أنه أبى مع هذا أيضا الا أن نتناول لديه طعام الغداء قبل مبارحة طرابلس وقد أجنبناه حيث لم يكن ثمت مانع وشكرنا له معروفه ثم كان وراء عربتهما عربات أخرى يركبها أتباعنا مع المتاع فسرنا تكلؤنا رعاية الله وتحوطنا عنايته بينما كان الفرسان المتسابقون يحيطون بركابنا من جميع الجهات، وما برحنا بين هؤلاء الجموع ننحدر على طريق التل والمناظر الطبيعية البديعة كانت حولنا في طول ذلك الطريق المنحدر وما بعده من أبهج مناظرته العيون وانتعشت به الارواح الى أن بدت لنا معالم طرابلس قائمة على شاطئ البحر وكنا ونحن سائرون نستنشق في نسيمات الشمال روائح ذكية تفوح علينا من أزاهير اللارنج والبرتقال على مسافة ساعة من البلد تقريبا. وعند ما كنا والمسافة بيننا وبين المدينة تقرب من نصف الساعة وجدنا في استقبالنا جمهورا عظيما من فرسان العكاكرة حيث كانوا ينتظروننا في تلك الجهة وعلى مقدمتهم ذلك البطل الباسل سعادة عمر باشا العكارى ممتطيا جوادا أزرق اللون محكم الخالقة بجاء الى جانبنا وتبعه قومه فالتقى الجمعان على هيئة الجيشين يلتقيان في ساحة الوغى وميدان النزال، ومن ذلك الحين أخذ الاحتفال صورة جديدة ومظهرا رهيبا.

مهيبا وقد استمر بنا السير على تلك الحال حتى ترجلنا عن مركباتنا عند بيت خارج المدينة وهو منها على مسيرة بضع دقائق اذ كان قد نخرج عن البلد لاستقبالنا في ذلك البيت سعادة عاكف بك متصرف مدينة طرابلس في مقدمة عدد كبير من رجال الحكومة وأعيان المدينة وعلماؤها ووجهائها وهناك مكثنا بعد أن تصالحنا وتبادلنا السلام والتحية ريثما تناولنا القهوة والمرطبات اللذيذة، وفي تلك الاثناء تقدمت الينا كريمة سعادة المتصرف وأهدتنا باقة ورد جميلة كانت تحملها بيدها اليمنى لذلك الغرض فتقبلناها منها بقبول حسن وشكرنا لها هديتها كما شكرنا لوالدها وجميع الحاضرين اذ ذاك عنايتهم وكرمهم ثم عمدنا الى عرباتنا وانتظم الموكب كما كان أو أحسن وأخذنا نسير من ذلك المكان بين صفوف الالوف من أهل المدينة والضواحي الذين كانوا يختلفون بين رجال ونساء وكبار وصغار وكلهم كانوا يتزاحمون على رؤيتنا ويتسابقون اليها على نحو ما يشاهد في الاحتفالات الكبيرة التي تشهدها الناس ويجمعون لها من قريب وبعيد حتى كان يخيل الينا وقتئذ أننا نمر في حفلة المحمل المصري، وكذلك كان سيرنا طول المسافة حتى وصلنا الى بيت صاحب السعادة عمر باشا الذي كان قد سبقنا اليه ليستقبلنا عنده هو وشقيقه وبقية أسرته الكريمة التي كانت

كلها من ذوات الرتب السامية والالقباب العالية. وقد وجدنا عند مدخل البيت من حفاوتهم وترحيبهم ما أنطق ألسنتنا بالثناء الجميل على أفراد هذه الاسرة الفخيمة من رأسها الى ذنبها

بيت عمر باشا

أما البيت فكان من أبدع البيوتات منظراً وأجملها موقعا وأحسنها ترتيباً ونظماً. وقد زاده بهاء وحسنا ما كان عليه من الزخرف والزينة. وهو قائم في ناحية من المباني عن وسط ميدان واسع يرى من ورائه هيكل البلد في أحد قسميه قائماً على تل مرتفع. وأنه ما كان تمر لحظة وتأتى بعدها لحظة أخرى حتى كنا نحس من أنفسنا بفرح مزيد وسرور جديد وارتياح ونشاط. سبب هذا ما كنا نشاهده أنا بعد آن من حسن وفادة القوم وإخلاصهم الذي كان يجلب مثل فلق الصبح في أقوالهم وأفعالهم نعم انى لا أزال أذكر معروف هؤلاء الأفاضل زعماء العكاكرة وسادة قضائهم فأشكرهم عليه دائماً أبداً ثم ما كدنا نجلس في ردهة الاستقبال وتستقر بنا مواضعنا حتى توافد علينا جميع الاعيان والحكام والعلماء والرؤساء الروحانيين فسلمنا عليهم وشكرناهم تكرر المقابلة وتبادلنا بعض الأحاديث جرياً على العادة ثم صعدنا الى غرفتنا التي خصصنا بها في هذا البيت. وحينئذ أشرفنا من النافذة

لنرى ما كان يحيط بنا من الزحام الهائل واذا بذلك الميدان الفسيح الذى يبلغ بأقل تقدير ثلاثة أضعاف ساحة عابدين فى مصر كان مكتظا بالناس الى حد أن أحدهم كان لا يجد فى الارض أكثر من موضع قدميه ولا فى الفضاء ما كان يسعه يحرك رأسه بل لم أبلغ اذا أنا قلت كما تقول العامة فى أمثالهم المشهورة (ترش عليهم الملح ما ينزلشى) وبعد أن تناولنا الطعام الشهى على مائدة سعادة الباشا واسترحنا قليلا قصدنا الى الحديقة العمومية فى هذا البلد حيث كان دعانا سعادة المتصرف لتناول الشاى فيها ولقد رأيناها مزدانة مزخرفة وكانت الطرق التى سلكنها الى تلك الحديقة غاصة بالاهالى الى درجة لم تعهد الا فى الاحتفالات العظيمة وما كان منهم من أحد الا وكنت أشاهد السرور يتألق على وجهه، وقد لبثنا هناك نتحدث نحن وأصحابنا فى شؤون عامة الى أن شربنا الشاى وتناولنا مالد لنا وطاب مما كان أعد على تلك المائدة الشائقة وأطلقت أمامنا الألعاب النارية الجميلة وعزفت الموسيقى بالسلام وتمت الحفلة فوق مايرام ثم عدنا الى بيت سعادة الباشا وأقمنا فيه ليلتنا مستأنسين بحديثه وسمره مسرورين مبتهجين بما رأيناه من سامى عناية القوم ولطفهم وحين ظهرت شمس اليوم التالى وكان يوم جمعة كنمى الينا ونحن فى البيت أن خيلا

كثيرة وجمالا عدة آتية لأجلنا من ناحية الجبال عليها فوارس عكار
بمزاميرهم وجمهور من بنات العرب غفير وما لبثنا أن رأيناهم جاءوا
في الميدان وكان يلتف بهم عدد كبير من أبناء البلاد ثم شرعوا يزمررون
ويلعبون أمام البيت في ذلك الميدان الرحيب الذي غص بهم حتى
لم يبق فيه متسع لغيرهم بينما كان معظم أهل المدينة فوق التل يشرفون
منه ومن البيوت على الأعيب أولئك العرب الخيالة ونسائهم وينظرون
مهارتهم المدهشة في المغالبة والمضاربة بالحرید والرماح هجومًا ودفاعًا
وكرًا وفرًا، وحقيقة كان هؤلاء الفوارس مهرة حذاقًا يحسنون اللعب
على متون الصافنات البلياد بمختلف أنواعه وأشكاله، وقد كان بين
أظهرهم ثلاثة فرسان ظهوروا على الكل وامتازوا بالخفة والبراعة فكان
لهم فوق ما كان للجميع من العجب والاستحسان واستمر الحال كما
وصفنا حتى قربت صلاة الجمعة وحينئذ تأهبنا لها وذهبنا ومعنا سعادة
المتصرف وبقية أصحابنا إلى الجامع الأكبر المسمى بجامع طيلان

مسجد طيلان

هذا الجامع واقع في الجنوب الغربي من المدينة فأدينا الفريضة فيه ،
وكنا نلاحظ أن المسجد على اتساعه العظيم كان غاصا بالناس ببل رأينا
أن كثيرا منهم كانوا يصلون خارجه لضيقه عليهم ثم عمدنا إلى زيارة

المخافتات المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام فقبلناها مرارا متبركين بها لنسبتها الشريفة بينما كان رجال من أهل الطريق يقرؤون الأدعية والأوراد بصوت جهورى، ومن هناك نخرجنا مشاة في أول السبيل والناس مصطفون على حافتي الطريق كأنهم بنيان مرصوص وأقدرهم إذ ذاك الذى كان يظفر برؤيتنا ويظهر عليهم فيها ثم جىء إلينا بالعربات تشق غمار المحتشدين وتأخذ طريقها من بينهم غصبا فركبناها وقصدنا بيت حضرة الفاضل علم الدين بك لتناول طعام الغداء عنده اجابة لدعوته السابقة، وهذا البيت كان فى الميناء التى يوجد فيها جزء عظيم من المباني لان المدينة التى يطلق عليها اسم طرابلس تتألف من الأبنية الواقعة على شاطئ البحر ومن تلك الأبنية التى ذكرنا أنها على الهضبة بالقرب من بيت عمر باشا العكارى، وبين التل والميناء مسافة ربع الساعة تقريبا بمسير العربات، ويربط بينهما خط الترام العريض فى طريق جميل يجد فيه المسافر على اليمين واليسار بساتين كثيرة وحدائق غناء غرسها فى الغالب من شجر اللارنج والبرتقال الذى كان يملأ الحق بعير زهره الفياح، وقد عرجنا فى هذا الطريق على بيت جناب القومندان فرزناه وشكرنا له همته وجميله، وبعد ما أكلنا هنيئا وشربنا مريئا لدى حضرة علم الدين بك قصدنا الى مياه الميناء

ومنها نزلنا في زورق حتى وصلنا الى احدى بواخر الشركة الخديوية وقبل ذلك كنا ودعنا أصحاب السعادة المتصرف وعمر باشا وأخاه وغيرهم ممن كانوا يرافقوننا في تلك المرة وشكرنا لهم جميعا معارفهم ومجاملتهم مدة اقامتنا عندهم. وحينما وصلنا الى البانحة وجدنا فيها خدمنا مع المتاع حيث كانوا قد سبقونا اليها. وبعد بضع دقائق من نزولنا أقلعت على بركة الله وكانت الساعة وقتئذ اثنين ونصفا بعد الظهر. ومن كان نزل معنا حضرة علم الدين بك وشقيقه لمناسبة أن الاول كان مندوبا من قبل الشركة من جهة ولكي يجد من مرافقتنا في طريق البحر الى بيروت عوضا له مما فاتته من تلك الضيافة التي كان ألح علينا فيها الحاحا وهو يمتناها من صميم فؤاده. وبعد ما تحركت البانحة ذهبت منى التفاتة الى الشاطئ فوجدت على بعد بعيد سعادتي الفاضلين عمر باشا العكاري وأخاه آتيين الى مرسى السفينة بسرعة يظن منها أنهما كانا يقصدان مرافقتنا في هذا السفر. ولكننا كنا قطعنا مسافة طويلة وبهذا السبب لم يدركا غرضهما. وعلى كل حال فاني شاكرهما هذه الهمة القعساء والمروءة الشماء. أما وقد وصلنا الى هنا فلا بد لنا من كلمة على مدينة طرابلس حيث هي من المدن الكبيرة والمراكز الشهيرة .

طرابلس

هى مركز أحد ألوية ولاية بيروت وعدد سكانها ٣٠ ألف نسمة ٢
 يبلغ عدد المسلمين منهم نحو ٢٤ ألف نفس والباقي من طوائف
 مختلفة أغلبهم من الروم الارثوذكس، ويوجد في المدينة ١٤ مسجداً
 ومعبد لليهود و ١٤ كنيسة للمسيحيين لكل مذهب عدد يخصه ثم ان
 للراهبات الفرنسيات ملجأ للأطفال ومدرسة للبنات وللقدس
 الامريكيين مركز للتبشير ومدرسة) ويقال ان فيها للمسلمين مكتبات
 جميلة، أما تجارتها فقد كانت نامية رابحة ولكنها أخذت في الضعف
 والانحطاط منذ تمت السكة الحديدية بين حماه ورياق ويقال ان
 الواردات من الأقطان والمصنوعات قد بلغت نحو عشرة ملايين
 وسبعمائة ألف فرنك، وان الصادرات من الغلال والصوف والحرير
 والصابون والاسفنج بلغ تقريبا من سبعة ملايين ومائة ألف فرنك،
 وأهم ما فيها من الصناعات صناعة الحرير التي اشتهرت منها جدا المناطق
 الحريرية وكذلك صناعة الصابون حتى ان الباعة يروجون بضاعتهم
 من هذين الصنفين بنسبتها الى طرابلس، أما ضواحيها فخصبة التربة
 جيدة المعدن وفيها كثير من شجر الزيتون والبرتقال والليمون وشجر
 التوت وهو أكثر من كل المغروسات لتربية دود الحرير، وفيها أيضا
 تزرع الدخان الذي لا تزال زراعته تتقدم شيئا فشيئا

تاريخ طرابلس

لم يعلم الى الآن ماهو الاسم القديم الذى كان يطلقه الفينيقيون على مدينة طرابلس وقال بعض المؤرخين انه يغلب على الظن أن بناء هذه المدينة لا يتجاوز سبعمائة سنة قبل الميلاد، وهى باعتبارها مدينة من مدن الجمهورية الفينيقية لم يظهر عليها أنها كانت شغلت مركزا مهما في تاريخ تلك الجمهورية، ويقال انها بنيت فى ذلك الوقت على شاطئ البحر وقد بنى فيها الآشوريون والرومانيون بعد ذلك مباني نفخمة تكون منها اذ ذاك جمال المدينة وحسنها، ولكن الزلازل التى توالى عليها خربتها ولم تبق شيئا يذكر من آثار تلك العمار الجميلة، وقد فتحها المسلمون بدون مقاومة منها مطلقا ثم توالى عليها حوادث الحروب الصليبية وغيرها كما تعاقبت عليها مصائب طبيعية كثيرة وهى تتألف كما قلنا من قسمين قسم الميناء البحرية وقسم المدينة الداخلية التى بناها المسلمون وازدادت عمارتها وكثر عدد سكانها فى القرن السادس عشر، وقد اشتهرت طرابلس فيما بين الناس بأنها مدينة غير صحية بسبب ما يظهر فيها من الحميات مع أن هذه الأمراض لا تظهر هناك الا قبيل فصل الخريف وهى مع ذلك قليلة الخطر جدا، وتسمى هذه المدينة عند أهلها بدمشق الصغرى وشوارعها مرصوفة ومرصوبة بالحجارة وعليها

أقبية وعقود يذكّر منظرها بالقرون الوسطى، وفيها سوق للحرير الذي يصنع بها وعدد كبير من الخانات وأجملها كلها خان الصباغة وأحسن موضع يرى منه الناظر جمال طرابلس في مجموعته هو القصر الحصين المبني على الجبل المقابل لها، ويقال ان الذي شيد هذا القصر هو الكنت ريموند ديسانجيل، ويسمى عند المسلمين الى الآن ساندجيل ويوجد خارج المدينة غابة من أشجار الفاكهة عظيمة المساحة جميلة المنظر، أما المدينة البحرية فانها قائمة على لسان داخل في البحر تحيط بها عدة أبراج قديمة، وعدد سكانها يبلغ خمسة آلاف نفس تقريبا وهذا العدد محسوب من جملة العدد المتقدم . هذا وقد قدرنا المسافة من طرابلس الى ميناء بيروت بنحو أربع ساعات قضيناها كلها والحمد لله في راحة تامة وسرور عظيم لأن سير السفينة في طول هذا السفر كان قريبا من الشاطئ كناهيك بمنظر الطبيعة البديع الذي كنا نشاهده على الساحل من شاطئ البحر الى جبال لبنان فقد كان من أحسن ما اتفق أن يراه الانسان في بلاد الجمال

الوصول الى بيروت

وصلنا الى بيروت حيث كانت الساعة ستا ونصفا بعد الظهر تقريبا فوجدنا في استقبالنا على المرفأ حضرات أصحاب السعادة والفضيلة

رجال الحكومة يتقدمهم دولة الوالى ثم العلماء والرؤساء الروحانيون
فالأعيان والوجهاء وبالجملة فان الاحتفال كان بالغاً حدّ الأبهة والوقار
لا ينقص عمّا فى المرة الأولى ان لم يكن قد زاد أمراً معنوياً هو ما كان
يدور بين القلوب من المحبة والاخلاص. وبعد أن تبادلنا السلام
والتحية ركبنا قاصدين الى الفندق الذى كنا نزلنا فيه أول مرة ولم يمض
علينا الا قليل من الزمن حتى توافد الينا جميع الذين كانوا ينتظروننا
على مرسى السفينة فاستقبلناهم شاكرين لهم ما أبدوه نحونا من العناية
واللطف وكان فى ضمنهم وفد من التلاميذ المصريين فى كلية الأمريكان
جاءوا ليتعرفوا منا الوقت الذى نحدده لزيارة مدرستهم وقد وعدتهم
بذلك فى صباح اليوم الثانى ان شاء الله

وكيل البطريك

وكان قد جاءنا على أثر نزولنا فى الفندق أيضاً جناب وكيل غبطة
بطريك الطوائف المارونية يحمل الينا سلام غبطته ويدعونا عن
لسانه الى زيارته فى بيته الذى فى الجبل حيث هو لم يستطع الخروج
منه وقد بلغنى أنه يميل كثيراً الى الاسرة الحديدية لما يعرفه من
رعايتهم لأبناء الشام وما يبلغه من حسن معاملة الحكومة الحديدية
لهذا الشعب ومن ثم كان غبطة البطريك يؤدّ من صميم قلبه أن نعهده

بزيارته كما يستعد بعمل زينة باهرة واحتفال نفيم حتى قال محدثنا في هذا الشأن انه قد صمم على أن يبالغ في تكوين الزينة وروثها الى ما لم يسبق له نظير لسوانا من كل زائريه وضيوفه، ولقد كنت أحب كثيرا أن ألبى دعوة هذا الرئيس الديني الكبير وأصعد لزيارته في الجبل غير أنه مع مزيد الأسف كانت مدة اقامتنا لا تسمح بهذه الزيارة ولذلك قلت لجناب الوكيل ما يتضمن هذا العذر ووعدته أن أستبدل من زيارة غبطة البطريك زيارة مدرستهم فشكرنا ذلك وانصرف مشيعا بما يليق به من الاحترام محملا منا الى رئيسه الكريم عاطر التحية والسلام، وعلى ذلك انقضت سحابة هذا اليوم

زيارة المدارس

ولما أن أصبح الصباح ذهبنا الى زيارة المدارس التي كنا بيتنا النية على مشارفتها، فابتدأنا بزيارة المدرسة الاهلية وحين وصلنا اليها وجدنا في استقبالنا عند مدخلها جناب ناظرها الفاضل وهو رجل هندي الجنس غاية في الأدب والنشاط فسلمنا عليه ورحب بنا وكان يعجبني منه زيادة عن كل شئ احتفاظه بدينه وتمسكه به تمسكا شديدا، ثم انه عرض علينا ما كانت تشتمل عليه المدرسة من الأعمال والأدوات بعد أن طاف بنا على جميع مداخلها وغرفها، وعرض علينا أيضا بعض

التلاميذ ممن كانوا لا يزيد عمر الواحد منهم عن أربع سنوات وامتحنهم أمامنا فيما كانوا يتدارسونه من المسائل والمواضيع المختلفة فسررنا غاية السرور من نتيجة التعليم وآداب التلاميذ وشكرنا ذلك الاستاذ الناظر الذى يرجع اليه الفضل فى بلوغ هؤلاء الاحداث الى مثل هذه النتيجة المحمودة. ومن هناك قصدنا تولا الى زيارة الكلية الامريكانية

كلية الامريكان

وكانت هذه الكلية من ضخامة العمارة وسعة المساحة وجمال الموضع والبناء بحيث تنطبق تمام الانطباق على شهرة الامريكان وما يعرف لهم من الغنى الواسع والثروة الطائلة على أنه قيل لنا ان تلك الكلية لم تقف حتى الآن عند حد محدود سواء من كثرة البساتين أو من الاقسام والعمائر بل هى لا تزال تزداد فى كل سنة زيادة محسوسة بفضل ولاية الامر فيها وتواصل عنايتهم بهاء وعند ما نزلنا من مركباتنا وجدنا على مدخل المدرسة جناب رئيسها المحترم الذى كان قد نخرج الى هذا المكان ليستقبلنا عنده وقد اصطف بجانبه التلاميذ المصريون فاستقبلونا جميعا بالحفاوة والاحترام ثم ما كدنا نخطو أول خطوة من الباب حتى خاطبنا ذلك الرئيس بعبارات تدل على كرم أخلاقه ووداعة نفسه فقال انى أشرف كثيرا بزيارة دولتكم هذه كما يتشرف تلاميذ المدرسة

عموماً وخصوصاً التلاميذ المصريين، وقبل أن تتفضلوا بزيارة المدرسة أستمحكم العفو فيما أريد أن أتشرف بإبلاغه الى دولتكم وإنباهكم اليه . فقلنا له نحن مستعدون أن نفهم من جنابك ما تريد فقال أتشرف بتفهم دولتكم أنه قد جرت العادة في زيارة هذه الكلية بأن الزائر لابد أن يبدأ قبل كل شئ بزيارة المعبد حيث تقام فيه الصلاة كما أنه من الضروري أن الزائر لا يبرح يشهد تلك الصلاة ويسمعها حتى تنتهى لذلك أرجو دولتكم أن تتفضلوا بحضور الصلاة في المعبد وفاق العادة فقلت له يا جناب الرئيس انى وان كنت امراً مسلماً محتفظاً بدينى متمسكاً به دائماً ومُحِبّاً له جداً غير أنى مع هذا نشأت منذ صغرى على حرية الضمير واطلاق الفكر ولست أذكر فى كل عمرى الذى عشته أنى خضعت لشيء حيث كان الا بعد أن أتيت أنه حق صحيح، هذا هو مبدئى مادام يوافق دينى لذلك ترانى لا أبالى أن أزور بيع النصارى وصوامعهم وأجتمع بقسوسهم ورهبانهم كما لا أخشى أيضاً أن أشاهد عبادتهم وصلاتهم بل قد طالما دخلت المعابد والكنائس فى بلاد أوروبا عند ما كانت تقام فيها الحفلات الكبيرة لتتويج القياصرة والملوك وعند غير ذلك أيضاً وقد زرت الفاتيكان فى رومه ومواضع كثيرة من هذا القبيل وأصحابى من النصارى وغير النصارى كثيرون

جدا وماذا على لو أزور المعابد وأحضر الدعاء وأنا معتقد ملء صدرى
أن دينى لا يخالفنى على شئ من ذلك بل ان استكناه الاشياء والوقوف
على حقائق الامور وماهياتها مما يحث الدين الاسلامى عليه بلا نزاع
فلا تظن اذا يا جناب الرئيس أنى اذا لم أوافقك على ذلك الطلب
أكون متعصبا دينيا أو أنى أخشى شيئا آخر معاذ الله ولكن اذا أردت
أن تفهم منى علة امتناعى من دخول المعبد وحضور الصلاة فيه
فأنا أقول بلخائبك بما اعتدته من الصراحة أنى اليوم فى بلاد شرقية ثم
أنا أمير مسلم شرقى أيضا ولا يتفق أن أكون كذلك وأن أجرى على
العوائد والتقاليد الغربية وأنه اذا صح أن الانسان يصبغ نفسه فى بعض
الاحيان صبغة غير صبغته ويجرى على غير مبدئه وعادته فذلك انما
يكون عند ما تحيط به ظروف مخصوصة وتقتضيه الى ذلك دواع
قوية لا يجد له منها مفرًا دون أن يفعل. أما والانسان له من الشئ
مندوحة وسعة وسواء عنده أن يكون ذلك الشئ وأن لا يكون فانه
بالطبع فى حل من أن يختار لنفسه ما يلائم فطرته ويتفق ومصلحته
فقال انى أوافق دولتكم على فكرتكم هذه وهى عندى سديدة صحيحة
لو أنه كان هناك عبادة وصلاة حقيقة أما وليس ثمت الا مجرد مقالة
عادية تتلى على مسمع من دولتكم فى ذلك المعبد فانى لا أرى فى تفضل

دولتكم باجابتى الى ملتضى ما لعله يؤخذ عليكم أمام ضميركم أو أمام المسلمين ولا ماعساكم تنفرون منه وتكرهون حضوره. فقلت له يا جناب الرئيس انى قلت وما زلت أقول لجنابك لم يكن من عادتي أن أتكلف فعل ما لا أريده وإن إقامة الصلاة على هيئتها الحقيقية لم يكن هو المانع لى من تلبية مطلبك فانه سواء عندى أن تكون الصلاة حقيقية أو صورية أو أن لا تكون صلاة أصلا وإنما يمنعنى من ذلك أولا أنه ليس لى فائدة من زيارة معبد قد زرت كثيرا مثله فى أوروبا وغيرها كما أنه لا معنى لأن أحضر حفلة صلاة كثيرا ما شهدتها ورأيتها وثانيا ما أنبهتكم اليه من أنه لا معنى لأن أميراسها شرقيا فى بلاد اسلامية شرقية وفى ضيافة وحماية المسلمين الشرقيين وهو منهم بالنظر الذى لا يستوى فيه كل الناس ثم هو ينسلخ عن تقاليد وعوائده وربما تساهل بعض الشئ فى دينه كل ذلك هو يفعل لغير سبب الا مجرد الخضوع للعادة فى زيارة كلية. أما أنا فلست ممن يقدس العادة أو يخضع لحكمها كائنة ما كانت فلتكن هذه عادتكم فى مدرستكم أما أنا فمخير فى أنى لا أزور الا ما أشاء فانظريا جناب الرئيس بعد ذلك ماذا أنت صانع. أما هو فلها يثس ولم يجد بعد الجهد والاحتياى الا اباء شديدا رجع عن فكرته مقتنعا بما قلناه ثم ذهب الى المعبد وترك

معنا أربعة من التلاميذ المصريين ليرشدونا الى مكتبة المدرسة ريثما يؤدي رئيس الكلية صلاته فذهبنا ومعنا أولئك الطلبة الى دار الكتب المخصصة بتلك الكلية فاطلعنا عليها وكان التلاميذ يرشدوننا الى ما كانت تحويه تلك المكتبة النفيسة ومنها ذهبنا الى المتحف الذي توجد فيه مجموعة كبيرة من حيوانات مخنطة مختلفة أنواعها فاطلعنا عليها وقضينا منها ما ربنا كُثم توجهنا الى معمل الكيمياء والطبيعة والى جملة معامل أخرى فزرتها وكنا في غاية السرور بما كنا نجد من أدب التلاميذ ولطفهم، وبينما نحن نسير بين تلك المعالم اذ حضر الينا جناب الرئيس وراودنا الى زيارة المدرسة فمررنا من الطريق المؤدى اليها أولا بحديقة متسقة فسيحة وشاهدنا في خلال ذلك الطريق دوائر كثيرة وغرفا للتلاميذ حتى انتهينا الى قاعة واسعة كانت هي التي أعدت لاستقبالنا وكان فيما تشتمل عليه تلك القاعة صورة سمو الجناب العالي الخديوي مكبرة مخوفة باطار كبير جميل وكراسي متعددة وهناك كان ينتظرنا جناب قنصل أمريكا وعدد عديد من أساتذة الكلية ومعهم نساؤهم فرحبوا جميعا بمقدمنا واستقبلونا بكل حفاوة واحترام وبعد أن تبادلنا التحية واستقرت بنا مجالسنا قام جناب ناظر المدرسة وتلا على مسامع الموجودين خطابا رشيق العبارة استهله بالكلام على فضل مصر

والمصريين ثم امتدح الاسرة الخديوية بأعمالها الجليلة في تاريخها الغابر
والحاضر وبعد ذلك رحب بنا وأهلنا كرا لنا زيارتنا لمدرستهم وما
أوشك أن يفرغ من مقالته حتى قام أحد التلاميذ المصريين بالنيابة
عن جميع اخوانه في تلك الكلية وخطب أيضا خطبة جميلة كانت
لا تخرج عن نفس الموضوع وقد أعقبها بقصيدة طريفة وهي :

في مثل ذا اليوم العظيم ❀ تهتز بالفخر النفوس
ولمثل ذا الضيف الكريم ❀ بنجلة تحنى الرؤوس
بك يا محمد قد زها ❀ صرح به تجنى العلوم
بلقائك نلنا المشتهى ❀ يا حبا شرف القدوم
يا فرع عائلة سمت ❀ في المجد بين العائلات
وبعهدا مصر نمت ❀ فتجددت فيها الحياة
ما الزهر في فصل الربيع ❀ أذكى وأعطر من شذاك
مالونه الزاهى البديع ❀ أبهى رواء من سنالك
لسمو عباس الامير ❀ بقلوبنا أسمى مكان
ندعو الى المولى القدير ❀ بدوامه طول الرمان
نحن الذين على الوطن ❀ وقفوا النفوس الغالية
ولأجله من كل فن ❀ نجنى الدروس العالية

قد كان في ماضى العصور ❀ نبع التمدن والفنون
وبفضل عباس الغيور ❀ اليوم يوشك أن يكون
وطن لنا أبدا يسود ❀ بقوى المعارف لا القراع
عنه اذا قمنا ندود ❀ فسلحنا هذا اليراع
يا من أتنا زائرا ❀ متفقدا منا الشؤون
سيظل كل ذا كرا ❀ للفضل ما انقضت السنون
أوليتنا نعمما على ❀ نعم بتشريف المقام
بجميعنا هدى الى ❀ عليك شكرا والسلام

هذا وقد قدم لنا صورة هذه القصيدة مكتوبة بخط جميل عليها
امضاءه وامضاء كاتبها فشكرناه وكانت الموسيقى اذ ذاك تعزف بالسلام
الخدوي وحينئذ نهض حضرات المحتفلين عن آنحرم يدعون لعزير
مصر بتأييد عرشه وحفظ ذاته الكريم فما وسعني عند ذلك سوى أن
قمت وابتدأت خطابي له بشكر من كان حاضرا من الأمريكان وغيرهم
وبعدئذ تكلمت باختصار على روابط المودة الوثيقة بين الشعب
الامريكي والشعب المصري وبينت ما كان للشعب الاول من الثبات
والاخلاص في أعماله وذكرت على الخصوص تقرا من الضباط
الذين كانوا قد انتظموا في سلك الجيش المصري وأبنت لهم صادق

خدماتهم التي لا تزال حتى اليوم تتردد على ألسنة المصريين مشفوعة بالشكر العاطر والثناء الجميل وما كدت أجلس حتى دوى المكان دوى النحل بعبارات الامتنان والاستحسان ، وعلى أثر ذلك قدمت لنا صحاف الحلوى وفناجيل الشاي فتناولنا منها ما طاب لنا وشكرناهم ثم قمنا مودة عين من حضراتهم جميعا بغاية الاجلال والتعظيم . ومن هناك عدنا تورا الى الفندق وبعد أن تناولنا طعام الغداء ركبنا سيارة ومعنا حضرة الامثل سليم بك ثابت حيث قصدنا الى التنزه في جهات الضواحي وكان سيرنا في هذه المركبة السريعة على شاطئ البحر من شمال بيروت بين المناظر الطبيعية الجميلة حتى وصلنا الى بلدة تسمى سوق مصباح ومنها عدنا في نفس الطريق الى الفندق حين لم يبق من الوقت الا ريثما يسعنا للعشاء والنوم وعند الصباح توجهنا الى زيارة معمل الخواجه خوري السيوفي وهو معمل كبير للمصنوعات الخشبية وحركاته الصناعية تجري كلها بواسطة الادوات والآلات التي تختلف على حسب اختلاف أدوار العمل واجزائه وهناك شاهدنا من العمال مهارة فائقة ونشاطا عجيبا ولهم دقة غريبة في الصناعة خصوصا صناعة الدواليب التي كانت لا تقل في نظرنا عن الدواليب التي تصنع في أهم فبريقات أوروبا وأشهر معاملها . وبالجملة فان هذا المصنع كان حافلا بالعدد المتينة

والآلات المكيّنة التي تلزم لصناعة الخشب بجميع أنواعه من المبدإ إلى
المنتهى على نحو ما يتصوره زائر المصانع في البلاد الغربية، وقد طفنا
في هذا المعمل على كل ما كان يدور فيه من العمل وسررنا جدا من
تلك النهضة العملية الشريفة التي تبشر بحسن مستقبل الصناعة في بلاد
الشام، وتعدّ خطوة واسعة في طريق الحضارة الشرقية، واذ ذاك
امتدحنا مؤسس هذا المعمل المفيد الذي كان أكبر مشجع لتلك
الصناعة البديعة في بلاد الشرق حتى أصبحنا نرى في مثل بيروت
مصنوعات مهمة تضارع مصنوعات الغربيين في أعظم مصانعهم،
ولابد على طول الزمان أن تنشأ المعامل لمثل هذه الصناعة وغيرها
في كثير من حواضر البلاد الشامية، وحينئذ يتوفر للبلاد شيء كثير من
ثروتها يتبادل بين أهاليها ويصرف منها فيها وذلك هو الأساس الأول
الذي عليه يبني استقلال البلاد وترتكز سعادتها، وأنه بقدر ما كان
سرني أن أرى تلك الحركة العظيمة والنهضة السامية من أبناء سورية
لقد ساءني أني لم أجد مثل ذلك لأحد أبناء مصر وفيهم الأغنياء
المثرون والعقلاء المفكرون، وقد أخبرني جناب الخواجه خوري بأن
لأخيه تجارة واسعة في مصر تصدر إليه من بيروت وهي إذا كانت
من الاتقان بالدرجة التي شاهدناها لا جرم كانت قنّة بأن تحرز ثقة

صید

مدينة صيدا الحالية وهى سيدوم القديمة قائمة على هضبة وهى من هذا تشبه جميع المدن الفينيقية. ثم هى محاطة بجدران غناء تمتد على طول الشاطئ، خصوصا فى الجهة الشمالية، وأكثر ما فيها من الاغراس أشجار البرتقال والليمون والخوخ واللوز والموز والنجيل

ولكن يقال ان هذا الأخير أقل من غيره. أما عدد سكان المدينة فيقال انه يبلغ نحو ١١ ألف وخمسمائة نسمة منهم ٨ آلاف مسلمون و ٢٥٠٠ من اللاتين و ٨٠٠ من اليهود و ٢٠٠ من المذهب البروتستانتي، وهي مركز قضاء باسمها وفيها اسقفان للروم الارثوذكس وأسقف للمارونيين وفيها مدارس اسلامية بعضها للبنين وبعضها للبنات ومدرسة للاسرائيليين تسمى مدرسة الاتحاد الاسرائيلي كما أن فيها للبعثة الانجليزية مدرستين احدهما للذكور والاخرى للاناث ولللاتين دير لجمعية الفرنسيسكان وكنيسة ومدرسة للبنين ولراهبات القديس يوسف مدرسة وملجأ للآيتام وللجزويت بعثة تبشير وكنيسة وعدة مدارس. وكذلك يوجد فيها للمارون وللروم الاتحاديين وللروم الارثوذكس كنائس ومدارس خاصة. أما تجارتها وهي تدور في الغالب على محاصيلها ومصنوعاتها فقد تقدمت في السنين الأخيرة خصوصاً في تصدير الليمون والبرتقال فإنه يقال انها تصدر من هذين الصنفين الى الخارج أكثر مما تصدره من الاصناف الاخرى

تاريخ المدينة

ذكر الشاعر المشهور هو ميروس في بعض قصائده تلك المدينة بنوع خاص مسماة باسمها القديم سيدوم وأسهب في الكلام عليها من جهة

صناعتها ومهارة صناعاتها وعلى ما أمتازت به عن بلاد الشام وغيرها من صناعة النحاس وكثرة معادنه حتى سمي أهلها (السيدوميون النابغون في الصناعة) ومع أن هذه المدينة افتتحت عدة مستعمرات منذ عهد قديم جدا حتى قيل أن ذلك كان قبل قرطاجنة القديمة فان مدينة صور تقدمت عليها في هذا السبيل حتى قيل انها لم تدع نفس تلك المدينة تخرج من تحت سلطتها أيضا وان كانت صيدا مع هذا مازالت حافظة لاستقلالها وقد اشتهر الصيدانيون بالعلوم الرياضية والفلكية والملاحة الليلية وعلى الرغم من أن هذه المدينة كانت في بعض الأزمنة تابعة لبعض الممالك الآسيوية فان ذلك لم يؤثر أقل تأثير في تجارتها التي كانت ولا تزال الى اليوم نامية زاهرة وفي سنة ٣٥١ قبل الميلاد ثارت هذه المدينة ضد ملك العجم (ارتجزسيس) الثالث فهدمها سنة ٣٥٨. وافتتحها بعد ذلك اليونانيون بدون مقاومة ولكنها عادت لحافظت على شيء من استقلالها في عهد الرومانيين . فكان فيها مجلس قضاء يتألف من تسعة أعضاء كانوا في أول الامر ينتخبون مدة حياتهم ثم عدلوا الانتخاب فجعلوا مدته عشر سنين فقط . وكان لها أيضا مجلس شيوخ ومجلس نواب ، ويظهر أن المسيحية هاجمتها مبكرة جدا ولا يبعد أن تكون قد دخلت فيها أول عهدا

وقد انتدبت عنها أسقفها حضر مجمع نيسيه وهي مدينة في آسيا الوسطى وذلك كان سنة ٣٢٥ بعد الميلاد، وفي هذا المجمع وضعت أصول الديانة المسيحية والتأم شمل عقائدها بعد الشتات، وبعدئذ جاء الفتح الاسلامي فافتتحها المسلمون دون أن يجدوا أدنى مقاومة منها وقد توالى عليها مصائب جمّة منذ عهد الحروب الصليبية ففي سنة ١١٠٧ حاصرها الصليبيون حصاراً ضايقها فلم تستخلص منه الا بعد أن اشترت نفسها بمبلغ من المال وكان قد تم على ذلك الصلح بين أهلها وبين المحاصرين الا أن عدم وفائها بشروط الصلح اضطر الملك بدوين الاول أن يفتتحها عنوة سنة ١١١١، وما زالت كذلك حتى افتتحها السلطان صلاح الدين الايوبي سنة ١١٨٧ وهدم جميع حصونها، الا أن مدتها في هذا الدور كانت قصيرة لأن الصليبيين عادوا فأخذوها سنة ١١٩٧، وفي نفس هذه السنة كرّ عليها الملك العادل فأخذها عنوة ثم هدمها ونحرب ديارها، وفي سنة ١٢٢٨ أعاد الفرنج بناءها وعمروها وما زالت كذلك الى أن جاءت سنة ١٢٤٩ فهدمها السلطان أيوب ولكن الملك القديس لويس عمده الى إعادة بنائها وتحصينها في سنة ١٢٥٣، ثم لم يمض عليها وهي كذلك الا سبع سنين وجاء تيار المغول القوي فخرقها في سنة ١٢٦٠، وبعد ذلك

بمّدة ٣١ سنة أى فى سنة ١٢٩١ افتتحها السلطان الاشرف ومن ذلك الحين الى الآن وهى تحت سلطة المسلمين. وقد ابتداء تقدمها فى القرن السابع عشر من وقت ما كان اتخذها نحر الدين أمير الدروز عاصمة له، لأنه فتح أبوابها فى وجوه الأوربيين فزهت اذ ذاك تجارتها واتسعت عمارتها وبنى فيها ذلك الأمير قصرا جميلا لنفسه. وفى سنة ١٨٤٠ قصبتها أساطيل الدول المتحدة فهدمت قلعتها، هذا ولا يزال فى تاريخ البلد ووصفها كلام كثير الا أن المهم ما ذكرناه، ولذلك نكتفى به ونعود الى ما كنا بصدد

السفر الى صيدا

ركبنا مركبة سياره (أتوموبيل) من باب الفندق وذهبنا متجهين نحو ذلك البلد فى طريق كان يمتد معظمه على شاطئ البحر وكانت هذه أول مرة مررنا فيها من تلك السكة التى وجدناها مثل أكثر سكك الضواحي فى بلاد الشام اذ كانت مغروسة على الجانبيين بالزروع والاشجار وكنا نشاهد أثناء السير شجر التوت يمتاز بالكثرة عن كل الشجر وقد قدمنا أن سبب ذلك هو أن ثروة أكثر المدن والقرى فى تلك الجهات معظمها من محصول الحرير الذى يتغذى دوده من ورق التوت فهم لأجل ذلك يكثرون من زراعته فى البساتين وفى الطرق

أيضا. ويقال ان صيدا ازدادت ثروتها كثيرا بسبب اتجارها بالحرير ومنسوجاته. وحينما كنا على مسافة قريبة من البلد ألفينا في انتظارنا سعادة نسيم بك جنبلاط ومعه عدة رجال من مستخدمى الحكومة وثلة من عساكر الجندرية فاستقبلونا بغاية الحفاوة ثم ساروا بنا الى هضبة تبعد عن البلد قليلا حيث على تلك الهضبة تقوم دار سعادة البك التى وجدنا على مدخلها حين وصلنا اليها أنجال سعادته واقفين ينتظروننا فرحبوا بمقدمنا واستقبلونا بما دل على تهذيب نفوسهم وحسن تربيتهم. ثم دخلنا الى ردهة الاستقبال وما كدت أستقر فيها حتى ذهبت منى نظرة الى الحائط فرأيت على دائره صور جميع أفراد الاسرة العلوية من الجدد الاكبر الى الحضرة الفخيمة الخديوية. وكانت تلك الرسوم البديعة متقنة الى درجة أنها تكاد تمثل أشخاص المرسومين لأنها على اتقانها العجيب كانت مكبرة وملونة بالزيت فأنشرح صدرى من رؤية هذه المجموعة أيما انشراح. وحينئذ أظهرت لاصحاب البيت سرورى وجذلى من ذلك العمل الذى كنت أستشف منه اخلاص أسرة جنبلاط الكريمة نحو البيت العلوى القديم. ثم انى اكدت أبدي عجبى واستغرابى من أنى أرى رسم الاسرة الخديوية كلها على حائط هذا البيت وهو قائم على تل من تلول الشام حتى كان

قد أدرك ذلك منا سعادة الامير نسيم بك وقال لنا على الفور لا تعجبوا
دولتكم أن تجدوا أمام أعينكم الآن صور أسرتكم الفخيمة فما هو
الابعض الواجب تؤديه لكم أسرة شامية كانت ولا تزال تستمد عزها
وقوتها من بيتكم الكريم وعرشكم الفخيم منذ عهد المرحوم ابراهيم باشا
جدكم العظيم فلا يستكبر مولاي أن ينظر حائط بيتي هذا محلي ومزينا
برسوم حكام مصر وأمرائها الفخام وانى لست الا أثرا من آثار احسانهم
وغرسا من غراس نعمتهم وكذلك كان والدى من قبلى لأن جدكم
المرحوم ابراهيم باشا هو الذى أسس مجد بيتنا وشاده ورفع قواعده
وعماده منذ تفضل فولى والدنا امارة الدروز واذ ذاك كان فى يد البك
ورقة فناولنا اياها وقال وذلك هو الفرمان العالى الذى صدر من المغفور
له جدكم الى والدنا عندما ولى هذا المنصب الكبير فمثل هذا الاحسان
يامولاي يجعل آل جنبلاط كلهم أسرى لذلك البيت العظيم
شاكرين لأنعمكم مادامت أنفاس الحياة تتردد فى صدورهم
فشكرت لهذا الامير شعوره واخلاصه وبعد ذلك بقليل دعينا الى
غرفة الطعام فأكلنا من طعامهم الشرقى الشهى ألوانا كثيرة ثم خرجنا
من تلك الغرفة الى ردهة جميلة الموضع كانت تطل على البحر من
ناحية وتشرف على صيدا من ناحية أخرى وكان معنا بعض أعيان

المدينة وقد أظهروا لى شدة ميلهم فى أن أزور بلدهم وأتطوف على آثارها وعلى بيوت الكبراء فيها فشكرت لهم حفاوتهم وعنايتهم معتذرا اليهم بضيق الزمن ثم ودعناهم وشكرنا لحضرة البك أمير الدروز وأنجاله أدبهم وكرمهم ،

الى بيروت

ومن هناك ركبنا السيارة حيث كانت الساعة اثنتين بعد الظهر عائدين مدينة بيروت التى لم نلبث أن نقيم فيها الا قليلا ثم قصدنا الى زيارة مدرسة المارونيين وهى تلك المدرسة التى كنا استبدلنا بها زيارة غبطة البطريك

المدرسة المارونية

وصلنا اليها وعند ذلك وجدنا فى انتظارنا على بابها جناب وكيل البطريك وعددا كبيرا من حضرات القسس فسلمنا عليها ورأينا من استقبلهم لنا وترحيبهم بنا ما أنطق لساننا بشكرهم ثم دخلنا الى المدرسة بينما كانت الموسيقى المدرسية تصدح بالسلام الخديوى وكان التلاميذ جميعا مصفوفين صفوفًا منتظمة وكلهم يترنمون بالاناشيد والادوار التى كانت تتضمن الدعاء للحضرة الفخيمة الخديوية فمررنا على صفوفهم

يحيوننا ونحييهم الى أن دخلوا بنا في قاعة واسعة جميلة كانوا أعدوها لاستقبالنا وزخرفوها ووضعوا فيها كراسي متعددة وجعلوا في صدرها كرسيًا خاصًا ممتازًا فأجلسوني عليه وجلس على يميني حضرات وكيل البطريرك و كبار القسيسين والرهبان ولما أن استقر بنا المجلس قام قسيس من هؤلاء وألقى خطبة باللغة العربية ضمنها أولا مدح مصر وذكر فضائلها ومدح الاسرة الحاكمة الخديوية ثم تكلم على مناقب المغفور له محمد علي باشا ومحاسنه في الشرق وقد أفاض في هذا الموضوع تمهيدا منه للرد على بعض شبان الأتراك الذي كان كتب مقالة ضافية في احدى الجرائد جعل لحمتها وسداها الانتقاد على أسرة محمد علي باشا واختصنا منها بجانب عظيم لاندري ماذا كان سببه. فقال الخطيب ما ملخصه انه لا ينكر أحد من الشرقيين والغربيين ما كان للامير الكبير المرحوم محمد علي باشا من الاعمال الجليلة والفضائل الكثيرة التي نهضت بالشرق الى ما جعله مع الغرب في مستوى واحد ولولاها لما كان يقوم الشرق من وهنته ويستيقظ من رقدته، وهي التي لاتزال تمر عليها الأزمان ويراها الناس آنا بعد آن وترسل بها الانباء بين الآباء والأبناء الى أن قال مامفاده واني لا أعجب من شيء في الدنيا عجي من واحد تكون الحقيقة واضحة أمامه يراها بعينه ويلمسها بيده

ومع ذلك ينكرها وهو يحسب أن انكاره هذا يؤثر في تلك الحقيقة ويجعلها في نظر الناس مثل ماهى في نظره .

الشيء الثابت لا يضره فرض عدمه مطلقا ولكن الذى استطاع أن يخذع نفسه ويفرض عدم الموجود أو وجود المعدم ليعيش في عالم الفروض والتقدير هو ذا حقيقة المسكين الذى ما استفاد من عمله سوى أنه شوش دماغه وملاه خيالا باطلا كالأروى الذى غرته قوته فحسب أنه اذا نطح الصخرة أو هنها ونفذ بقرنه فى أحشائها فلها فعل ونظر الى الحجر ليعلم هل نال منه وأثر فيه نطحه لم يجد الا أن مجاهدته عادت عليه بكسر قرنه بعد خفوق سعيه وخيبة ظنه .

كناطح صخرة يوما ليوهنها ❀ فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل بينما الناس جذلون مسرورون بوجود سمو الأمير الجليل محمد على باشا فى بلادهم واذا بشاب من أبناء الترك قام فى هذه الأيام وكتب فى احدى الجرائد مقالة ذم فيها رجل الشرق الوحيد مؤسس العائلة العلوية وأكبر نخر للصريين وهذا عمل لا يوافق عليه أحد من العقلاء وانه اذا كان أبناء الترك لا يريدون أن يعترفوا بجميل محمد على باشا وفضله فان أبناء الشام لا ينسون ما كان لهذا الأمير الكبير من الاصلاحات الهامة والمنافع العامة التى عادت على الأمة فى كل

ما تستدعيه ضرورياتها وحاجياتها بالفوائد الكثيرة والثمرات الكبيرة
أجل ان تاريخ مصر منذ عهده ينطق عليه بالفضل ويشهد له بالمهارة
والنبيل ويؤيد ما اتفق عليه المصريون والشاميون بل الشرقيون جميعا
من أن هذا المصلح العظيم هو الذي طير المدينة الى مصر وهناك
وضعها حيث عرف كيف يستفرخها وينتفع منها بما لا تزال تتدرج
به البلاد في طريق رقيها وسعادتها من يوم الى يوم حتى كانت قد
بلغت في ابان عهده من الحضارة والعمران الى ما صارت به ورده
زاهية في يد الشرق يتيه بها ويعجب حتى ان الغرب نفسه كان يحسد
الشرق عليها وينظر اليها من بعيد وهو لا يستطيع أن يشم لها ريحا
هذا كان خلاصة ما قاله الخطيب على مسمع منا ومن اخوانه أما أنا
فلست أقدر أسنى من أنى أرى واحدا من أبناء المسلمين يهجو ويذم
محمد علي باشا وينكر فضله بيننا المسيحيون لا يزالون يقدرونه حق
قدره ويعترفون له بالجميل ثم يقومون في المحافل ويدافعون عنه وكان
مثل هذا التركي المسلم أولى وأحق بالمدح والدفاع هذا وقد كان في ضمن
ما تفوه به حضرات المحتفلين ذكر المارونيين المستخدمين في مصر
والمقيمين بها وبيان عناية الحكومة المصرية بهم خصوصا الجناح
الحدوي وبعد ما شكرناهم وأبدينا لهم سرورنا ذهبنا متجهين الى

الفندق وهناك تجهزنا للسفر ثم نخرجنا فأدينا ما كان علينا من الزيارات حيث زرنا دولة الوالى ودولة متصرف لبنان وحضرة القومندان وقبل قيامنا من بيروت بلغتنا حادثة ازعجتنا وكدرت صفونا وهى خبر وفاة المأسوف عليه الخواجه سرسق فقد كان لهذا الخبر أشد تأثير فى أنفسنا بعدما أنه كان دعانا لتناول الطعام فى منزله وكنا أجبناه الى ذلك ولكننا مذبغنا نعيه عدلنا عن الذهاب لهذا الخصوص على الرغم من أن أسرته كانوا قد استعدوا بالفعل وقد ذهبنا لتعزييتهم وشكرهم على هممتهم الكبيرة التى لم يكن يمنع منها هذا الحادث وهو أشد ما يكون على نفوسهم ثم توجهنا الى البانحة الفرنسية بعد الظهر مودعين من حكام المدينة وأعيانها ومظاهرها بما كان لا يقل فى الرسميات عن الاستقبال

خاتمة

فى هذه الخاتمة نذكر لحضرات القراء قانون جمعية الاتحاد المصرى بالكلية الامريكية فى مدينة بيروت وفاء بسابق الوعد فى نشره وهو

المقدمة

دخلت جمعية الاتحاد المصرى هذه السنة طورا جديدا من حياتها وبلغت شأوا لم تبلغه فى السنين الماضية من النظام فى اجتماعاتها والدقة

في أعمالها وقد قامت بعدة مشاريع مفيدة منها هذا الكتيب وهو يحتوي على ما ينبغي للاعضاء معرفته من قوانين الجمعية وأسماء موظفيها وغير ذلك وقد صدر برسم الحضرة الفخيمة الخديوية تيمنا بطلعته وقد اتفقت الجمعية مع أهم الصحف المصرية على ارسالها باسم الجمعية لتوضع في مكتبة الكلية ليطلع عليها كل مصري ويقف على ما هو سائر في بلاده

أسماء الموظفين

الرئيس	عبد الغفار افندى جمجوم
نائب الرئيس	انيس افندى ساويرس
السكرتير	أميل افندى زيدان
أمين الصندوق	بولس افندى علم
اللجنة الادارية	

عبد الغفار افندى جمجوم • أنيس افندى ساويرس • أميل افندى زيدان • بولس افندى علم • محمد افندى أنور روجي • مصطفى افندى زكي • شعبان افندى مصطفى

قانون الجمعية

أولا - غاية الجمعية هي التعاون والتضامن بين أعضائها وترقية الافكار الادبية والعلمية بين طلبة الكلية المصريين

- ثانيا - لا تعرض الجمعية مطلقا لقوانين المدرسة ولا تتحزب
لأى عقاب تصدره على أحد من المصريين
- ثالثا - تتكون الجمعية من أعضاء ورئيس ونائب رئيس وسكرتير
وأمين صندوق ولجنة ادارية تقوم بأعمال الجمعية
- رابعا - تتكون اللجنة الادارية من رئيس الجمعية ونائبه والسكرتير
وأمين الصندوق وثلاثة أعضاء ينتخبون
- خامسا - اللجنة الادارية ممكن اجتماعها كلما مست الحاجة بطلب
من الرئيس أو بأغلبية أصوات أعضائها
- سادسا - الاستدعاءات للانتخاب يشترط أن لا تصدر الا من
تلاميذ الدوائر العليا
- سابعا - يشترط أن يكون الرئيس والنائب من الدوائر العليا
- ثامنا - يجدد انتخاب الموظفين في كل سنة مدرسية
- تاسعا - تلتئم الجمعية مرتين في أول وثالث خميس من
كل شهر
- عاشرا - لا يسمح لأحد بالتكلم في مسألة أكثر من مرتين
- حادى عشر - على كل عضو أن يدفع خمسة بـشالك رسوم عضويته
على دفعتين الاولى في أول السنة المدرسية والاخرى في منتصفها

ثاني عشر - تصرف المصاريف المتحصلة فيما يفيد الجمعية بقرار
منها في جلسة رسمية

ثالث عشر - على أمين الصندوق أن يقدم تقريراً شهرياً للجمعية
بالوارد والمنصرف

رابع عشر - في آخر خميس من شهر مايو تجتمع الجمعية لجلستها
الآخيرة وتكون تلك الجلسة قاصرة على انتخاب رئيس ونائب رئيس
وسكرتير وأمين صندوق للسنة المدرسية التالية ثم تعين لجنة برئاسة
الرئيس لمقابلة الطلبة الجدد ومساعدتهم مع اعلان ذلك في الجرائد
المصرية ان أمكن

خامس عشر - كل من يخالف بندا من هذا القانون يرفق
من الجمعية في جلسة رسمية ولا يكون له أى حق في استرداد ما دفعه
للجمعية الى هنا

وقد انتهت رحلتنا الشامية وعدنا بسلامة الله الى الديار المصرية
وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين

تكملة الرحلة الشامية

سبق أننا أشبعنا الكلام فيما يتعلق ببلاد سورية من جهات متعددة فمن ذلك ما ذكرناه من خصوبة أراضيها وطيب مناظرها ونضرة بقاعها وحسن عمارتها الى غير ذلك مما له مساس بوجودها ومقوماتها والآن نريد أن نبدي للقراء بعض ملاحظاتنا على حالة تلك البلاد من الوجهة الاقتصادية والوجهة الاجتماعية لعلنا نصيب من قلوب السوريين مكان الناصح المجرب الذي يريد بذلك الشعب الكريم وبلاده العامرة دوام السعادة وعميم الخير والسلام، ذكرنا قبل الآن أن أراضي سورية في غالب الجهات من الأراضي الزراعية الخصبة التي تغل جميع الأصناف الحبوبية وغيرها وريها سهل متوفر من الأمطار والأنهار الكثيرة وكذلك الينابيع والعيون والجداول التي تتخلل تلك الأراضي الجيدة بكثرة بليغة ولا شك أن مناظر سورية الطبيعية التي يشاهدها المسافرين حين وآخر قد فاقت كثيرا غيرها من المناظر الجميلة، ولست أجدني مبالغا اذا قلت انها بلغت من البهجة والحسن ما لا يدرك وصفه شاعر مهما اتسع خياله وانفسح مجاله. أما البلاد الشامية في مجموعها فهي بلاد شرقية على معنى أنها لا تزال الى اليوم محافظة على القديم من كل تقاليدها وعوائدها فتجارتها

في معظم البلاد تدور غالبا على منسوجاتها ومصنوعاتها ومحاصيلها الزراعية بمختلف أنواعها وأصنافها ويسر الانسان أن يرى لهذه التجارة البلدية ربحا كبيرا ورواجا عظيما بين سكان المدن والضواحي لأن جميع الحاجيات متوفرة في أسواق هذه البلاد وكلها والحمد لله من البضائع الشرقية الجميلة ، وأما ما يوجد من التجارات الأجنبية في بعض المدن ويكون له رواج فيها بحكم مركزها الجغرافي فهو قليل في جانب التجارات المحلية بنسبة محسوسة ، أما أراضي هذه البلاد سواء الزراعية منها وغير الزراعية فانها لا تبرز حتى الآن في أيدي الوطنيين يتبادلونها ملكا وانتفاعا لاحظت ذلك في أغلب الجهات التي شارفتها وما علمت أن لأجنبي ملكا بين أملاكهم ولا ضيعة وسط ضياعهم كما يشاهد ذلك في غير تلك البلاد خصوصا في مصر وأما اللغة التي يجري بها مخاطب القوم وتستعمل في محاوراتهم فهي اللغة العربية التي لا تفتأ سائدة على جميع اللغات في تلك البقاع ، وإن كنا لاحظنا أن لهجات الناس تختلف قليلا باختلاف الجهات فلهجة الدمشقيين كانت غير لهجة الحلبيين غير لهجة البعلبكيين بفرق غير كبير ، وقد تقدم مثل هذا في الرحلة مع ما يفيد أن الخطاب بين السوريين والأجانب يحصل غالبا باللغة الفرنسية ، وأما عوائد

الناس وأخلاقهم وأزيائهم فانها لم تختلف عن حالتها الفطرية الا قليلا في بعض الجهات التي يكثر فيها وجود الأجانب كالشواطئ والمراسي التجارية الشهيرة، وبديهي أن الاختلاط الذي أساسه المعاملة والأخذ والرد يكون مدعاة الى تحوّل الطباع وتغير الأخلاق، ان الارتياح الكبير الذي يدب في نفس الراحل عند ما يشاهد حالة تلك البلاد الحاضرة واحتفاظ أهلها بما كان عليه آباؤهم وأسلافهم من التقاليد والعوائد ينبه الانسان في الوقت نفسه الى ما يدنحه المستقبل لهذه البلاد فلا يلبث أن تساوره الأحزان وتوابعه الا لام خوفا واشفاقا عليها أن تقع لا قدر الله فيما يعقب الحسرة والندامة لاشك أن الانقلاب العظيم الذي أدركناه ولا تزال ندركه كل يوم في جزء كبير من الشرق وتآلم منه خصوصا في مصر بسبب كثرة الأجانب وانتشارهم في عموم القرى والحوضر تقريبا حتى أصبح معظم البلاد الشرقية يضاهي بلاد الغرب في غالب الأحوال، هذا الانقلاب يبدل من طمأنينتنا قلقا ومن صبرنا جزعا ويجعلنا دائما في خوف شديد على مثل بلاد سورية وأنه ليس الا هي وحدها البقية الباقية التي تذكرنا الى اليوم بتاريخ الشرق القديم بل ان الخطر الخطير الذي يهدّد تلك العوائد الأصلية والتقاليد الشرقية العتيقة ما بين آن وآن هو أن يروق

التمدن الأوروبي في عيون أهل هذه البلاد فيفتحوا أبوابها فرحين به مرحين بمقدمه كما فعل غيرهم من قبل ، فقد شاهدنا أن التمدن الغربي ما دخل جهة من الجهات الا وغير معالمها وبدل شؤونها وقضى على أخلاقها وعوائدها وتقاليدها ، وأول ما ينال منها تغيير الملابس والأزياء التي يروجها الرخص ويسوّها حب التقليد المفطور عليه الانسان ، هو يفرح حينما يشتري ثوبه رخيصا من البضاعة الأجنبية ويظل ثملا بنشوة الرخص غافلا عما يعتقبه من فشل تجارة بلده التي لا تلبث الا ريثما تروج البضاعة الخارجية ثم تتلاشى ويذبل عودها ثم يمحى أثرها من الوجود بالمرّة وفي ذلك من الخسارة العظمى مالا يحصى خصوصا عند ما يصبح تجار البلد معطلين بعد العمل وفقراء بعد الغنى وأدهى من ذلك وأمر أن تفقد البلاد أعظم ركن ترتكز عليه ثروتها واستقلالها وكل ذلك في نظير شيء تافه يظن المبتاع أن له منه وفرا وثراء ، لا يفهم القارئ مما قدمناه أن مقصدنا هو أن تغلق البلاد الشرقية أبوابها في وجه التجارة الغربية حتى لا يدخل منها شيء في تلك البلاد فاني أقدر بعض المصنوعات الأوروبية وأعترف بحسنها ومنفعتها في بلاد الشرق ولا اني أكره التمدن الغربي وأمقت دخوله في أرض سورية أو غيرها من البلاد كما ربما يفهمه تعبيرى السابق لأنى أعتقد

أن الحياة الراقية في كل مكان إنما هي معقودة بلواء ذلك التمدن وأفهم تماماً أنه مامن عمل نراه مفيداً في الحياة الاجتماعية الا وهو شعبة من شعب الحضارة الأوروبية ونعت من نعوتها ولا يفهم غير ذلك أحد الا كان مخطئاً في فهمه .

ان كل بلد دخلها شيء من التمدن الأوروبي لاشك تمتاز عن غيرها وتحس بحياة جديدة أرقى بالطبع من حياتها الأولى ضرورة أن البلدة التي تتمتع بمنافع البخار والكهرباء وتستفيد من استخدامهما تجد لها حياة غير ماتجده البلدة الخالية من ذلك وإنما الشيء الذي أكرمه حقيقة ولا أحب أن يكون أبداً هو أولاً أن تأخذ التجارة الأجنبية من نفوس أهل الشام مأخذها من نفوس المصريين مثلاً لأن ذلك ان تم أفضى ولا بد الى أن تحمل تلك التجارة محل التجارة المحلية وثانياً - أن تتألف شركات أجنبية لاحتكار بعض الامتيازات التجارية والصناعية فإنها وإن أفادت البلاد كثيراً من ناحية الاجتماع الا أنها تضرها ضرراً بليغاً من جهة الاقتصاد ، انى أميل كثيراً الى الشركات وأعرف بكل تأكيد أن ما يقدر عليه الاثنان قد لا يقدر عليه الواحد بل يمكن للجماعة الاثنيان بما يستحيل على الفرد مهما توفرت له الأسباب والوسائل ، أفهم هذا وأفهم كذلك بجانبه أن بلاد

الشرق خصوصا بلاد الشام تحتاج كثيرا الى تأليف الشركات لايجاد المرافق والمصالح التي تستدعيها حالة البلاد، غير أني لأحب أن تتكون هذه الشركات من الأجانب متى كان يمكن أن تتألف من أهل البلاد نفسها وقد يوجد والحمد لله رجال سوريون وعندهم ثروة طائلة سواء المقيمون في بلادهم أو في مصر وغيرها لأحسب أن هؤلاء يضمنون على أوطانهم بايجاد الشركات اللازمة منهم أنفسهم ليدوم للبلاد مجدها ويحفظ لها سعداء ان من أسباب الأزمات المالية في البلاد وفرة المال وهي لا تيسر في الغالب الا من وجود أغنياء الأجانب فيها وتساهل المصارف أيضا، يجيء الأجنبي ليشتري أرضا يزرعها أو يبنى فيها بيتا فيفرح الوطني ببيع جزء من أرضه عند ما ينقده ذلك المبتاع ثمنا زائدا عن المعتاد الذي تسواه قيمة الأرض، وهو لا يدري ماذا سيحلبه له ولمواطنيه هذا الربح من الشقاء المستمر والخسارة الكبيرة، الأجنبي ثري ولا يبالي أن ينقذ عماله أجرة عظيمة ليصطنعهم لنفسه ويستخلصهم لخدمته، فالعامل الذي تفرض أنه كان يتقاضى في خدمة سيده الوطني ثلاثة قروش عند ما يجده يأخذ أجره من ذلك الأجنبي عشرة قروش مثلا لا بد أن يطمح الى الزيادة أو بالأقل لا تهبط به نفسه يوما أن يعود فيشتغل عند الوطني بدون

ذلك المبلغ، بل هو يفضل اذا اقتضته الى الشغل ضرورة أن يموت على أن يعيش بهذا المكسب القليل، أو أن يرتزق من الوسائل التي يأبأها الشرف وتنكرها العفة والمروءة، وعلى ذلك ترتفع أجرة العمال أضعاف ما كانت عليه حتى لا يسع صاحب المزرعة الا الرضوخ لطلب عماله، ثم لا يخرج من هذا الحرج سوى أن يعلى هذه الزيادات على أثمان المحاصيل وذلك يستعقب غلو أسعار الاشياء كلها تقريبا لارتباطها بعضها ببعض الى حد أن يستغرق هذا الغلاء ما كان ربحه البائع وأضعاف أضعافه ذلك فضلا عن الخسارة التي تعود على غيره من أهل بلاده ومواطنيه، ضربنا لك بهذا مثلا ما كنا لنخترعه ولكن نقلناه عن الوقائع التي شاهدناها بأنفسنا في بلادنا، وهذا ما خطر بالبال متعلقا بحالة البلاد من الوجهة الاقتصادية، أما حالتها من الوجهة الاجتماعية فلا مندوحة من الإشارة الى مايجول في النفس بسببها ويكون غالبا مثارا لأسفها ومصدرا لألمها وذلك لما يشاهده الناظر المستطلع للاحوال التي ترتبط بين كبار البلاد وأشرافها وبين الأفراد (الذين هم السواد الأعظم في كل أمة) من الانحلال وعدم الوئام، حتى أنك اذا رددت الطرف لترى تلك الرابطة بينهما لا توجد الا أن الحالة أصبحت ولا أثر لمعالم الوفاق بين الوضع والرفيع،

فلا تجد هيبة عند مسود لسيد ولا احتراماً ولا وقاراً لذلك لا يسع
الغيور على مصلحة أمته الا الاشفاق على مثل هذه الحال ، وهنا لا بد
وأن القارئ تتوق نفسه لمعرفة الأسباب التي أنتجت مثل هذه النتيجة
المحزنة والدواعي التي أوجبت مثل هذا الانقلاب فأقول : ان رجال
الحكومة وأولى الأمر في هذه البلاد سلكوا مع الكبراء والعظماء فيها
مسلكاً وعراً وركبوا معهم مركباً خشناً ذلك لأنهم مارأوا ذات نفوذ
وشوكة الا وعملوا للكسر من شوكته والضغط عليه بيد غير لينة
وعندى أن مثل هذه المعاملة لا تلتئم مع مصلحة البلاد وأهلها بوجه فان
هذه الأعمال أو تلك السياسة ان حسبوها نجحت مرة فلسوف تخطئ
مرات ، وعلى كل حال هي لا تنتج الا عكس المطلوب منها لان رجال
الحكومة اذا استطاعوا اليوم اباداة نفوذ هؤلاء السادة ومحوه من صحيفة
الوجود فلن يستطيعوا أن يقفوا أمام كل من يقوم خافاً لهم من نابتهم
وأولادهم ذلك الخلف الذي يملك من نفوس العامة بحكم الطبيعة
صفة الرضوخ والانقياد بسهولة تساق بحكم ما تأصل في النفوس من
السالف القديم وأنت خير بما للا احترام السائد لدوى البيوتات الرفيعة
في كل أمة من التفوق والرجحان هذا فضلاً عما يعرف بحكم الطبيعة
على الميول والعواطف من التأثير والقوة ، وانه اذا صح ما يقال من أن

بعض أرباب الرتب وأصحاب الحثيات والمقامات قد ارتكبوا مالا يحسن بأمثالهم حتى ساءت سمعتهم، فلا ينبغي أن يؤخذ الكل بذنب البعض، ولا أن يعاقب البريء بذنب المجرم على آلى تقابلت مع كثير من أصحاب البيوتات الكبيرة وأرباب المقامات العالية في بلاد الشام فوجدت منهم رجالا يتفانون في حب الدولة مخلصين في وطنيتهم، وفيهم غيره قوية وشهامة شديدة فضلا عن أنهم ممثلون مروءة ووفاء، فأمثال هؤلاء ما لهم ولأولئك الذين أساءوا إلى أنفسهم حتى ينضافوا إليهم وينسحب حكم الشقاء عليهم. العدل أن يحافظ على كرامات ذوى البيوت الكبيرة ماداموا محتفظين بشرفهم واحترامهم. أوجه خطابي هذا إلى السوريين وأذ كرأتى رأيت أن مصر كانت منذ ثلاثين سنة تقريبا حافلة أهلة بالدوات والكبراء الذين كانوا يغارون على البلاد ويحبونها حبهم لأنفسهم حتى قضت الدخلاء ويغش من كان من ذوى النفوذ أن يحطوا من كرامتهم ويعملوا الكسر نفوذهم وشوكتهم، فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم وأصبحت البلد محرومة من اخلاصهم وفضلهم. فعلى كل غيور على مصلحة قومه أن يوضح الطريق لهؤلاء الذين يريدون أن يقفوا لمقاومة الطبيعة وعبثا يحاولون،

إلى هنا وأعود مكررا ثنائى الجميل وشكرى الجزيل لحضرات السوريين

الأفاضل الذين أكرموا ضيافتى وأحسنوا وفادتى وأظهروا لى من
اخلاصهم ووفائهم ما عرفت منه حقيقة أن فى الشام رجالا يرجع
اليهم ويعول عليهم بفخراهم الله على صنيعهم بنا خير ما يجزى العاملين
المخلصين وبعد فانى أحمد الله جل شأنه على ما ألهمنى اياه من هذه
الجولة الجميلة التى استفدت فى أثناءها زيارة بلاد طالما تأقت لها نفسى
وأشكره سبحانه على سلامتنا من المبدأ الى النهاية ومن الباعث حتى
الغاية وأصلى وأسلم على رسوله وصفوته من خلقه سيدنا ومولانا محمد
وعلى آله ما تحدث الناس أو جرى قلم على قرطاس

فهارس بكتاب الرحلة الشامية

١ - فهرس مواد الكتاب

٢ - فهرس الاعلام

٣ - فهرس الاماكن

فهرس مواد الكتاب

٣	المقدمة
٦	الدناشة والمكاكرة
٩	السفر من بور سميد
١٣	في الفندق
١٥	رد الزيارة
١٨	استطراد في الطريق الى بحث اخلاقي
٢١	عود الى بدء
٢٢	زيارة متصرف لبنان
٢٤	زيارة القومندان
٢٥	حديث مع بعض التلاميذ
٣١	زيارة المدرسة الحربية
٣٢	المدرسة المكية
٣٤	نزهة في النواحي
٣٨	غريبة في بيروت
٤٠	الى متصرف لبنان
٤٣	زيارة المجلس البلدي
٤٧	كلمة من بيروت
٤٨	وصف منظر
٥٦	السفر الى دمشق
٦٦	موقع الجبل
٦٧	حاصلات لبنان
٦٧	هواء لبنان

٦٨	صناعات لبنان
٦٨	دمشق
٧٦	زيارة الفندق
٧٩	سياحة في المدينة
٧٩	الانكليزي في دمشق
٨٢	اسواق المدينة
٨٤	فكاهة
٨٤	جامع بني أمية
٩٠	اهداء عالم
٩١	صلاح الدين الايوبي
٩٣	الصالحية
٩٩	في محطة دمشق
١٠٣	طريق السفر الى بعلبك
١٠٤	مدينة بعلبك
١٠٤	تاريخ المدينة
١٠٧	من المحطة الى الفندق
١٠٩	اسرة مطران
١١١	قلعة بعلبك
١١٥	اهداء مدير الآثار
١١٦	كلمة في القلعة
١٢١	الى المسجد
١٢٢	السفر الى حمص
١٢٢	اليامات
١٢٣	ملحق بقلعة بعلبك
١٢٥	نبذة من اخلاق المتقدمين وموائدهم
١٢٦	ظلم الحكومات في الزمن القديم
١٢٨	مدينة حمص
١٢٩	اليرموك
١٣١	زيارات
١٣١	قلعة حمص
١٣٢	كلمة عامة عن المدينة

١٣٣	جامع خالد بن الوليد
١٣٤	الى بيت الباشا
١٣٥	مدرسة الاسرائيليين
١٣٩	السفر من حمص
١٤٠	حماة
١٤٢	لتح حماة
١٤٦	في محطة حلب
١٤٩	رد زيارة
١٥٥	مسجد سيدنا زكريا
١٥٧	قلعة حلب
١٦٠	بيت الجابري باشا
١٦٢	الى النزل
١٦٣	في نادي الاتحاد والترقي
١٦٨	حلب
١٦٩	تاريخ المدينة
١٧٤	بيوت المدينة
١٧٥	السفر من حلب
١٧٧	حديث الامير المغربي
١٧٩	السفر من حمص
١٨١	في الطريق
١٨٣	حادثة في الطريق
١٨٦	استطراد في السياحة
١٩١	السفر من تل كلفج
١٩٤	بيت عمر باشا
١٩٦	مسجد طيلان
١٩٩	طرابلس
٢٠٠	تاريخ طرابلس
٢٠١	الوصول الى بيروت
٢٠٢	وكيل البطريرك
٢٠٣	زيارة المدارس
٢٠٤	كلية الاميركان

٢١٣	صيدا
٢١٤	تاريخ المدينة
٢١٧	السفر الى صيدا
٢٢٠	الى بيروت
٢٢٠	المدرسة المارونية
٢٢٤	خاتمة
٢٢٩	تكملة الرحلة الشامية

فهرس الاعلام

- ١ -

- اسرة مطران بك ١٠٧
اسعد باشا الجابري ١٤٦ ، ١٥٣
الاسكندر ١٧٢
الشيخ اسماعيل ٦
اسماعيل بك كمال ٣٥
الطائفة الاسماعيلية ١٥٦
السلطان الاشرف ٢١٦
الاشوريون ٧ ، ٢٠٠
الدولة الاموية ٤
الملك انطونيو الصالح ١٠٥ ، ١٠٧
الملك اوفيسست ١٠٥
السلطان ايوب ٢١٦
- ابراهيم الخليل ١٦٩
ابراهيم بك الكبير ٣٥ ، ٤٥ ، ١٣٢ ، ١٧٤ ، ٢١٩
ابو عبيده بن الجراح ٨٥ ، ١٠٥ ، ١٠٩
ابو الفداء الحمري ١٤١
المطران ابيفانيوس ١٩
احمد الحسيني ٧٠
الشيخ احمد طيارة ٤٥
الشيخ احمد عباس ٣٤
احمد بك العريس ٨ ، ١١ ، ١٣ ، ١٦ ، ٨٠ ، ١٥٥ ، ١٨٠ ، ١٩١

- ب -

- الكونت برانثيسبيسكي ٣٦
بشير افندي ١٦٣
الدكتور بشير القصار ٣٣
بني دندش ٧
الامبراطور بيتودوز ١٠٥ ، ١١٣
الملك بيدوين ١٧٦ ، ٢١٦
البيزنطيون ٧ ، ١٧٣
- ارنجزرسييس الثالث ٢١٥
الامبراطور اركليوس ٨٤
اسرة الازهري ١٧٦
اسرة بسترس ١
الاسرة الخديوية ٤٤
اسرة سرسق ١
الاسرة الكيلانية ١٧٦

- ت -

تنكر ٨٧

توفيق باشا ١٤٦ ، ١٥١

توفيق بن حجة ١٤١

تيمورلنك ١٦٠ ، ١٧٤

- ج -

الجاسوس على القاموس ٣٦

جبرون بن سعد بن عاد بن ارم بن

سام بن نوح ٦٨

الخورفسقوس جرجس سلحت ١٦٣

الجمعية العلمية ٣٣

جورجي خياط ١٦٤

- ح -

الحروب الصليبية ٧

حسني بك ٧٠

حمت بن كنعان ١٤١

حمص بن المهرب بن جان بن

مكنف ١٢٨

حلب بن مهران بن مكنف ١٦٩

- خ -

خالد بن الوليد ٨٥ ، ١٠٥ ، ١٢٩

- د -

داود ١٦٩

دروز حوران ٣٨

الدنادشة ٦ ، ١٣١

الدوحة العلوية ٤٤ ، ٧٧

- ر -

رافع بن عبد الله السهمي ١٠٦

راميس ملك آشور ١٦٩

روحي بك ٧٠

الرومان ٧

الكونت ريمون ديسانجيل ٢٠١

- س -

الساق على الساق ٣٦

الامبراطور سبيتم سفير ١٠٦

الخواجه سرسقي ٢٢٤

السريانيون ١١٨

سلمندار ملك آشوريا ١٧٢

سلوقس ١٥٧

السلطان سليم ١٧٤

سليم بك ثابت ٤١ ، ٢١١ ، ٢١٨

سيف الدولة بن حمدان ١٧٣

سيلوكس نيكاتور ١٧٢

- ش -

شركة كوك ٨

شيركوه ٩٢

- ص -

السلطان صلاح الدين ١٠٦ ، ١١٦

- ظ -

الملك الظاهر ١٥٨

- ع -

الملك العادل ٢١٦

ماكف بك ١٩٣

عبادة بن الصامت ١٢٩

الخديوي عباس ١٣٧

الدولة العباسية ٤

السلطان عبد الحميد ٨٦ ، ١٦٢ ، ١٧٧

عبد الحميد باشا الدروبي ١٠٣ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٣٠ ، ١٥٣ ، ١٥٧ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩

١٩٠

عبد الحميد غالب ٧٨

عثمان آغا دندش ١٨٢

العثمانيون ٧

عرب الرولة ٣٨

الامير عزيز باشا حسن ١٤٩

الملك العزيز بن صلاح الدين ٦٢

مطيانوش ١٢٩

المكافرة ٦

علم الدين بك ٩١

الامير علي بن عبد القادر الجزائري ٧٧

عمر بن عبد العزيز ٧٦

عمر باشا المكاري ١٩١ ، ١٩٧

عمر بن معدى كرب الزبيدي ١٠٦

مياض بن هثم الفهري ١٧٣

- غ -

الامبراطور غليوم الثاني ١١٦

- ف -

الفاتيكان ٢٠٥

الفاطميون ٩٢

الفحيليون ٦

الامير فخر الدين ٢١٧

فخر الدين بك ٧٠

فخري باشا ١٣٤ ، ١٤٦ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٦٨

الفينيقيون ٧ ، ٢٠٠

- ق -

قبايل ٥

الملك القديس لويس ٢١٦

القرامطة ١٤٢

الامبراطور قسطنطين ١٠٥

الامبراطور قينليوس ١٧٠

- ك -

كامل لوقا ١٣٦

كراكلا ١٠٥

كسرى ١٢٩ ، ١٥٧

كسرى الثاني ١٧٢

الكلدان ١١٨

البطريق كيرلوس الدباس ١٠٩

- م -

١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥٧ ، ١٦٢
نسيم بك جنبلاط ٢١٣
النعمان بن بشير ١٤٤
السلطان نور الدين الشهيد ٩٢ ،
١٥٦ ، ١٧٤
نيرون ١٧٠
نيسفور ١٧٣

- ه -

هابيل ٦٥
هريس ١٠٥
هرقل ١٠٥ ، ١٢٩
هولاكو ١٠٦ ، ١٥٦ ، ١٧٤
الملكة هيلانة ام قسطنطين الاول
١٢٢ ، ١٥٥ ، ١٧٠

- و -

الوليد بن عبد الملك ٧٥

- ي -

ياقوت الحمري ١٤١
يشوع ١٦٩
يوسف حرقوش ٣٣
يوسف باشا فرنكو ٢٣ ، ٤٠ ، ٤٤

المأمون ٤
الملك المؤيد ١٤١
مجلة الجوائب ٣٥
محمد بدر الدين النعماني ١٦٤
السلطان محمد الخامس ٩٨
السلطان محمد رشاد ١٣٧
محمد باشا العظم ٨٠
محمد علي باشا الكبير ٣٧ ، ٤٤ ،
٧٧ ، ٧٨ ، ٢٢١
محمد بك محمد ١٨٥
الامير محمد المنيهي ١٧٧
الياور محمود افندي ١٥٥ ، ١٨٠
محمود خيرى افندي ٨ ، ١١
محمود بك دندش ١٨٠ ، ١٨٣
الامير محمود زنجي ١٠٦
مخايل موسى اللف ١١٠
مدحت باشا ٩٧
مرعي باشا ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٧٦
مطران بك ١٠٣
المغول ١٥٦
البطريق مكاريوس الحلبي ١٠٩
الحاج منيع رمضان ٤٤

- ن -

ناظم باشا ١٢ ، ٢٢ ، ٤٤ ، ١٤٧ ،

فهرس الاماكن

- ١ -

- ابيلة ٦٥
ارم ذات العماد ٦٨
ارمينيا ١٧٢
اسلامبول ٨٥ ، ٨٨ ، ١٧٥ ، ١٧٨
اميركا الجنوبية ٥٤
اميركا الوسطى ٥٤
اناضول ١٧١
اهدن ٦٦
الاهرامات ١١٧
اوسترااليا ٥٤
- ب -
- باب الاحمر ١٦٩
باب انطاكية ١٦٨
باب التراب ١٦٩
باب الجديد ١٦٩
باب الجنين ١٦٨
باب جيرون ٩٠
باب الفراح ١٦٨
باب الكنسرين ١٦٨
- باب المقام ١٦٩
باب النصر ١٦٨
باريس ٧١
الباشورة ٣٦
البحر المتوسط ٤٨
بحيرة حمص ١٢٣
برج الدنادشة ٦
بركة الازبكية ٣٧
بشري ٦٦
بعلبك ٦٩ ، ٩٢ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ،
١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤
بغداد ٤ ، ٨ ، ١٤٨
البقاع ٦٣ ، ١٠٣
بقاع العزيز ٦٢
بقاع كلب ٦٢
البلاد الاوروبية ٣
بلاد الشام ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٦٠ ،
٦٢ ، ٧٦ ، ١١٧
بلاد اليابان ٤
بورسعيد ٩
بيت الشيخ عبدالقادر الكيلاني ١٤٢
بيت المقدس ٣٧

- ص -

الصالحية ١٤
صعيد مصر ١١٨
صور ٢١٥
الصين ٤

- ع -

العراق ١٧٢ ، ٦ ، ٥
العجم ١٧٤
عسيب ٣٠
عكار ٧
عين الجر (عنجر) ٦٨
عين صوفر ٦٠ ، ٦١
عين الفيحة ٦٥

- غ -

غابة الصنوبر ٣٥
الغوطة ٦٩

- ف -

فلسطين ٦٨ ، ٥
فندق اوروبا ١٣
فندق الشرق الاكبر ٦٤
فندق فكتوريا ٧١ ، ٧٩

- ق -

القاعة ١٢٣
القاهرة ٣٧

راس العين ١٠٤
راس النبا ٤٣
رومه ٢٠٥
الروميلي ٢٣

- ز -

زحله ٦١ ، ٦٧
زفرته ٦٦

- س -

سامر ١٥٦ ، ١٧٢
السرمين ١٤٤
سهل النقيمة ٧
سوريا ٥ ، ٢٢ ، ٤٨ ، ٦٦ ، ٦٨
سوق الاروام ٩٩
سوق باب البريد ٨٤ ، ٩٩
سوق الحرير ٩٩
سوق الحميدية الجديد ٨٢ ، ٨٤
سوق الخراطين ٩٩
سوق الخوجة ٨٢
سوق المصرونية ٨٤
سوق القطن ٩٩
سوق محمد علي ٨٢
سوق مدحت باشا ٩٩
سوق مصباح ٢١١
سوق وادي بري ٦٤

- ش -

الشام ١٨ ، ٣٧ ، ٤٥ ، ١٧٢

- م -

مأذنة الساعة ٨٩
مأذنة العروس ٨٩
مائة عيسى ٨٨
متصرفية طرابلس ٦٦
محطة بعبد ٥٨
محطة بعوضان ٦١
محطة التكية ٦٤
محطة جمهور ٥٩
محطة الحامي ٦٥
محطة الحدث ٥٨
محطة حماة ١٧٦
محطة حمص ١٢٣
محطة دمر ٦٥
محطة دمشق ٦٩
محطة رفاق ٦٢ ، ١٠٣
محطة الزبداني ٦٤
محطة سرغايا ٦٣
محطة عربية ٥٩
محطة عليه ٥٩
محطة الكتينة ١٢٣
محفل الاتحاد والترقي ١٥٣
مدرسة الاتحاد الاسرائيلي ٢١٤
المدرسة الاهلية ٢٠٣
المدرسة العسكرية الابتدائية ٣١
مدرسة الملك الظاهر يبرس ٩٧
مدرسة اليسوعيين ٢٥
مدينة هبو ٢١٧
مراكش ١٧٧
المريجات ٦١
مشهد علي بن ابي طالب ١٢٨

قبة الخزنة ٨٨
قبة الساعة ٨٨
قبة النسر ٨٨
قبة النوقرة ٨٨
قبر الشيخ احمد فارس ٣٥
قبر النبي الياس ٦٢
قبر النبي زكريا ١٥٦
قبر صلاح الدين ٩٠
قبر عبد القادر الجزائري ٩٤
القدس ١٢٢
قرطاجنة ٢١٥
قرية هيلانة ١٧٠
القشلاق ٢٤
القصر ١٢٣
قضاء البترون ٦٦
قضاء بعلبك ٦٦
قضاء حاصبيا ٦٦
قضاء راشيا ٦٦
قضاء صيدا ٩٦
قلعة بعلبك ١٠٤ ، ١١٠ ، ١١٧
قلعة حلب ١١٧
قنشرين ١٧٣

- ك -

كريت ٩٥
كلية الاميركان ٢٥ ، ٣٠ ، ٢٠٢
كنيسة القديس يوحنا ٨٤

- ل -

لبنان ٤٠ ، ٤١ ، ٥٣

نهر الفرات ١٧٠	مصر ١٣ ، ١٨ ، ٣٧ ، ٤٥
نهر قديسا ٦٦	مصطفية الامبراطور ٩٥
نهر قويق ١٤٥ ، ١٦٩ ، ١٧٠	مطبعة الاميركان ٥٢
نهر الكلب ٥٠	مطبعة حديقة الاخبار ٥٢
نيسيه ١٦ ٢	مطبعة اليسوعية ٥٢
- ه -	معبد باكوس ١١٣
الهرمل ٧	معبد الزهرة ١١٥
الهند ١٧٤	معبد الكرنك ١١٧
- و -	معرة النعمان ١١٤
وادي التيم ٥٣	الملقة ٦١
وادي الزبداني ٦٤	معمل الخواجه خوري السيوفي ٢١١
وادي شهرور ٥٩	مكتبة الحكومة ٩٧
وادي الليتاني ١٠٤	منيل الروضة ١٥٨
وادي يعقوب ٦٣	الموصل ١٤٩
ولاية بيروت ٥٣	- ن -
ولاية سورية ٦١	نهر ابي علي ٦٦
الولايات المتحدة ٥٤	نهر البردوني ٦١
- ي -	نهر بردى ٦٤ ، ٧١
الياعات ١٢٢	نهر البريد ٩٤
اليمن ٦	نهر بيروت ٥٠ ، ٥٧
	نهر السين ٧١
	نهر شالوس ١٦٩
	نهر الطرة ٩٤
	نهر العاصي ١٢٢

